نوابغ الشباب

بقلم

احمد قاسم جودة

بكالوريوس فى الآداب

عنيت بنشره

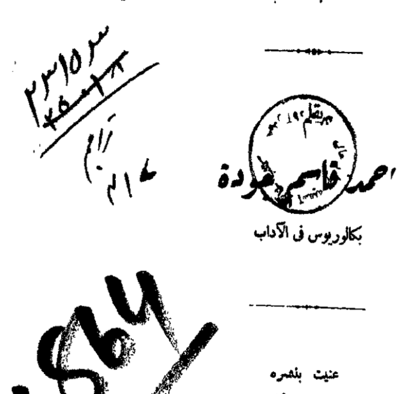
دار الهلال بمصر

١٩٣٨

نوابغ الشباب

«التراجم بطبيعتها أشمل الموضوعات نفعاً ، وأعمها لذة
ومتعة للنفوس ، ولا سيما تراجم الممتازين الأفذاذ»

كارليل



أحمد قاسم جودة

بكالوريوس في الآداب

عنيت بنشره

دار الهلال بمصر

١٩٣٨

مقدمة

حين تفضل الأستاذ اميل زيدان بك فحادثني في وضع كتاب يقدم بين هدايا الهلال السنوية الى القراء ، كان أول ما خطر لى أن تكون لموضوع الكتاب صلة تربط بينه و بين ظروفنا العامة . ولم ألبث أن ذكرت المركز الجديد الذى انتقلت اليه مصر بعد أن اعتلى عرشها جلالة الملك فاروق الأول ، واستقرت علاقتها مع خصوم الأمس على أساس من الصداقة والتعاون . فوقر فى ذهنى أن عنصراً بعينه هو الذى تتطلع اليه مصر اليوم ، لأنه هو الذى سيضطلع بتبعات العهد القادم وينهض بشئونه الضخام الجسام .

هذا العنصر هو الشباب

فمصر تستقبل غدها المجهول ، وعلى عرشها ملك شاب ، وعلى أفواه بنيها آمال عريضة لا يقوى على تحقيقها سوى جيل شاب ، فتى ، مدخور القوة ، عامر القلب باليقين والايمان

فليكن كتابنا اذن ، كتاب الشباب ، عن الشباب ، و إلى الشباب !

وأى حديث أحب الى الشباب ، وأفعل أثراً فى نفسه ، بل أفعل أثراً فى نفوس الشيب والشبان جميعاً ، من تراجم العظماء ؟

ان التراجم بطبيعتها ، كما يقول كارليل ، أشمل الموضوعات نفعاً ، وأعمها لذة ومتعة للنفوس ، ولا سيما تراجم الممتازين الأفذاذ

فليكن موضوع الكتاب اذن سلسلة من تراجم العظماء ، على أن يكونوا جميعاً من عظماء الشباب وأفذاذهم ، حتى نضع بذلك بين أيدى شباب مصر المرجو نماذج من المثل العليا فى التضحية ، والايمان ، والجد ، والوطنية ، والاقدام ، وحرية الرأى ،

وما الى هذه الصفات السامية التى يلمسها القارىء فى هذا البطل أو ذاك من الذين ترجمنا لهم فى هذه الفصول

ويجب أن تنبه الى أن الكتاب لا يتحدث عن (شباب العظماء) ، بل عن (عظماء الشباب) . وفرق كبير بين الأمرين فان مجال الموضوع الأول يتسع لسيرة كل عظيم بلا استثناء ، ولكن الثانى لا يجوز أن يتعدى سير الأبطال الذين كان الشباب صفة بارزة تقترن بما قدموا من خير ، أو بذلوا من جهد ، أو بلغوا من نجاح ، أو أبدوا من وطنية وشجاعة ، او كسبوا لأنفسهم من فخر التضحية وشرف الجهاد

وقد التزمت فى تخير اشخاص الكتاب قيداً آخر هو ان يكونوا جميعاً قد بلغوا أوج مجدهم فى سن الشباب الباكرة ، وظلوا حياتهم موسومين بسمة الشباب

لهذا أغفلت سيرة نابليون وقد بدأ يقود الجيوش الفرنسية فى الرابعة والعشرين من عمره ، ورمسيس الثانى الذى قاد الجيوش المصرية فى سن لا نكاد تقبل التصديق وهى سن العاشرة ، ولورد بيرون الذى كتب أولى رواياته فى الخامسة عشرة ، وفولتير الذى دخل سجن الباستيل وعمره عشرون سنة بسبب كتاباته الساخرة ، فعكف فى سجنه على تصحيح روايته (أوديب) التى كان قد ألفها فى التاسعة عشرة ، وجيتى الذى كان يكتب بالألمانية والفرنسية والايطالية واللاتينية واليونانية قبل أن يبلغ الثامنة ــ أغفلت هؤلاء وكثيرين من أمثالهم ، لأن معظمهم عاشوا حتى أدركوا الشيخوخة أو شارفوها ، وبعضهم كان قد تخطى على الأقل مرحلة الشباب

ولكن حتى فى هذا النطاق الضيق لم يكن يسعنى أن ألم بسير عظماء الشباب كلهم فاخترت عشرة من أشهر هؤلاء الشبان وأقربهم منا لا الى الذاكرة . وحاولت جهد الطاقة ان يكونوا من آفاق وأجناس وأزمان متباينة . ففيهم رجل السياسة ورجل الحرب ورجل الموسيقى ورجل الشعر ، وفيهم العربى والمصرى والانجليزى والفرنسى واليونانى ، وقد تفاوت بينهم الزمن من عهد الحضارة الاغريقية القديمة الى عهد الحضارة الآلية فى القرن العشرين

ولا أريد بعد ذلك أن أتحدث عن الكتاب ، وانما أدع القراء أن يحكموا عليه بما فيه . ولكني أرى انصافا للواقع ، أن أقول انني حاولت ما وسعني الجهد أن أجمع بين البحث التحليلي و بين الجانب القصصي الطريف في حدود الصفحات المقررة للكتاب ، وطبيعي في مثل هذه الحال أن ينال كلا الجانبين من الآخر ، فليست الفصول التالية تحليلا علمياً بحتاً ، ولا هي بالقصص التاريخي البحت . ولكنها بين بين . فيها نصيب للباحث المدقق ، وفيها نصيب آخر للقارىء السطحي الذي ينشد المتعة الخفيفة والتسلية

* * *

بقيت كلمة الشكر والتحية الخالصة أقدمها الى الأستاذ اميل زيدان بك ، الذي طالما أخجلني بعزيز ثقته وكريم تقديره طوال الأعوام الستة التي انقضت الى الآن على اتصالي بدار الهلال

١٨ أغسطس سنة ١٩٣٧ احمد قاسم

فهرس

الاسكندر المقدونى



ما زال اسم الاسكندر المقدونى يقترن فى أذهان عدد كبير من المسلمين ، لعله الأغلبية الساحقة ، باسم (ذى القرنين) الذى جاء ذكره فى القرآن الكريم. فيأبى كثيرون إلا أن يحاولوا اثبات أن الاسكندر المقدونى هو ذو القرنين نفسه . ولهذا يحيطونه بشىء من القداسة والتكريم !

ومن الغريب أن المسلمين لا ينفردون دون أهل الكتاب بالقاء هذا الضوء من القداسة الدينية على شخصية الاسكندر . فان الاستاذ ارثر ويجال عالم الآثار المعروف بمؤلفاته فى التاريخ القديم يروى فى مقدمة كتابه عن الاسكندر أن أساطير اليهود وقصصهم الشعبية تقول إن الاسكندر كان خادم يهوذا صاحب عرش سليمان وأحد حكام العالم الروحانيين الذين جاءت بهم نبوءة دانيال . بينما كانت بعض الكنائس المسيحية تتجاوز عن منطق التاريخ وتنظم الاسكندر فى عداد القديسين المسيحيين ! !

ومما لا يحتمل الشك أن العامل الاكبر فى انتشار هذه الخرافة بين أهل الأديان الثلاثة هو ذلك الغموض الشديد الذى يحيط بمولد الاسكندر فى النصف الاول من القرن الرابع قبل المسيح . فقد التقى فيليب والد الاسكندر ، بأوليمبيا والدته ، أول ما التقيا فى معبد كابيرى بمدينة طيبة . وكانت أوليمبيا على ما يروى بلوتارك فتاة شديدة التدين . وكان لكلمة (التدين) عند الاغريق معنى لا يكاد يضرب بسبب الى مدلولها عندنا اليوم . فقد كانت مراسم التدين إذ ذاك شيئا يشبه الرقص الداعر فى أحط ما يتصور الانسان . وكان التعمق فى (الدين) شيئا لا يختلف كثيراً عن الانغماس فى الشهوات الجنسية واشباع الغرائز الدنيا ! فلما طلب فيليب يد أوليمبيا من ملك إبيروس Epirus

الذى خلف أباها المتوفى على العرش ، استشير الاله زيوس فى الأمر ، وكان زيوس يمت عند اليونانين بصلة وثيقة الى آمون إله المصريين ، فكانوا يسمونه زيوس - آمون. وقبل زفاف أولمبيا بليلة واحدة رأت فى المنام أن صاعقة نزلت على جسمها فأصبح شعلة من النار ، فلما أفاقت من حلمها فسرته بأن الصاعقة لم تكن إلا مظهراً لعناية زيوس-آمون بأمر الخلف الذى يجيئها من هذا الزواج ! وبعد الزفاف بليلة رأى فيليب فى المنام أيضا انه طبع على جسم زوجته بخاتم منقوش عليه رسم أسد ، فقال عراف القصر ان لهذا الحلم دلالة خطيرة . فان الانسان لا يختم شيئا فارغا ، فلابد أن تكون أولمبيا قد حملت ، وأن ولدها سيكون فى الشجاعة والبأس كالأسد . وعندئذ صارحت أولمبيا زوجها بعقيدة بدأت تساورها ، هى أن بين نزول الصاعقة وبين الحمل علاقة وثيقة ، وأن الجنين الذى فى بطنها ليس ابن فيليب بل ابن الاله آمون الذى أنزل الصاعقة فى المنام على جسمها . وكان من أساطير المصريين التى يغلب على الظن ان تكون قد وصلت الى الاغريق ، ان من عادة الاله آمون ان يهبط على مخادع الملكات من وقت الى آخر ، فيحملن منه ملوك المستقبل ، وبذلك يختلط فى هؤلاء الملوك دم البشر ، من طريق الأم ، بنور الآلهة من طريق آمون ! وكان آمون يهبط على الملكة السعيدة الحظ عادة فى صورة حية . وقد عرف عن أولمبيا أنها كانت مولعة بحية أليفة معينة . وقد رآها فيليب نفسه ذات ليلة من ثقب المفتاح تداعب هذه الحية على نحو أثار فى نفسه الشك ، وانتهى به إلى ما يشبه اليقين بأن هذه الحية ليست إلا الاله آمون نفسه ! وكان فى عقائد اليونانيين كما ذكرنا ما يؤيد فكرة اتصال الآلهة اتصال حب بالنساء . وكان المعتقد أن الاله آمون ، فى صورة الحية ، ينفخ من روحه فى المرأة من أذنها ، فتحمل بالملك المرقوب ! فلما رسخ هذا الاعتقاد فى نفس فيليب وقعت القطيعة بينه وبين زوجته بعد الزفاف بفترة قصيرة ، وعرف الناس سبب هذه القطيعة فأخذوا يتحدثون بها ويترقبون مولد ابن آمون المقدس!

وبينما كان فيليب بعيداً عن بيلا Pella عاصمة ملكه ، فى اكتوبر سنة ٣٥٦ قبل ميلاد المسيح ، جاءه البشير بأن أولمبيا أنجبت ولداً هو الاسكندر فى منتصف ليلة من ليالى الخريف العاصفة الماطرة ذات الرعد القاصف والبرق الخاطف . وعلم فيليب فى الوقت نفسه بأن أحد قواده ، ويدعى بارمنيون أوقع شر الهزائم بأهل ايليريا التى كان قد سار اليها . وأن مستعمرة بوتيديا اليونانية سلمت نفسها اليه ، وكذلك علم أن جواده فاز فى سباق عظيم الاهمية فى أولمبيا . وقد أجمع المنجمون على أن مجىء هذه البشريات

الثلاث مع مولد الاسكندر دليل لا شك فيه على أن مستقبل الوليد سيكون باهراً ونجمه متألقا

* * *

نشأ الاسكندر فى عاميه الأولين فى عناية أمه تصرف أمره كيفما شاءت دون أن تسأل أباه أو يسألها شيئا بل دون أن يعنى فيليب حتى بأن يرى وليده ويداعبه كما يفعل الآباء ، فقد كان شغله الشاغل إذ ذاك جيشه الجديد وما عسى أن يبلغ به من فتوح ، ويغزو من بلدان . وأقبلت أولمبيا على الاسكندر تحوطه بأعز ما تحوط به الأم الرءوم طفلها من رعاية وحنان . واختارت له مرضعا نبيلة المولد ، طيبة المحتد ، تدعى هيلانة ، لازمته حتى بلغ من العمر ست سنوات ، أى الى سنة ثلثمائة وخمسين قبل الميلاد . وفى هذا العام رأى أهل مقدونيا من الظواهر الجوية الخارقة ما أكد فى نفوسهم خرافة العنصر الالهى المختلط فى دم الاسكندر ، إذ بقيت السماء أشهرا عدة مسرحا للمذنبات ، والشهب ، كما توالت الزلازل خلال هذه الأشهر على نحو لم يسبق للاغريق عهد به . فلما أشرف الاسكندر على عامه السابع أخذ من بين أحضان مربيته ليعهد فى تربيته كسائر أبناء النبلاء ، الى مرب خاص . وكان المربى الذى وقع عليه اختيار فيليب رجلا طيب الأرومة يدعى ليزيماكوس ، ينحدر من عائلة نبيلة فى اقليم أكارنيا الذى يجاور ابيروس الجنوبية . ولكن هذا الاختيار لم يرق فى عين أولمبيا ، فلم تلبث أن عينت الى جانب ليزيماكوس قريبا لها يدعى ليونيداس ، وجعلت له سلطانا أقوى من سلطان الاول . واذا كان ليزيماكوس قد دل على وفاء نادر للاسكندر الى آخر رمق من حياته فان ليونيداس قد طبع تلميذه بطابع لم يفارقه قط ، وهو طابع الخشونة والرجولة والقصد فى كل شىء ، حتى لقد كتب عنه الاسكندر فيما بعد يقول : « كان من عادة هذا الرجل أن يفتح الصناديق التى كنت أحفظ فيها أغطيتى وملابسى ، ويفحصها ليطمئن الى أن أمى لم تعطنى شيئا لا تمس الحاجة اليه ، ولم تزودنى بشىء يؤدى الى الشهوانية والانغماس فى اللذاذات ! » ويروى بلوتارك أن ليونيداس كان حريصا على أن ينشىء الاسكندر على الاقتصاد فى كل شىء ، حتى لقد رآه يوما فى احتفال دينى يلقى بأعواد الطيب فى النار من غير حساب ، فأنبه تأنيبا شديداً ولفته الى ان الاسراف معيب حتى فى هذا المقام !

ومضت أعوام خمسة أخرى من حياة الاسكندر لم يقع له فيها مايستحق أن ينوه به ، حتى اذا بلغ العام الثانى عشر لفت اليه نظر والده واسترعى اهتمامه فى مناسبة مشهورة

رواها بلوتارك فى كثير من التفصيل . وذلك أن تاجراً معروفا من تجار الجياد جاء من تيساليا يعرض على فيلب جواداً عجلا من الجياد النادرة ، وطلب ثمنا له يتراوح بين مايعادل ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف من الجنيهات ، وهو ثمن غال يدل وحده على ندرة الجواد وجماله . فلما جىء بالجواد الى الحلبة لتجربته أمام فيليب ، ظهر من جموحه ما خيب آمال النظارة ، وجعل فيليب يشير باعادته الى صاحبه ، فما كان من الاسكندر ، وكان حاضرا ، إلا ان احتج على اشارة والده ، قائلا ان من العار أن يضيع جواد بديع كهذا لا لسبب سوى أنه لايوجد بين الحاضرين من أوتى من المهارة والشجاعة ما يمكنه من اعتلاء صهوته وكبح جماحه ! وكان طبيعيا أن يرد فيليب على ولده الذى لم يكد يتم عامه الثانى عشر ، بأن يلتزم جانب الصمت فلا ينتقد الذين يكبرونه سناً كأنه أوتى من القدرة على ترويض الجياد أكثر مما أوتوا . ولكن الذى لم يكن طبيعيا ولا منتظراً هو ان يمضى الاسكندر فى احتجاجه ، وتأخذه عزة النفس ، بل الاعتزاز والثقة بها الى حد أن يرد على والده فى محضر من الجميع قائلا :

— انى أستطيع بالفعل أن أروض هذا الجواد الذى أعجزكم جميعا !

فضحك فيليب وأجابه قائلا :

— حسن جداً ، إذن فلتحاول ! ولكن اذا ما فشلت . فأى جزاء تنال ازاء طيشك ؟

فأجاب الاسكندر :

— اذا أخفقت كان على أن أدفع ثمن الجواد كاملا

وأسرع الاسكندر فى شجاعة فائقة الى السائس فتناول منه العنان ، ثم أدار الجواد بحيث يواجه الشمس ، إذ خطر له أن من أسباب اضطرابه رؤية خياله يتحرك أمامه على الارض ، وأخذ الاسكندر بعد ذلك يعدو الى جانب الجواد ، وقد أمسك العنان باحدى يديه وراح يربت على عنقه بالاخرى ، حتى لاحت له الفرصة فأسقط عباءته واعتلى صهوة الحصان ، وسرعان ما أطبق عليه بركبتيه ، وظل يربت على عنقه ، حتى أمن الجوادجانبه ، وعندئذ أطلق له العنان فمضى كالسهم بينما حبس فيليب وأتباعه أنفاسهم خوفا على الأمير القدام أن يدق عنقه فى أية لحظة . ولم تهدأ نفوسهم حتى رأوه يدور بالجواد المتعب فى سهولة واطمئنان ، ويعود اليهم وهو يحفز جواده بكعبى حذائه تارة وبصيحاته القوية تارة أخرى . ثم ترجل الاسكندر فاستقبل بهتافات اهتزت لها نفس الملك ، فأقبل

عليه ليغمره بالقبل الأبوية ويصيح به فى نشوة الفرح :

— عليك أن تشق طريقك يا بنى الى حيث تخلق لنفسك ملكا أنت به جدير ، فان مقدونيا لأضيق من أن تتسع أمام همتك القعساء !

منذ وقع هذا الحادث التفت فيليب الى ولده ، وأخذ يتنازعه عاملان متباينان أحدهما عامل الاعجاب والفخار بأميره وولى عهده الشاب ، والآخر عامل القلق وانكار بعض النزعات الغالبة عليه

صحيح أن عنصر الرجولة كان موفوراً لدى الصبي من الناحية الرياضية ، إذ كان بارعا فى ركوب الجياد ، سباقا فى العدو ، ماهراً فى المبارزة . كما كان بفضل ليونيداس شديد الجلد على المشى الطويل المدى . وكان من أكثر ما يلاحظ عليه اتساع الخطى ، ومرجع ذلك الى اعتياد أستاذه المشى الطويل ، فظل الاسكندر الى آخر أيام حياته مشهوراً بخطواته السراع الواسعة

كان هذا كله صحيحا ، ولكن فيليب لاحظ كذلك أن ولده كثير النزوع الى انتقاد سواه ، وانه يحسب نفسه أوفر علما من الذين يكبرونه ، وأن روح الدعابة عنده تكاد تنعدم ، أو هى قد قتلت فى مهدها عمداً بأيدى مربيه ، ولكنه كان عاطفيا مرهف الحس ، ولوعا بالشعر والموسيقى الهادئة الرقيقة

وكان فيليب على ما يظهر يخشى أن تغلب الخنوثة على ولده حين يكبر ، فقد كان رغم بنيته القوية المفتولة العضل ، ذا بشرة بيضاء ملساء كالنساء ، وكان قسيم الوجه حلو التقاطيع ، وكان من عادته ان يميل برأسه على أحد الجانبين ثم يرسل الى محدثه نظرات فاترة ناعسة ! ولئن كان فيليب قد سمح لنفسه بأن ينزلق الى الحب الشاذ حتى لقى مصرعه فى أعقاب فضيحة من هذا القبيل ، فما كان ليسمح بأن يكون ولى عهده ووارث عرشه إلا رجلا كامل الرجولة

لهذا رأى فيليب أن يعهد بتربية ابنه وقد بلغ الثالثة عشرة الى مرب تتوفر فيه صفات أساسية أربع : الأولى أن يكون رجلا عمليا ينظر الى الحقائق ويقدرها قدرها دون أن يحسب حسابا للأوهام والاحلام ، والثانية أن يكون رجل مجتمع لا ينفر من فرح الحياة الاجتماعية ومسراتها كما ينفر ليونيداس ، والثالثة أن يجمع بين الثقافة الأثينية التى كان يعجب بها فيليب أشد الاعجاب وبين روح الرجولة المقدونية التى يريد أن يغرسها فى نفس ولى عهده ، والصفة الرابعة أن يكون المربى المختار صديقا له ، يميل مع

هواه . ويظاهره فيما يريد من القضاء على نفوذ أوليمبيا وتأثير أنوثتها على روح الامير الشاب

ويشاء الحظ الحسن أن تجتمع هـذه الصفات كلها فى رجل لم يلبث أن وقع عليه اختيار فيليب ، وهو ارسطاليس ، ابن نيكوماكوس طبيب القصر فى عهـد الملك أمينتاس الثانى وألد فيليب . وقد كان يكبر فيليب بعامين ، وكان قد رحل الى أثينا بعد وفاة والده سنة ٣٦٧ قبل الميلاد ، وهنـاك التحق بمدرسة الفلسفة التى كان على رأسها أفلاطون ، وبعد أن لبث بها عشر سنوات تركها وقد كون لنفسه فلسفته العملية الخاصة ، وأخذ ينشر هذه الفلسفة فى كتبه ويذيعها بين تلاميذه . ويظهر أن فيليب كان يعرف أرسطو فى طفولته ، فلما انفصلا وشخص أرسطو الى أثينا وذاعت فلسفته ، ظل فيليب يتابع أنباء صديق طفولته فى عطف وفخار . فأسل اليه حين ولد الاسكندر سنة ٣٥٦ قبل الميلاد تقول :

« اكتب اليك لأخبرك بأنى رزقت ولداً ، فللآلهـة منى خالص الشكر ، لا لمولد الطفل وحسب ، بل لأنه أيضا ولد فى زمانك . فان لى أملا أن يصبح فى آخر الأمر تلميذاً لك ، وأن يكون جديراً بانتسابه لنا ، خليقا بأن يرتقى ذروة عرشنا »

وها هو ذا أمل فيليب يتحقق . إذ كتب الى أرسطو بعد اثنى عشر عاما يدعوه الى مقدونيا لينشىء بها مدرسة جديدة ، وليأخذ على عاتقه تعليم الاسكندر ، فلبى أرسطو الدعوة وشخص الى بيلا Pella ، حيث استقبل بأجلى مظاهر التكريم ، ثم أنشأ مدرسته فى مدينة صغيرة تدعى ميزا ، ليستطيع بذلك اقصاء الاسكندر عن نفوذ أمه تحقيقا لمشيئة فيليب . وهنا تلقى الاسكندر دروس النحو والموسيقى والهنـدسة والخطابة والفلسفة ، فكان مبرزاً بين زملائه من أبناء النبلاء والأمراء الذين ألحقوا بمدرسة أرسطو ، ويروى أنه كان يواصل استذكار دروسه فى الفراش شطرا من الليل ، وكان يلجـأ الى طريقة غريبة لمغالبة سلطان النوم ، هى أن يحمل كرة من المعدن فى يده ، وهى ممدودة خارج الفراش ، فاذا أخذته سنة من النوم سقطت الكرة فى إناء معدنى بجانب الفراش وأحدثت رنينا يذهب بآثار النعاس من عينيه ! !

وقد لبث الاسكندر فى عناية أرسطو عامين اثنين ، فكان الفيلسوف الكبير يهذبه على طريقته فى تنمية مواهب التلاميذ دون أن يحاول فرض شخصيته هو عليهم . فكان يبيحهم من حرية التعبير عن الرأى ما يدهش أساتذة الجامعات الحديثة أنفسهم . ومن

أمثلة ذلك ، أنه سأل تلامذته يوما كيف ينوون أن يعاملوه بوصفه استاذهم القديم حين يؤول الى كل منهم ما ينتظر من ثراء أو سلطان . فقال أحد التلاميذ :

— سأفرض على الجميع إعلان مظاهر التكريم والاحترام نحوك . وسيكون عشاؤك دائما على مائدتى !

وقال آخر :

— ستكون أنت مستشارى الاكبر

فلما وجه أرسطو السؤال الى الاسكندر أجابه غاضبا :

— بأى حق تبيح لنفسك القاء هـذا السؤال ؟ وأنى لى أن أعرف ما فى ضمير المستقبل ؟ يجب عليك أن تنتظر وترى !

فسر أرسطو بهذا الجواب الصريح الدقيق وصاح من فوره :

— لا فض فوك ! ستكون يا اسكندر يوما ملكا عظيما حقا !

* * *

ولما بلغ الاسكندر السادسة عشرة دعاه أبوه ليشترك فى قتال الأثينيين ، حتى يكون مستعداً لاعتلاء العرش اذا هو دعى اليه فجأة ، فأبدى الاسكندر من البراعة فى خلال الأسابيع التى قضاها لأول مرة فى ميدان القتال ما جعل والده يعيده الى مقدونيا نائبا عنه فى تصريف شئون الملك . وهكذا ألقى عبء الحكم على كاهل الاسكندر فى هـذه السن الباكرة ، وكان كل ما استطاع أرسطو أن يعلمه فى أثناء العامين السالفين مبادىء التفكير المنطقى والأخلاق العملية ، ولكنه لم يستطع أن يحوله عن دخيلة ما كان يعتقد من أنه ابن العناية الربانية وأنه ولد رسولا منفذاً لارادة الآلهة !

وكان أن قتل فيليب غيلة فى أواخر صيف ٣٣٦ قبل الميلاد ، ولم يكن الاسكندر قد أتم ربيعه العشرين ، ولكنه كان قد عرف فى مقدونيا وأثينا ، وتألف قاوب كثيرين من الجند وأفراد الشعب ، وظهر فى ميدان الحرب والسياسة جنديا ومفاوضا سياسيا شارك فى عقد الصلح مع الأثينيين . ولكن العقبات لم تلبث مع ذلك ان واجهته منذ ارتقى العرش ، فالاغريق بوجه عام لم يرحبوا بالخطة التى كان يرسمها فيليب للدخول فى حرب عوان مع الفرس . أما وقد مات فيليب وخلفه الاسكندر الشاب فقد حانت الفرصة للقضاء على هذا المشروع . والأثينيون لايريدون أن يمضوا فى خضوعهم للمقدونيين ، فهاهى ذى فرصة النكث بالمعاهدة التى عقدت بينهم وبين فيليب والخلاص من ربقة استعمار المقدونيين .

وكان على رأس هذه الحركة الخطيرة فى أثينا خطيب اليونان الأعظم ديموستين يثير ثائرة الأثينيين ويصب جام غضبه على الاسكندر وينعته أقبح النعوت . وسائر مدن اليونان تحذو حذو أثينا وتطرد الحاميات المقدونية من أراضيها اعلانا للتمرد على الملك المقدونى الناشىء!

ولكن الاسكندر على شبابه الغض لم يطر قلبه إزاء هذا التمرد الفاجىء . وواجه الموقف مستبسلا شجاعا غير آبه لنصائح قواده الشيوخ ومستشاريه المترددين المتوجسين . فلا بد أن يعلم الأغريق جميعا أن وفاة فيليب لا تعنى أكثر من تغيير اسم الملك وشخصه . أما جيش مقدونيا وشعبها فما كانا ليتأثرا بهذا الحادث العارض ، وما زالا على أتم استعداد لقيادة جموع الاغريق المتحدة فى طريقها لابادة الفرس وتقويض ملكهم العريض . ولم ينقض عام واحد على ولاية الاسكندر حتى عاد لمقدونيا سلطانها على اليونان كلها ولم تبق فى البلاد مدينة واحدة تجرؤ على رفع عقيرتها بالتمرد على الملك المقدونى الشاب

كانت خطوة الاسكندر التالية بعد ان أخضع اليونان لسلطانه ، ووطد فى البلاد دعائم عرشه ، أن ولى وجهه شطر الشرق لتحقيق حلم أبيه الذى صمم هو على أن ينفذه . فهبط آسيا فى سنة ٣٣٤ قبل الميلاد وأنزل الهزيمة بجيش كبير من جيوش الفرس فى معركة جرانيقة ، ثم استولى على عدة مدائن فى آسيا الصغرى . وسار بعدئذ فى محاذاة الساحل ، تاركا فى كل مدينة ساحلية يستولى عليها حامية تقيها غارات الأسطول الفارسي الذي كانت له السيادة فى البحر الأبيض ، فلو أن الفرس استطاعوا أن يظفروا باحدى تلك المدن لأنزلوا فيها جنودهم وقطعوا على الاسكندر خط الرجعة الى بلاده

والتقى الاسكندر بجيوش دارا الثالث فى إيسوس سنة ٣٣٣ قبل الميلاد فبدد شملها وانتصر انتصاراً باهراً ، ثم هاجم صيدا فدانت له وتقدم نحو صور فصمدت حينا ثم اقتحم حصونها بعد ستة أشهر أو تزيد ، وقد بلغ من حنق الاسكندر وحرج صدره من جراء هذه المقاومة أن دمر المدينة تدميرا وذبح من أهلها نحو ثمانية آلاف ، وتلك فظاعة قل أن تفوقها فظاعة فى التاريخ . . .

وتولى الاسكندر بعدئذ قيادة جيوشه مهاجما غزة فأفنى جيشها عن آخره وبيع نساؤها بيع السلع بعد ان استباح الجند أعراضهن . وفى أواخر سنة ٣٣٢ قبل الميلاد دخل الشاب المقدونى مصر ، وخلصها من رق الفرس ، وأعاد لها مكانتها الدينية الرفيعة فى نفوس اليونان ، واستقدم المهندس المقدونى العظيم دينوقراط لانشاء مدينة الاسكندرية ،

وزار بنفسه معبد آمون فى واحة سيوه ملتمسا عونه الالهى ورضاه الأبوى - فلعل القارىء لم ينس ما قدمنا من عقيدة بنوته لآمون ، وقد أكد كبير الكهنة للاسكندر هذه العقيدة مرحبا به باسم والده آمون ، مبشراً إياه بملك عظيم ونصر مؤزر فى قادم السنين !

وغادر الاسكندر مصر بعد ان أرضى كرامتها بان عهد بادارة شئون الوجهين البحرى والقبلى الى اثنين من كبار المصريين ، وان يكن قد عهد بوزارة المالية الى أحد اليونانيين. وقد بدأ الرحلة من منف فى أواخر ابريل أو أوائل مايوسنه ٣٣١ قبل الميلاد فبلغ صور فى اخر مايو ، ولم يلبث ان التقى بملك الفرس دارا فى موقعة حاسمة على مقربة من نينوى . وفى هذه المعركة فشل الفرس فى استخدام العجلات الحربية للهجوم على جيش الاسكندر ولتشتيت شمله ، وكان النصر لفرق الفرسان المقدونيين . فقاد دارا جيوشه متقهقراً أمام الغزاة ، حتى احتمى فى منطقة ميديا .وواصل الاسكندر زحفه فغزا بابل ثم سوس وبرسيبوليس ، وهنا أقيمت الولائم وشرب الاسكندر حتى ثمل فأمر باشعال النيران فى قصر دارا ، ملك الملوك

واستأنف الفاتح المقدونى غزواته فى آسيا الصغرى فوصل الى أقصى حدود الامبراطورية الفارسية ، وقد اتجه أول الأمر إلى الشمال فطارد الفرس ، ومضى الى جبال تركستان ثم انحدر بطريق هراة (وكان قد أنشأها قبل ان يهبط مصر) وكابل ومر خيبر مفتحا بلاد الهند حيث التحم بجيشه مع جيش الملك بوروس الهندى فى معركة هائلة على نهر مهران Indus . وفى هذه المعركة رأى جنود مقدونيا الفيلة للمرة الأولى وتغلبوا عليها . وأخيراً بنى الاسكندر لجيشه السفن ومضى بها الى مصب نهر مهران ثم عاد محاذيا شاطىء بلوخستان ، فوصل سوس سنة ٣٢٤ قبل الميلاد بعد ان غاب عنها ست سنوات. وهنا أقدم الاسكندر على أجرأ خطوة عرفها التاريخ لتوثيق الروابط بين الشرق والغرب . فقد عمد الى المزاوجة بين اليونانيين والمقدونيين من ناحية وبين الفرس والبابليين من ناحية أخرى . وراح يشجع على هذه المزاوجة بكل وسيلة من وسائل الاغراء فأنفق المال لعقد هذه الزيجات وأغدق الهدايا على الأزواج وبادر فجعل من نفسه وكبار قواد جنده مثلا يحتذى فى التزوج بالفارسيات والبابليات فبلغ عدد الذين تزوجوا فى ليلة واحدة أكثر من عشرة آلاف يونانى ومقدونى . وكان الاسكندر يريد بهذا مزج الشعوب الشرقية بالغربية مستعينا على ذلك بأوثق الصلات ، وهى صلة الرحم.

كان يسعى إلى خلق أجيال جديدة لا تستشعر غضاضة الفرق بين جنس وجنس . ذلك الفرق الذى كان ولا زال شوكة يصوبها الغربى الى جنب الشرق . ولقد أصاب الدكتور طه حسين بك إذ جعل الاسكندر من أجل هذه التجربة بطلا من الابطال الذين ترجم لهم الدكتور فى كتابه « قادة الفكر » وقال عنه انه « لم يكن قائد جيش ليس غير ، وانما كان قائد فكر قبل كل شىء وبعد كل شىء وفوق كل شىء » وأن تجربته « لو تمت لغيرت وجه الارض ولحولت سير التاريخ . وسواء علينا أكان الاسكندر مصيبا أم مخطئا فى هذه الفكرة وفى انتهاج هذا المنهج ، وسواء علينا أوفق أم لم يوفق ، وانما الشىء الوحيد الذى لاشك فيه هو أن الاسكندر لم يكن يريد أن يفتح الارض وحدها وانما كان يريد أن يفتح معها العقل . فهو الذى قارب بين الشرق والغرب ومزج العقل الشرقى بالعقل الغربى ، ولولا حركة الاسكندر هذه لكانت للشرق وللغرب شؤون غير شؤونهما التى عرفها التاريخ . فالاسكندر إذاً قائد من قواد الفكر ، بل هو زعيم من زعماء قادة الفكر ، بل هو أشد من قادة الفكر القدماء انتاجا وأكثرهم نفعا ، فما قيمة الفلسفة اليونانية كلها لو لم يتح لها الاسكندر ليذيعها فى أقطار الأرض ويبثها فى مختلف الشعوب ؟ »

ومن الغريب أن بعض المؤرخين يريدون أن يجردوا هذه التجربة الخطيرة من معناها الانسانى فيزعموا أن الاسكندر لم يكن جد حريص على إزالة الفوارق بين أجناس العالم وشعوبه ، ولا هو أراد ان يجمع الشرق بالغرب . وإلا لأعلن ذلك وصرح به ، ولدعا عدداً من بنات اليونان ومقدونيا لتزوجهن بعلية الفارسيين . وانما كان غرض الاسكندر سياسيا عمليا ليس غير ، فهو لم يكن يريد أكثر من أن يوثق برباط المصاهرة علاقته بالعناصر ذات النفوذ فى البلاد المحتلة . وهذه حجج غريبة لا مقنع للباحث المدقق فيها فمن أين لنا أن الاسكندر لم يصرح بغرضه حين أقدم على تجربته ، وأن تصريحه ضاع بين الجانب الاعظم الذى عفى عليه الزمن من آرائه وأقواله ، فاذا لم يكن قد صرح بغرضه فمتى كان كل صاحب تجربة مكلفا بالابانة عن أغراضه وآماله ، وما يدرينا أن الاسكندر لو امتد به الأجل لما استقدم من اليونان نساء يزاوج بينهن وبين سادة الفرس ولا سيما بعد اطمئنانه الى النتائج الأولى للتجربة ؟ وماذا يمنع أن يكون الاسكندر قد أراد أن يرمى عصفورين بحجر واحد وهو يمازج بين الفرس والاغريق ، فيحقق غرضا انسانيا عاما هو إزالة الفوارق بين الاجناس ، وينتفع بهذا الغرض نفسه

لتثبيت ملكه فى البلاد التى فتحها بحد السيف ؟

يضاف الى هـذا كله فى ترجيح الجانب الانسانى على السياسى فى تجربة الاسكندر ما كان مشهوراً عنه من ميل الى تشجيـع البحث العلمى والفلسفى واغـداق المال على المشتغلين به حتى ليروون انه منح أرسطو مبلغا يعادل ثمانمائة ألف جنيه دفعة واحدة للاستعانة بها فى مباحثه

ومهما يكن من أمر الغرض الذى كان يرمي اليه الاسكندر فان مجرد حثه جنوده على الزواج بأهل البلاد المغلوبة على أمرها ، يدل وحده على أن هذا الحاكم الذى بسط سلطانه على العالم قبل المسيح بنيف وثلاثة قرون لم يكن يحمل فى صدره روح التعصب الجنسى التى تسيطر على بعض زعماء الغرب فى القرن العشرين وتدفع بعضهم الى تحريم الزواج بين الساميين والآريين ، وتدفع بعضهم الآخر الى تحريم الاتصال بأهل المستعمرات على أى وجه كان !!

على أن الأجل لم يمتد بالاسكندر حتى يبدأ ما كان يختمر فى رأسه من مشروعات ، ويتم ما كان قد بدأ من تجارب وسياسات . فأصيب بحمى ، يظهر أنها الملاريا ، بعد ان كان قد أعد العدة وجهز جيوشه للقيام بحملة برية عبر افريقيا حتى يصل مضيق جبل طارق ، وهناك ينتزع نفوذ الفينيقين ويستولى على غرب أوربا فى طريقه الى مقدونيا من طريق الغرب بعد ان زايلها متجها الى الشرق . ولم تمض أيام على اصابتـه بالحمى حتى نفدت قواه وفارق الحياة فى أصيل الثالث عشر من شهر يونيه سنة ٣٢٣ قبل الميلاد . وسرعان ما تفرق ملـكه العريض وتقاسمه قواده والطامعون فيه . ولـكن أثر فتوحاته العظيمة بقى خالداً يشهده العالم الى اليوم

طرفة بن العبد

الشاب القتيل

أربعة عشر قرنا ونيف من الزمن لم تقو على أن تسدل ستار النسيان على ذكرى هذا الشاب المخلد !

أربعة عشر قرنا ونيف من الزمن استطاعت أن تمحو من صفحة الذكريات أسماء الآلاف من الملوك والقواد والساسة والشعراء الذين تطاولت بهم الأعمار، ولكنها وقفت عاجزة لا تملك أن تمحو بيد الفناء صفحة هذا الشاب النابغة الذى انحدر الينا مجده التليد من ظلمات الجاهلية الأولى بما فيها من بداوة العيش وضيق الأفق والأمية السائدة والجهالة !

لقد خلد طرفة رغم جاهلية عصره ، ورغم ذلك السلاح الآخر الذى طالما شهر فى الوجوه فمحا آية النبوغ فى أصحابها وحجب عنهم نعمة الذكر الخالد ، وهو سلاح الشباب الباكر وحداثة السن !

أسلم طرفة روحه بيد القتل أو الغدر - كما يرى القارىء فيما بعد - وهو فى العشرين من عمره ، فقيل له (ابن العشرين) . فاذا أخذنا بالرواية الأخرى لم نجد ما ينفى أنه قتل فى حداثته . ونعنى بها الرواية التى تجعل مقتله فى السادسة والعشرين من عمره استشهاداً بقول أخته فى رثائه :

عددنا له ستا وعشرين حجة　　فلما توفاها استوى سيداً ضخما

فجعنا به لما رجونا إيابه　　على خير حال لا وليدا ولا قحما

والقحم هو المتناهى فى السن ، وقد وردت كلمة (خمسا) بدلا من (ستا) فى ديوان أخت طرفة

***

نشأ عمرو (وهو اسم طرفة) فى أسرة ذات ثراء وحسب - والثراء والحسب كما

لا يخفى أمور نسبية تختلف باختلاف البيئة والزمن ، وهى معروفة عند البدو والحضر على السواء ـ ويظهر أن هذا الوسط العالى كان سبيلا الى اتصال طرفة (ببلاط) عمرو ابن هنـد ملك الحيرة ، وحضور مجالسه ، وشجعه ذلك على اطلاق العنان للسانه ، والاجتراء على نقد الناس ومهاجمتهم كلما ثارت نفسه أو رأى محلا للنقد والذم ، فكان أن بعد صيته وذاعت شهرته بين قومه ، كما كان أن لقى حتفه من جراء لسانه المر وذهنه الحديد

***

فمن نقداته اللاذعة التى لاتخلو من سلاطة لسان والتى مازالت تستنكر من الأحداث حين يتعرضون لمن يتقدمونهم فى السن ، أنه كان يوما فى مجلس عمرو بن هند وبين يدى الملك شاعر معدود فى ذلك العهد ينشد الملك احدى قصائده . فاذا الشاعر يصف نفسه في أحد الأبيات (بالصيعرية) ، واذا صوت رفيع يصيح صاحبه كما يصيح أبناء (البلد) الذين لا تفوتهم (الواحدة) :

ــ استنوق الجمل !

وذلك أن (الصيعرية) من صفات الناقة دون الذكر من الجمال

ويروى أن الشاعر التفت حينئذ وسأل : من ذلك الغلام ؟فلما ذكروا له أنه طرفة ابن العبد قال وكأنما يستشف ما وراء أستار الغيب :

ــ ليقتلنه لسانه !

ولما مات أبو طرفة وهو يومئذ صغير لاحظ أن أعمامه يريدون أن يأكلوا أموال أبيه ويحرموا أمه حقها فى الميراث. وكانت أمه تغلبية تدعى وردة ووالده من قبيلة بكر. فنشر طرفة لسانه مدافعا عن حق أمه دفاعا قويا استعاد فيه ذكرى الوقائع الدامية التى جرت بين بكر وتغلب لأتفه الأسباب وحذر أعمامه مغبة تعريض القبيلتين لمثل ذلك الشر المستطير . ومن هذه الأبيات قوله :

ما تنظرون بحق وردة فيكم ... صغر البنون، ورهط وردة غيب
قد يبعث الأمر العظيم صغيره ... حتى تظـل له الدماء تصبب
والظـلم فرق بين حي وائل ... بكر تساقيها المنـايا تغلب !
والصدق يألفه الـكريم المرتجى ... والـكذب يألفه الدنىء الأخيب !

وينسب الى طرفة أن لسانه جرى بالشعر لأول مرة حين خرج يوما مع عمه فى سفر

فنصب فخا يريد أن يصيد به قبرة ، فلما آن الرحيل ولم يوفق الى ما أراد من صيد قال :

يا لك من قبرة بمعمر   خلا لك الجو فبيضى واصفرى
ونقرى ما شئت أن تنقرى   قد رفع الفخ فماذا تحذرى
لابد يوما أن تصادى فاحذرى

ولكن الواقع أن هذا الشعر ـ أو بعضه ـ أقدم من طرفة وأنه مدخول عليه ، وان يكن ابن قتيبة قد ذكره فى كتابه (الشعر والشعراء) ولم يداخله فيه ريب

***

بلغ من جرأة طرفة وقلة اكتراثه لأهل زمنه أنه لم يقصر هجوه وتهجمه اللاذع على عامة الناس وأعيانهم، بل تطاول على مقام عمرو بن هند نفسه ومقام أخيه قابوس بن هند . وكان كلاهما شديد البطش مرهوب الجانب وبخاصة عمرو الذى كانت تضرب بقسوته الأمثال . فقد قال طرفة في هجائهما قصيدة صرح فيها باسميهما تصريحا ، وفى هذه القصيدة يقول :

فليت لنا مكان الملك عمرو   رغوثا حول قبتنا تخور

ومنها : لعمرك إن قابوس بن هند   ليخلط ملكه نوك كبير !

والرغوث هى المرضعة ، والنوك هو الحمق . وقد روى المفضل الشطر الأخير هكذا (ليخلط ملكه بول كثير) . والرواية الأولى أجدر بطرفة معنى ولفظا

والأقوال مجمعة على أن هذه الابيات كلفت طرفة غاليا إذ دفع حياته ثمنا لها ، وكان تماديه فى الاعتماد على مكانته من قومه واسرافه فى الاعتداد بنفسه سببا فى ضياع الفرصة الذهبية التى أتيحت له للنجاة

ذلك بأن عمرو بن هند ظل جاهلا ما كان من هجاء طرفة له ولأخيه . لان انسانا ما كان يجرؤ على أن يخبر الملك بذلك لشدة بطشه وبأسه فكان ان قام عمرو بن هند للصيد ذات يوم مصطحبا أحد أصفيائه القريبين وهو عبد عمرو بن بشر . وكان عبد عمرو (سيد أهل زمانه) ، وكان متزوجا من الخورنق أخت طرفة ، ويظهر أن خلافا نجم يوما بين الرجل وزوجه فشكت الخورنق عبد عمرو الى أخيها الشاعر . فما كان منه الا أن بادر الى شاعريته يستنجدها لتأديب الزوج الغاضب والثأر لأخته منه . فكانت القصيدة التى يقول منها فى هجاء عبد عمرو :

ولا خير فيه غير أن له غنى   وأن له كشحا اذا قام أهضما

نعود الى حديث عمرو بن هند فنقول انه حين خرج فى رحلته الى الصيد ومعه عبد عمرو أصاب طريدة فعقرها ، ثم قال لعبد عمرو : انزل اليها . ولـكن عبد عمرو ، كما يبدو ، كان لين العود ضعيف البنيـة ، فأعيته الطريدة ولحظ ذلك عمرو بن هنـد فضحك وقال :

— لقد أبصرك طرفة حيث يقول :

ولا خير فيـه غير أن له غنى وأن له كشحا اذا قام أهضما !

وفى رواية أخرى أن الملك قال لعبد عمرو ذلك بينما كانا يشويان الصيد ومعهما نفر من الحاشية ، فقد نظر الملك الى خصر صاحبه فأبصر كشحه من خلال خرق فى قميصه وكان عبد عمرو جميل الجسم ، فكان أن تغزل الملك فيه ببيت طرفة

والرواية الثانية قد تفسر لنا السر فى ثورة الحياء والغضب التى استولت على عبد عمرو حين سمع هذه الغمزة أمام الحاشية ، فرد على الملك قائلا :

— أبيت اللعن ، ما قال فيك أشد مما قال فى !

فقال الملك :

— وما الذى قال ؟

وهنا يفيق عبد عمرو من ثورته ، ويذكر ما لنسيبه عليه من حق الرعاية والمداراة ، وصور لنفسه ما تجر النميمة على طرفة من شر مستطير ، تذكر عبد عمرو هذا كله فهم بالتراجع نادما على ماقال . ولـكن لات ساعة مندم . لقد نفذ السهم ولم يبق للتراجع سبيل . فقد أصر الملك على أن يعلم ما قال فيه طرفة ، ولحظ تردد عبد عمرو فى أن يسمعه هجاء الشاعر الشاب الذى يمت له بأوثق صلات النسب ، فقال الملك :

— أسمعنيه ، وطرفة آمن !

وعندئذ اطمأن عبد عمرو ، وأسمع الملك قصيدة طرفة فقال :

— أوقد بلغ من أمره أن يقول فى مثل هذا الشعر ؟ !

ثم سكت الملك على مضض ، ولـكنه صمم فى دخيلة نفسه على الانتقام

***

يبدأ الفصل الثانى من مأساة الشاب القتيل بعد هذا الحديث بزمن غير قصير، تظاهر الملك فيه بأنه عند وعده لعبد عمرو ، بل تقدم الملك خطوة لستر ما خفى من سوء نيته ، فأظهر رضاه عن طرفة واستقدمه وأطال اكرامه حتى أنس اليه واطمأن . وعندئذ

أمر الملك بالكتابة الى رجل بالبحرين ليقتل طرفة . فقال له بعض رجال الحاشية :

ـــ انك ان قتلت طرفة هجاك المتلمس

والمتلمس هذا شاعر يدعى جرير بن عبد المسيح ، كان صديقا حميما لطرفة ، وكان قد هجا أيضا عمرو بن هند . وفى بعض الروايات أن الملك استقدمه هو وطرفة فأقاما معا عنده ثم دبر لهما مكيدة القتل . ولكنى أرجح أن الملك لم يدع المتلمس إلا بعد دعوة طرفه بوقت طويل ، وفى هذا ما يفسر الاطمئنان المطلق الذى أورد طرفة مورد الحتف على نحو ما يرى القارىء

وسواء أكانت دعوة المتلمس بعد طرفة أم كانت معه ، فان الذى تتفق عليه الروايات هو أن الملك أرسلهما معا الى نائبه فى اقليم البحرين ومع كل منهما كتاب من الملك بأن يقتل حامله ولكن الملك أوهمهما بان الكتاب يتضمن الوصية باكرامهما واغداق الهدايا عليهما

ويخرج الشاعران فى طريقهما الى الحيرة ، فاذا هما يمران ـ كما تقول احدى الروايات ويظهر انها مختلقة ـ بشيخ شاذ السلوك يأكل ويفعل فى الوقت نفسه ما يثير الاشمئزاز فى النفس ، فلما أخذ المتلمس عليه هذا الشذوذ رد الشيخ مبرراً سلوكه قائلا :

ـــ . . . ولكن أحمق مني من يحمل حتفه بيمينه !

ولئن كان هذا الحادث هو الذى أثار الشكوك والهواجس فى نفس المتلمس ، أو أن المتلمس استشعر الشك لشدة تلطف عمرو بن هند مع الشاعرين اللذين اشتهرا بهجائه ، فان هذا الشك أمر مقطوع به . وليس بغريب أن يكون المتلمس قد قال لصاحبه وهو فى الطريق :

ـــ تعلمن والله ان ارتياح عمرو لى ولك لأمر عندى مريب . وأنى انطلاقى بصحيفة لا أدرى ما فيها ؟

فيجيبه طرفة بروح الاستهتار التى ينطق بها شعره :

ـــ انك لتسىء الظن ! وما تخاف من صحيفة ان كان فيها الذى وعدنا وإلا رجعنا ؟ !

ويأبى المتلمس أن يقتنع بفلسفة صاحبه فيدعوه الى أن يفضا خطابيهما ويعرضاها على أحد ليقرأها ـ فقد كان الشاعران أميين ! ـ ولكن طرفة يصر على رأيه ويصم أذنه عن سماع هذه الوساوس . فيفض المتلمس خطابه آخر الأمر ويرفض بحق أن

يحمل لأحد الحكام كتابا قد يكون فيه حتفه ، حتى اذا أشرف الشاعران على الحيرة وجدا غلاما من صبية المكاتب فسأله المتلمس :

ـ أتقرأ يا غلام ؟

فقال الغلام :

ـ نعم

فناوله المتلمس كتابه ، فطالعه الغلام ثم قال :

ـ أنت المتلمس ؟

قال ـ نعم

قال :

ـ النجاء ، فقد أمر بقتلك !

وتبين أن فى الكتاب : «اذا أتاك المتلمس فاقطع يديه ورجليه وادفنه حيا !» . فرمى المتلمس الكتاب فى نهر اسمه (كافر) ، وقال فيما بعد عن هذا الحادث :

وألقيتها بالثنى من جنب (كافر) كذلك يلقى كل قط مضلل

رضيت لها بالماء لما رأيتها يجول بها التيار فى كل جدول

ومن هذا ضرب المثل بصحيفة المتلمس

أمام هذا كله كان الاتجاه الطبيعى أن يقتنع طرفة بصدق ما كان من شك صاحبه المجرب ، فيطلب النجاة من هـذا الشر الذى ينتظره ولا ريب كما كان ينتظر صاحبه . ولـكن وقع كل شىء إلا هذا ! فقد أقبل المتلمس على طرفة يقول له :

ـ تعلمن والله أن الذى فى كتابك مثل الذى فى كتابى !

وإذا طرفة يظل على خديعته ، ويرفض أن يفض كتابه ليحسم الشك على الأقل ، وتنملك الشاب روح الثقة والاعتداد بالنفس فيجيب صاحبه :

ـ لئن كان اجترأ عليك ما كان بالذى يجترىء علىّ !

وعندئذ لم يسع المتلمس إلا أن يفر الى الشام وحـده فلما بلغه ما وقع لطرفة قال أبياته المشهورة :

من مبلغ الشعراء عن أخويهم خـبراً فتصدقهم بذاك الأنفس

أودى الذى علق الصحيفة منهما ونجا حـذار حبائه المتلمس

ألق الصحيفـة لا أبالك انه يخشى عليك من الحباء النقرس

(أودى هلك ، والحباء العطاء ، والنقرس الهلاك)

ومضى طرفة بكتابه المختوم ، حتى أتى والى عمرو بن هند على اقليم البحرين. فدفع اليه الكتاب الملكى فقرأه الوالى ثم التفت الى طرفة قائلا :

— تعلم ما أمرت به فيك ؟

فقال طرفة ولهجة الاطمئنان المفرط لم تفارقه :

— نعم ، أمرت أن تجيزنى وتحسن إلى !

فقال الوالى وهو حائر بين الشفقة وحكم الواجب :

— انك فى حسب كريم . وان بينى وبينك خؤولة أنا لها راع . فاهرب من ليلتك هذه فانى أمرت بقتلك ! فاخرج قبل أن تصبح ويعلم بك الناس ، فان كتابك ان قرىء لم أجد بدًا من أن أقتلك !

وهذه نصيحة كريمة تدعو إلى إكبار صاحبها النبيل الذى يلتمس بابا للتوفيق بين واجبه نحو مليكه وواجبه الآخر نحو هـذا الشاب الذى تجمعه به رابطة من قرابة أو صداقة . ولكن طرفة حتى فى هذه الرحلة التى يشرف فيها على مصرعه ، لا يريد أن يغتنم الفرصة الذهبية السانحة للنجاة ، وانما يتمادى فى اعتداده بمكانته واطمئنانه الى ما أظهر له الملك من ود ورعاية . فيتهم الوالى النبيل بتهمة قاسية ظالمة إذ يرد عليه قائلا :

— اشتدت عليك جائزتى وأحببت أن أهرب وأجعل لعمرو بن هند على سبيلا كأنى أذنبت ذنبا ، والله لا أفعل ذلك أبداً !

إزاء هذا الموقف الذى يمليه التمرد والتجنى لم يجـد الوالى مناصاً من أن يحبس طرفة . ثم أرسل الى الملك يلتمس منه أن يرسل واليا آخر يتولى تنفيذ الحكم فى الشاب المسكين . ويظهر أن الوالى الأول واسمه ربيعة بن الحارث العبدى ، كان شديد الترفق والعطف على طرفة ، حتى لقد عامله فى الحبس أرفق المعاملة وألينها . فبعث اليه بجارية اسمها خولة تخفف عنه آلام الوحـدة فى السجن ، ولكن طرفة ردها ثم قال قصيدته المشهورة :

ألا اعتزلينى اليوم ياخول أو غضى   لقد نزلت حدباء محكمة العض

وفى هذه القصيدة يعترف طرفة بأنه كان مخدوعا مغروراً، وينثنى مستعطفا عمرو بن هند فى عبارات لا تخلو من الضراعة والندم . ومن ذلك قوله :

أبا منذر كانت غرورا صحيفتى   ولم أعطكم بالطوع مالى ولا عرضى

أبا منــذر ، أفنيت فاستبق بعضنا حنانيك! بعض الشر أهون من بعض!!

وتختلف الروايات اختلافا شديداً فى قتلة طرفة ، والواقع أن الروايات لا تكاد تتفق على شىء فى أمر طرفة أو غيره من شعراء الجاهلية ، ويقال ان الذى قتله رجل من الحوائر كما يقال ان الذى أمر بقتله يدعى المعلى بن حنش العبدى ، وأما الجلاد فيدعى معاوية بن مرة . وفى احدى الروايات ، ولعل فى معلقة طرفة ما يؤيد هــذه الرواية ، أن طرفة سئل أن يختار قتلته فطلب أن يسقى خمراً حتى يثمل ثم تفص بعض شرايينه ، فـكان له ما طلب

* * *

من حسن الحظ أن طرفة استطاع أن يترك لشخصيته صورة حيـة ناطقة لا تـكاد تشعرنا بفداحة ما خسره تاريخ الأدب العربى بندرة أخبار الشاعر الشاب ومغامراته ومسامراته وآرائه . فقد سجل طرفة هذا كله أحسن تسجيل وأوضحه فى شعره الذى تتمشى بين سطوره حرارة الصدق والاخلاص الى جانب ما يمتاز به من تغلب السلاسة فى التعبير على طبيعته البدوية الجافة

وأظهر ما يتجلى فيه شخصية طرفة قصيدته الـكبرى التى نالت حظوة الاختيار بين القصائد الممتازة السبع المسماة بالمعلقات أو المذهبات

يقول ابن رشيق فى كتابه العمدة : « وكانت المعلقات تسمى المذهبات ، وذلك لانها اختيرت من سائر الشعر فـكتبت فى القباطى بمـاء الذهب وعلقت على الـكعبة ، فلذلك يقال مذهبة فلان اذا كانت أجود شعره . . . وقيل بل كان الملك اذا استجيدت قصيدة الشاعر يقول : علقوا لنا هــذه لتكون فى خزانته » ويرى آخرون أن العرب سموا القصائد بالمعلقات لعلوقها بأذهان صغارهم قبل كبارهم ، ومرءوسيهم قبل رؤسائهم ، وذلك عناية بحفظها والاحتفاظ بها

ومهما يكن من أمر هذه التسمية وسرها ، فان قصيدة طرفة كانت بين القصائد السبع التى يترنم بها العرب ويفاخرون بها ـ بل كانت ثانية هــذه القصائد بعد معلقة امرىء القيس

فى هذه القصيدة يقدم طرفة نفسه الى قرائه ورواة شعره أبدع تقديم فيقول :

اذا القوم قالوا : من فتى ؟ خلت أننى عنيت . فـلم أ كسل ولم أتبـلد

ولست بحـــلال التـلاع مخافة ولـكن متى يسترفد القوم ارفد

فان تبغنى فى حلقــة القوم تلقنى   وان تلتمسنى فى الحوانيت تصطد
متى تأتنى أصبحك كأسا روية   وان كنت عنها ذا غنى ، فاغن وازدد
وان يلتق الحى الجميع تلاقنى   الى ذروة البيت الشريف المصمد

ولست أجد فى التعليق على هذه الابيات السلسة الرائعة خيراً من قول الاسـتاذ العميد الدكتور طه حسين بك :

« فانظر اليه وهو يتقدم اليك ظريفا رشيقا ، خفيف الروح ، حازما مع ذلك كل الحزم ، واثقا بنفسه أشد الثقة ، راضيا عنها كل الرضى ، شاعرا بواجبه الاجتماعى أوضح الشعور وأقواه . يؤمن بأنه قد خلق لقومه قبل أن يخلق لنفسه ، فهو يجيبهم اذا دعوه ، بل هو يجيبهم اذا دعوا وان لم يوجهوا الدعوة اليه ! كأنهم لا يستطيعون أو لا ينبغى لهم أن يدعوا غيره ، وكأنه هو الفتى كل الفتى ! هو الفتى الذى يختصر شـباب قومه اختصارا ويمثلهم تمثيلا ، ويحتمل عنهم أثقال القبيلة كلها ! وهو يستجيب لدعوة الداعى سواء أوجهت اليه أم الى غيره مسرعا لا كسلا ولا متبلدا . وكيف يكسل أو يتبلد وهو الفتى الذى ملأ نفسه اعجابا بنفسه ، وملأ نفوس قومه اعجابا به واعتمادا عليه . فأول صفاته إذن هذا الشباب الذى يدفعه الى أن يتمثل الواجب الوطنى أقوى التمثل ويسرع الى الاجابة اليه . ثم هو بعد ذلك لا يكتفى بالمخاطرة والمغامرة فى سبيل هذا الواجب ، ولـكنه كريم أيام السلم لايستتر ، ولا يتوارى ، ولا يهرب بماله من السائلين واللاجئين ، ولا يهرب بقوته من المستغيثين والمستجيرين . هو لا ينزل الاماكن الخفية التى لا ترى فيها المنازل ولا يقصد اليها المحتاجون ، وانما ينزل الاماكن الظاهرة فيعطى اذا سئل ، كما يجيب اذا دعى . واذا اطمأن الرجل الى أنه يشعر بواجبه أصدق الشعور ، ويؤديه أحسن الأداء ، ويعطى قومه وغير قومه من نفسه وماله فى غير تحفظ ، ولا بخل ، ولا اشفاق ، فمن حقه ألا يبخل على نفسه بالخير ولا يحول بينها وبين نعيم الحياة . وصاحبنا لا يحرم نفسه كما أنه لا يحرم الناس . هو لا يستتر منك ولا من غيرك ، وهو يدلك على الأماكن التى تستطيع أن تجده فيها ان احتجت اليه ، فأما فى ساعة الجد فتستطيع أن تلتمسه فى حلقة قومه ، هناك حيث يجتمعون فى ناديهم يتحدثون ويتشاورون ان عرض لهم من الأمر ما يدعو الى التشاور ، فهو يشارك قومه فى جدهم كله وان كان شابا لان له من الرشد والحلم وحسن البلاء ما يمكنه من ذلك ، ويفرضه على قومه فرضا . وأما فى غير ساعات الجد فأنت تستطيع أن تلتمسه هناك ، حيث يلتمس أترابه من الشبان المترفين

الذين لا يضنون بأنفسهم ولا بأموالهم حين يحتاج اليهم ، ولا يقعدون عن اللذات حين تتاح لهم أوقات الفراغ . تستطيع أن تلتمسه فى الحانات عند هؤلاء الخمارين الذين يحملون خمرهم المعتقة من الحضر فيمتعون بها شباب البادية ويحببون بها اليهم لهو الحياة. ولن يضيع سعيك اذا سعيت اليه تلتمسه فى حانة من هذه الحانات ، فهو لن يلقاك بخيلا ، ولا شحيحا ، ولا كنزا . ولكنه سيشركك فى لهوه ، وسيسقيك حتى تروى . وهو لن يكرهك على ذلك ، فأنت وما شئت . ان كان بك ظمأ نقعت غلتك ، وان كنت غنيا فليزدك الله غنى . ولا بأس عليك . فاذا أردت أن تسأل عنه دون أن تلقاه فأنت تستطيع أن تسأل من شئت ! فستعلم انه ليس من أوساط قومه ولا من أقلهم خطرا . وانما هو الشريف الكريم من أشرف البيوتات وأكرمها ، وهو منها فى أرفع مكانة وأرقاها ! »

ويسترسل طرفة فى وصف حاليه من جد وهزل ، غير متحفظ ولامتردد . فتراه فى أبيات أخرى من معلقته يحول ضيق المجال عن ايرادها ، يصرح بأن شركاءه فى لهوه بالحانات خلان (بيض كالنجوم) ، تعينهم على اللهو والشراب غادة حسناء لا تتأذى ولا تتحرج حين تمتد الى جسمها أيدى هؤلاء الشبان عابثة مداعبة ! وقد أعجبنى تشبيه الدكتور طه حسين بك تلك القينة بهذه الفتاة التى تصورها الأغنية الفرنسية التى كان يتغنى بها الجند أيام الحرب ويسمونها مدلون !

ويظهر باعتراف طرفة أن اسرافه فى البذل والتبذل قد جر عليه غضب قومه واستنكارهم :

وما زال تشرابى الخمور ولذتى   وبيعى وانفاقى طريفى ومتلدى

الى أن تحامتنى العشيرة كلها   وأفردت افراد البعير المعبد

ولكن طرفة لا يبالى هذا النفور والنكران وهو لا يفعل ذلك لمجرد اللجاجة فى الغى والاستكبار عن الرشاد ، ولكنه يقيم الحجة على رشاده فى غيه وحقه فى الضلال !! فهو يبنى مسلكه على فلسفة راسخة فى أعماق نفسه ، يعرضها فى منطق صريح قوى . فيسائل الذين يلومونه على تعريض نفسه للخطر فى الحرب ، أو تعريض صحته للدمار فى عالم اللذة والمجون ، يسائل هؤلاء اللائمين هل يضمنون له الخلود اذا أقلع عن هذه السبيل أو تلك ؟ فاذا كان الموت قضاء لا بد منه ، ينزل على الشجاع كما ينزل على الجبان، ويحل بالجواد كما يحل بالبخيل ، فمن حق الانسان اذن ان يرضى نفسه باداء ما عليه من

واجب فى ميدان القتال ، كما يرضى جسمه بأن يستمتع بما يتاح له من متع ولذات !

ألا أيهذا الزاجرى احضر الوغى   وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى؟
فان كنت لا تسطيع دفع منيتى   فدعنى أبادرها بما ملكت يدى!

ويقول: كريم يروى نفسه فى حياته   ستعلم ان متنا غداً أينا الصدى!
أرى قبر نحام بخيل بماله   كقبر غوى فى البطالة مفسد
أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى   عقيلة مال الفاحش المتشدد

ويمضى طرفة فى شرح فلسفته البسيطة ، فيقول : ان الحياة كالمال الذى يتناقص بمضى الايام ، فمصير هذا المال آخر الأمر الى نفاد لا شك فيه ، وانما مثل الانسان فى نجوته المؤقتة من الموت كمثل الدابة المقيدة فى طرف حبل تقبض على طرفه الآخر يد صاحب الدابة فلا تفلت منه

أرى العيش كنزا ناقصا كل ليلة   وما تنقص الايام والدهر ، ينفد
لعمرك ان الموت ما أخطأ الفتى   لكالطول المرخى ، وثنياه باليد!

وهذه الفلسفة نفسها هى التى يعود طرفة الى تصويرها فى ختام قصيدته فيقول :

أرى الموت اعداد النفوس، ولا أرى   بعيداً غداً ، ما أقرب اليوم من غد

على هذا التصوير البارع للحياة أقام طرفة نظام لهوه وحده ، هازئا بما يلقى من ثورة قومه عليه وأهله ، فتراه يصارح ابن عمه الذى كان على ما يظهر أشد الأهل سخطا على طرفة واستهتاره ، علام يخاصمه ويقاطعه ، ويلح فى القاطعة والخصام :

فمالى أرانى وابن عمى مالكا   متى أدن منه ، ينأ عنى ويبعد
يلوم وما أدرى علام يلومنى   كما لامنى فى الحي قرط بن معبد

ويرجو طرفة من ابن عمه أن يتركه وشأنه ، وأن يقصر عنه هذا اللوم ، وهو على كل حال شاكر له سابق فضله وعنايته بأمره ، وان بعد عنه أقصى البعد حتى يجعل بيته عند ذلك الجبل النائى البعيد . جبل ضرغد

وظلم دوى القربى أشد مضاضة   على المرء من وقع الحسام المهند!
فذرنى وخلقى ، انى لك شاكر !   ولو حل بيتى نائيا عند ضرغد !

وينتقل طرفة من هذا العتاب الى نوع من الاستهتار بما حل به من فقر وعسر ، ولكنه استهتار أشبه مايكون بالتحسر والتمنى ، فيقول :

فلو شاء ربى كنت قيس بن خالد   ولو شاء ربى كنت عمرو بن مرثد

فأصبحت ذا مال كثير ، وزارنى بنون كرام سادة لمسود

ويقال ان عمرو بن مرثد تأثر أشد التأثر حين سمع هذين البيتين يقولهما ابن عمه طرفة فأرسل من يقول له :

« أما الولد فالله يعطيكهم ، وأما المال فسنجعلك فيه أسوتنا ! »

واستدعى الرجل أولاده ، وكانوا سبعة ، وأشار بأن (يكتتب) كل منهم لطرفة بعشر من الابل احتذاء لمثاله ، فاشترك فى الاكتتاب ثلاثة ، كانوا يفاخرون إخوتهم الآخرين بما قدموا (لعمهم) طرفة من العون الذى يغنيه

وفى القصيدة بيت آخر يشير الى قصة غير هذه . وذلك حيث يقول طرفة رداً على ابن عمه ، وعجبا من قطيعته إياه ، إنه ــ أى ابن عمه ــ يقاطعه :

على غير ذنب قلته ، غير أننى نشدت فلم أغفل حمولة معبد

فهنا يشير طرفة الى حادث وقع بينه وبين أخيه معبد بن العبد . فقد كان طرفة ، كأمثاله من الشعراء فى كل عصر ، شابا صاحب خيال يصرفه عن شئون الدنيا وواجباتها المادية ، وقد لاحظ أخوه ذلك ، فلامه على أنه يترك ابلهما ترعى بلا رقيب لاشتغاله بخيالاته وأحلامه الشعرية ، إذ قال له فى تهكم لاذع :

ــ لا تسرح ابلك كأنك تظن أنها ان أخذت ردها عليك شعرك !!

وهاج ذلك التقريع الساخر حماسة الشاعر الشاب . فاجاب اخاه قائلا :

ــ والله لا أخرج فيها ابداً ــ حتى تعلم أن شعرى سيردها ان أخذت !

وترك طرفة الابل فأخذها قوم من مضر فاستغاث بعمرو بن هند فى قصيدة معروفة وأفلح الشاعر فى استرداد ابله بذلك السلاح الذي استضعفه معبد . . . وهو سلاح الشعر !

* * *

بقيت كلمة لابد منها قبل ختام هذا الفصل عن شاعرنا الشاب . وهى تتناول مكانة طرفة فى تاريخ الأدب العربى

روى الأصمعى أن رجلا من العرب قال : قدم علينا جرير فقلنا :

ــ من أشعر الناس ؟

فقال : الذى يقول ــ بعيداً غداً ، ما أقرب اليوم من غد !

ومعنى هذا ان صحت الرواية ، أن جريراً ، وهو الشاعر العربى الفحل وضع طرفة على رأس امارة الشعر كله

وسئل الشاعر الفارس لبيد بن ربيعة ، الذى كان يلقب بأبى عقيل :

— من أشعر الناس ؟

فقال — الملك الضليل (يعنى امرأ القيس)

قيل — ثم من ؟

قال — الشاب القتيل (يعنى طرفة)

قيل — ثم من ؟

قال — الشيخ ابو عقيل (يعنى نفسه)

فلبيد هنا يقدم طرفة على نفسه ، ويجعله بعد امرىء القيس — رأس الطبقة الأولى فى الجاهلية

وهذا الذى قاله لبيد فى شأن طرفة وامرىء القيس هو نفسه الذى قاله فيما بعد عبد القادر البغدادى ، إذ وصفه بأنه أشعر الشعراء بعد امرىء القيس ، واستشهد البغدادى على ذلك بأن معلقته توضع فى ترتيبها بعد معلقة الشاعر الضليل وقبل سائر المعلقات

ورأى ابن سلام يخالف رأى البغدادى ، إذ يجعله فى كتابه (طبقات الشعراء) فى الطبقة الرابعة مع عبيد بن الأبرص وعلقمة الفحل

والواقع أن تقديم هذا الشاعر على ذلك ، وجعله فى هذه المرتبة أو تلك ، أمر كان دائما محل خلاف لا ينتهى ولا يمكن أن ينتهى ما دام فى العالم كل هذا الخلاف بين أذواق الناس وأهوائهم ، يستوى فى ذلك العرب والعجم

على أن هنالك رأيا فى طرفة لم أجد أصدق منه ولا أحكم ، وهو على كل حال يضع الشاعر الشاب فى مكانة قل من يستطيع انكارها عليه ، وأعنى بذلك رأى قتيبة بن مسلم إذ كتب له الحجاج بن يوسف الثقفى يسأله سؤالا صريحا عن أشعر الشعراء فى الجاهلية وأشعر الشعراء فى ذلك الوقت ، أى وقت قتيبة ، فاصطنع قتيبة نهجا فى الجواب جد موفق ، إذ قال :

— أشعر شعراء الجاهلية امرؤ القيس ، واضربهم مثلا طرفة . وأما شعراء الوقت فالفرزدق أفخرهم ، وجرير أهجاهم ، والأخطل أوصفهم !

والذى يعنينا هو قول قتيبة ان طرفة أضرب شعراء الجاهلية مثلا . ولا نظن احداً

يستطيع أن يمترى فى ذلك . وحسبنا دليلا أننا الى اليوم لا نزال نتمثل بشعر هذا الشاب الجاهلى ، وان يكن أكثر الذين يتمثلون بشعره لايعرفون من أمره شيئا ، بل لا يعرفون أنه قائله . ومن منا لم يتمثل فى وقت ما بهذه الحكم وجوامع الكلم :

ستبدى لك الايام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود !

***

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد

***

حنانيك بعض الشر أهون من بعض !

***

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند

ويقال فى رواية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل بقول طرفة « بعيداً غداً ما أقرب اليوم من غد »

ولست أرى فى ذلك ما يخالف قوله تعالى : « وما علمناه الشعر وما ينبغى له » فان التمثل بحكمة شعرية متداولة لايعنى أن المتمثل بها يعلم الشعر على النحو المفهوم من العلم به

موتسارت[1]

« طفل المعجزات »



لم يكن موتسارت من نوابغ الشباب وحسب ، بل كان طفلا نابغة كذلك ، فكان يدعى بحق فى فجر حياته « طفل المعجزات »

على أن أعجب ما فى حياته الحافلة بالعجائب هو ذلك المظهر الذى يكاد ينقطع نظيره ، مظهر اجتماع النقيضين : إجماع العالم الفنى على تقدير نبوغه منذ ظهرت بواكير هـذا النبوغ ، أى منذ استطاع فولفجانج أن يحرك لسانه بالكلم ، ثم اقتران هذا القدير الشامل بالضنك المالى يعانيه الموسيقى النابغة حتى يختم صفحة حياته غارقا فى الدين ، وتكافح ارملته عاما بعد عام حتى تستدر عطف الامبراطور جوزيف الثانى ، فتقام تحت رعايته حفلة خيرية ويحتذى مثاله فى الدائن الأخرى ، وبهذه الوسيلة وحدها تستطيع أرملته أن تسدد ما كان على العبقرى المنكود الحظ من ديون

***

كان ليوبولد موتسارت ، والد المترجم له ، موسيقيا فى فرقة رئيس أساقفة زالتسبرج (بالنمسا) وكان معروفا بالجد ، وان لم يؤت من العبقرية ما يؤهله لأن يجلى فى عالم التأليف الموسيقى . ولم يكد يستقر فى عمله عند رئيس الأساقفة حتى بنى بممرضة حسناء تدعى أنا برتلينا ، فكان أهل زالتسبرج يقولون إنه لم يسبق لبلدتهم أن شهدت زوجين فى جمال هذين العروسين وقسامتهما !

وقد أثمر هذا الزواج السعيد سبعة أولاد تخطف الموت منهم خمسة فى سن الطفولة

---

(١) هكذا ينطق الاسم بالالمانية ، بينما ينطقه الفرنسيون (موزار)

ولم يعش سوى اثنين : ماريا أنا ، وقد ولدت فى ٢٦ أغسطس سنة ١٧٥١ ، وشقيقها جون كريزوستوم فولفجانج أماديوس ، وقد ولد فى ٢٧ يناير سنة ١٧٥٦

***

لم يؤت ليوبولد موتسارت ، كما قلنا ، عبقرية تؤهله لأن يتألق نجمه فى عالم التأليف الموسيقى ، ونعنى بالتأليف هنا صوغ الألحان الموسيقية واختراعها ، ولكنه أوتى العبقرية بأكمل معانيها في ناحية أخرى لولاها لما قدر للعالم أن يظفر بعبقرية فولفجانج موتسارت التى لم يسبق لها مثيل . ذلك أن ليوبولد كان معلما موسيقيا لا يشق له غبار . فاستطاع أن يهب عالم الموسيقى هبتين عظيمتين : أولاهما مؤلفه الذى نشر فى نفس العام الذى ولد فيه فولفجانج وعنوانه « محاولة لوضع نهج أساسي للكمان » ، وهو بحث فنى جليل الشأن فى فلسفة الموسيقى وطريقة أدائها ، ويكفى للتدليل على أهمية هذا المؤلف أن نقول إنه لم يكد يظهر حتى أخذ نجم ليوبولد يرتفع وصيته يذيع فى أنحاء أوربا كمعلم موسيقى عليم بأسرار مهنته . وعلى أساس نظريات ليوبولد التى أودعها هذا الكتاب أقام أعاظم عازفى الكمان فى المانيا مجدهم فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر

أما الهبة الثانية التى ظفر بها العالم من ليوبولد موتسارت فهى عبقرية ولده النابغة فولفجانج ، تلك العبقرية التى ما كانت لتظهر فياضة الضياء على العالم لولا براعة ليوبولد كمعلم موسيقى ، ولولا حسن رعايته وشدة التفاته لتربية اولاده وتعهد ملكاتهم الفنية على خير ما يستطيع أن يفعل والد لفلذات كبده

وقد اكتشف ليوبولد مواهب ولده الموسيقية من طريق المصادفة . اذ كان الوالد معنيا بتعليم ابنته العزف على البيانة (البيانو) ولها من العمر سبع سنوات ، فاذا فولفجانج وله من العمر إذ ذاك ثلاث سنوات يحرص أشد الحرص على أن يحضر دروس أخته بغير انقطاع . وإذا به بعد ذلك يبدى شغفا شديداً بالايقاع أسوة بشقيقته ، ثم يتقدم مرحلة أخرى فيجعل سلوته اكتشاف مسافات جديدة بين مفاتيح البيانة !

ولما بلغ موتسارت الرابعة كان فى استطاعته أن يستظهر الألحان الفردية الطويلة فى مقطوعات (الأوركسترا) التى كان يمتع نفسه بالاصغاء اليها . فأخذ أبوه يخصص دروسا موسيقية له . ولكن الطفل لم يقتنع بدروس الايقاع ، بل جمع بين درس الايقاع ودرس التلحين ، أى التأليف الموسيقى، فى وقت واحد ، إذ كانت طبيعته الخصبة النادرة توحى اليه من الأعماق بأسرار الطرب والايقاع والتوافق والتآلف فى الأنغام . فليس

غريبا مع هذه الطبيعة الفنية أن يستطيع الطفل فى ختام العام الرابع من حياته أن يلحن المقطوعات الصغيرة التى كان يضعها له والده

ظل ليوبولد موتسارت يرقب ملكات طفله تتجلى وتنمو سريعة فى العامين التاليين حتى لم تبق لديه خالجة شك فى عبقريته الفذة الخارقة ، فحزم أمره على أن يذهب بالطفل وشقيقته معا الى بلاط بافاريا فى مونيخ . ونفذ عزمه فى يناير سنة ١٧٦٢

كان فولفجانج شديد الحيوية شديد الذكاء وكان قبل انقطاعه للموسيقى يعمد الى التسلى بمثل ما يتسلى به أضرابه الاطفال من العاب صبيانية ينسى فى أثنائها كل شىء حتى غذاءه . ولكنه بعد ذلك انصرف عن هذه الألعاب ، الا أن تكون ممتزجة أشد الامتزاج بالموسيقى

وكان الطفل الى جانب ذلك شديد الحساسية رقيق الطبع ، حتى لقد كان يسأل من حوله عدة مرات فى اليوم عما اذا كانوا يحبونه أم لا ، فاذا أجاب أحدهم بالنفى من قبيل المزاح اغرورقت عيناه بالدموع !

ومن غريب مايؤثر عن فولفجانج أنه ظل طول حياته بارعا أشد البراعة فى الحساب . وقد بدأ يتعلمه فى طفولته مع الموسيقى ، فأولع بدراسته حتى كاد يصرفه عن فنه الأصيل وبلغ من شغفه به حينئذ أن كان يملأ الجدران والكراسى والمناضد ، بل أرض الغرفة نفسها ، بحلول المسائل الحسابية العسيرة !

على أن أعجب ما يذكر عن نبوغ موتسارت فى هذه السن المبكرة أنه فى السادسة من عمره لم يكن قد بدأ يلحن مقطوعات لفرقة موسيقية بأكملها وحسب ، ولكنه استطاع أيضا أن يتغلب على عقبة من أعظم العقبات التى تواجه الملحن ، وهى تمييز الأنغام من النوطة دون استعانة بأية آلة موسيقية !

* * *

نعود الى رحلة ليوبولد مع ولده وابنته الى مونيخ فى يناير سنة ١٧٦٢ فنقول انها استغرقت أسابيع ثلاثة ، عزف خلالها فولفجانج أمام منتخب (أمير) بافاريا . وانتزع من سامعيه أشد الاعجاب . ثم عاد الثلاثة الى زالتسبرج لاستئناف دراسة الموسيقى بروح مجددة النشاط . وسرعان ما بدأ الطفل يتلقى دروس العزف على الكمان . وقد روى صديق للعائلة هو شاختنر الموسيقى هذه الحادثة التالية للدلالة على العبقرية الكامنة فى طبيعة (طفل المعجزات)

ذلك أنه قبـل أن يتلقى فولفجانج دروسه المنتظمة فى الكمان ، جاء لزيارة والده موسيقى بارع من عازفى الكمان اسمه فنتسل لتجربة بعض مقطوعات من تلحينه . وهنا ندع شاختنر يتكلم :

« فأخذ الأب آلة الكمان المنخفضة الطبقة ، وأخذ فنتسل آلة الكمان الأولى ، وتناولت أنا الثانية ، وأقبل فولفجانج الصغير يتوسل الى والده أن يدعه يعزف على الكمان الثانية ، ولكن الوالد أبى عليه ذلك بحجة أنه ما دام لم يلقن أصولهـا لن يؤدى الدور على وجهه الصحيح . فأجاب الطفل بأن العزف على الكمان الثانية لا يتطلب من الانسان تعلما ، وعندئذ نفد صبر الأب فطلب من فولفجانج أن ينصرف ولا يزعجنـا . فأخذ الطفل يبكى بكاء مراً ، وانصرف بكمانه ، ولكنى رجوت أن يسمح له بالعودة والعزف معى . فوافق الوالد أخيراً وقال لفولفجانج :

ـــ حسنا . إذن فلتعزف مع هر شاختنر ولكن تذكر جيداً أنه ينبغى لك أن تعزف عزفا خفيفا بحيث لا يسمعك أحد ، والا بادرت الى إقصائك

« وبدأنا العزف ومعنا موتسارت الصغير يعزف على كمان مثل كمانى . ولكنى سرعان ما لاحظت أن عزفه يطغى على تمـاما . فوضعت آلة الكمان فى سكون وأنا أنظر الى الوالد فاذا به لا يقوى على حبس دموعه ! وقد عزف فولفجانج المقطوعات الست بمنتهى الدقة والضبط ! . . . »

وفى ١٩ سبتمبر سنة ١٧٦٢ سافرت العائلة كلها الى فينا فاحتجزها أسقف ليتنس خمسة أيام كاملة فى باساو لفرط إعجابه بالطفل وأخته . فلما بلغوا فينا كان صيتهم قد سبقهم . ولهذا نرى الأب يكتب فى خطاب من فينا فى ١٦ اكتوبر :

« ان السيدات في كل مكان شديدات الحب لولدى . ونحن الآن حديث المتحدثين فى كل مكان »

ثم ينال الطفل أعلى مراتب الشرف فيقدم الى امبراطور النمسا . فيصف الوالد هذا الحادث العظيم فى خطاب آخر بقوله :

« لا أجد الآن من الوقت ما أستطيع معه أن أقول اكثر من أن صاحبي الجلالة قد استقبلانا بكل رعاية وإكرام ، حتى ليعد اتصالى بهما ضربا من الخيال . وقد قفز فولفرل (اسم التدليل لفولفجانج) فى حجر الامبراطورة وأحاط عنقها بذراعيه ، وأخذ يقبلها بحرارة ! وقد بقينا فى القصر من الساعة الثالثة الى السادسة ، وأقبل الامبراطور نفسه

الى غرفة الاستقبال ، واستدعانى لأسمعه الطفل يعزف على الكمان . وقد أرسلت الينا الامبراطورة أمس الخميس مع أمين خزانتها الخاص ، الذى وقف بموكبه أمام مسكننا ، (فستانين) أحدهما للطفل والآخر للبنت . . »

واشتد شغف الخاصة والنبلاء بالطفل والاعجاب ببراعته الخارقة حتى أصبحوا يتزاحمون على الاستئثار به . وقد صور الوالد الفخور هذه الظاهرة بقوله فى أحد خطاباته :

« كنا اليوم نعزف عند سفير فرنسا ، وغداً سنذهب الى قصر كونت هاراش . ونحن فى كل مكان نؤخذ ونعاد الى مسكننا فى عربات النبلاء . وقد وافقنا على أن نحضر من السادسة الى التاسعة حفلة كبيرة يعزف فيها أعظم فنانى فينا . وضماناً لعدم اضطرارنا للتأخر أصبح يتفق معنا قبل الموعد بأيام أربعة أو خمسة بل ثمانية ، كما حدث عندما دعانا مدير البريد العام الكونت بار فى يوم الاثنين . وقد حدث مرة أن بقينا فى أحد القصور من منتصف الساعة الثالثة الى نحو الساعة الرابعة . ثم أرسل كونت هاديج عربته فأقلتنا بأقصى سرعة الى دار احدى السيدات حيث بقينا الى منتصف السادسة ، وبعد ذلك ذهبنا الى قصر كونت كاونتس حيث بقينا الى نحو الساعة التاسعة ! ! »

وفى ذات ليلة بينما كان الطفل وأخته ووالدهما عند الامبراطورة ، بدت على فولفجانج علائم المرض الفاجىء ولم يلبث أن ظهر عليه طفح قرمزى . فبادر الى معالجته أحد أطباء فينا المشاهير ، ولكنه لم يتناول أجره مالا بل موسيقى ! وأرسل بعض النبلاء تمنياتهم بشفاء فولفجانج . . ولكنهم لم يتعدوا هذا الحد الافلاطونى من العطف . ولم يخطر لهم أن يبعثوا الى الطفل بهدية ما ! !

ومن طريف ما يذكر عن موتسارت الصغير وصراحته العجيبة فى هذه الرحلة أنه بينما كانت ابنتا الامبراطور ذاهبتين بالطفل ذات يوم الى الامبراطورة زلت قدمه على أرض القاعة الأملس البراق . فلم تعبأ احدى الأرشيدوقتين بالحادث ، وأما الأخرى ، وهى مارى انتوانيت التى أصبحت فيما بعد ملكة فرنسا ثم رمى بها سوء الحظ الى المقصلة ، فقد أنهضته وأخذت ترفه عنه وتهون عليه ما حدث . فالتفت اليها وقال : « انك لطيفة جداً ، وسأتزوجك ! » ولما قصت الأرشيدوقة هذا الحديث على أمها سألت فولفجانج كيف خطر له أن ينتهى الى مثل هذا القرار . فأجابها قائلا : « بدافع عرفان الجميل ، فقد كانت رقيقة جداً . أما أختها فلم تعبأ بى ! ! »

وعادت العائلة فى أوائل سنة ١٧٦٣ الى زالتسبرج حيث واصل الطفل دراسته على يدى والده ، دون أن يداخله أقل أثر من الزهو أو الغرور . وقد بلغ من شدة امتثاله لارادة والديه أن كان يأبى أن يتناول أية هدية أو يجسر على أن يقبل من أصدقائه أى طعام بغير إذن والديه ! وبلغ من تقديسه لوالده أن كان يقول دائما : « الله أولا، ثم يأتى الوالد مباشرة. "Nach Gott kommt gleich der Papa"

ولم تلبث العائلة أن سافرت فى أوائل يونيو من العام نفسه فى رحلة فنية جديدة . وكان فولفجانج حينئذ فى الثامنة من عمره . وفى هذه الرحلة كان الطفل يعزف على البيان والأرغن والكمان . وكان يغنى ويمثل ويلحن على البديهة ، فلم يعجز قط عن قبول ماتحداه به العابثون أو الحاقدون ، واستطاع أن يرد الى نحورهم ما أرادوا له من إحراج أو كيد

وقد بدأت الرحلة بالسفر الى فاسنبرج فى بافاريا ثم الى مونيخ التى بلغتها العائلة في ٢١ يونيو سنة ١٧٦٣ . وهناك استقبلها أمير تسفا يبروكن ومنتخب بافاريا أحسن استقبال ، وتهافت العظماء والنبلاء على سماع الصبى وأخته حتى كان من العسير الانتقال من هذه المدينة لمواصلة الرحلة . ومن طريف ماحدث عندئذ أن امير تسفايبروكن أخذ يماطل فى دفع أجر الموسيقى النابغة ، لا لأن الأمير لايريد أن يدفع ، ولكن ليبنى تقديره على ما سيدفعه منتخب بافايا ! واخيراً دفع المنتخب مائة فلورين فدفع الأمير خمسة وسبعين

ومن مونيخ الى أوجسبرج ثم شفتسينجن ، مصطاف الامبراطور ، ثم هايدلبرج ثم مانيس ثم فرانكفورت . وهناك استيقظ فولفجانج ذات صباح باكيا فلما استفسره والده قال انه حزين لانقطاعه عن رفاقه ، وذكرهم باسمائهم

وفى خطاب من الوالد انهم انتقلوا من فرانكفورت بعد أن نالوا قسطا عظيما من التقدير والاعجاب الى بون Bon « وفى بون لم نجد منتخبا (اميراً) ولكنا وجدنا فى إكس لاشابل الأميرة اميليا أخت ملك بروسيا . بيد أنها ليست بذات ثراء ولو أن قبلاتها للطفلين وبخاصة الاستاذ فولفجانج كانت جنيهات ذهبية لكنا اليوم فى حال أحسن بكثير مما نحن فيه ــ ولكن لاصاحب الفندق ولا مدير البريد يسمح لنا باستعمال القبلات عملة جارية ! ! »

ويصف الوالد فى نفسه هذا الخطاب حالة العسر المالى التى يواجهها فى طريقه الى

باريس فيقول : « لقد أغدقت على الطفلين فى الواقع هدايا ثمينة عدة ، ولست أنوى أن احيلها نقوداً ، فقد أهدى الى فولفجانج مثلا حسامان ثمينان : أحدهما من رئيس أساقفة ميتشلين الكونت فرانكنبرج ، والآخر من الكونت فيراريس ... ولكننى فقير الى المال »

وليس لهذا العسر المالى من تعليل سوى شدة فقر النبلاء أنفسهم فى ذلك العصر الحافل بالمتناقضات والعجائب ، ولا سيما فيما يتعلق بالحياة الاجتماعية

وصلت العائلة الى باريس فاستقبلت استقبالا حسنا ، وحظيت بعناية قرينة سفير بافاريا ، التى أنزلتها بالفندق الذى تقيم فيه هى نفسها . ولكن وطأة العسر المالى اشتدت على العائلة بسبب مصادفة إعلان فترة حداد عند وصولها الى باريس

وبعد انتهاء فترة الحداد دعيت عائلة موتسارت الى قصر فرساى للعزف أمام الملك . وقد حدث حينئذ أن امرت مدام دى بمبادور ، حظية لويس الخامس عشر المشهورة ، بأن يقف الطفل على منضدة خاصة ، فلما تقدم لتحيتها أدارت له ظهرها وانصرفت عنه ، وعندئذ صاح الطفل محنقا : « من هـذه التي لاتريد أن تقبلنى ؟ لقد قبلتنى الامبراطورة نفسها من قبل ! »

كان التوفيق رائد الطفل العبقرى في هذه الرحلة فعزف كما قلنا أمام الاسرة المالكة، وعزف على الأرغن بالكنيسة فى حفلة حضرها رجال البلاط جميعا ، ونشرت اولى مؤلفات موتسارت الطفل ، وهى فرديات أربع على البيانة مع متابعة الكمان ، وقد أهديت منها اثنتان لمدام فكتوار ابنة الملك والثانية لكونتس تيسيه

ويصف ليوبولد موتسارت حفاوة الاسرة المالكة به وبطفليه فيقول فى أحد خطاباته :

« على ان أشد ماأدهش الحاضرين هو أنه في مأدبة العشاء التى أقيمت ليلة رأس السنة أفسح لنا وحدنا الطريق الى المائدة الملكية ، حيث كان للاستاذ ولفجانج شرف الوقوف على مقربة من الملكة ومحادثتها وتسليتها بغير انقطاع . وكان يأكل تارة ما تقدمه له الملكة من المائدة وتارة يقبل يدها ! »

وبعد ان أصابت أسرة موتسارت ما أصابت من نجاح عظيم فى باريس غادرتها فى ١٠ ابريل سنة ١٧٦٤ الى لندن ، حيث أقامت الى منتصف العام التالى . وقد أتيح لها هنا أيضا أن تحظى بشرف العزف أمام صاحبى الجلالة ملكى الانجليز فى السابع والعشرين

من الشهر الذى وصلت فيه ، وكذلك فى الشهر الذى تلاه ، اذ عزف الطفل على أرغن الملك ونال مثل الاعجاب الذى ناله فى فرساى . وهناك أيضا أصيب الطفل ببرد ألزمه الفراش ، فبدأ يؤلف حينئذ للتسلية أول سينفونى لفرقة الموسيقى الكاملة

ورغم أن الطفل فى هذه الفترة تقدم تقدما عظيما وصفه والده فى أحد خطاباته بقوله: «... ان فولفجانج العظيم الجبار وان لم يبلغ سوى الثامنة من عمره ، أصبحت له مواهب رجل فى الأربعين » ـ رغم هـذا التقدم الفنى العجيب نرى طبيعة الطفولة الساذجة اللاهية تلازم موتسارت العبقرى ، حتى لقد كان ذات مرة يعزف أمام أحد كبار الانجليز فرأى قطة جميلة تدخل الغرفة فوضع الكمان وأقبل على القطة يداعبها ويشتغل بها عن الاعيان والنبلاء الحاضرين ! وكان أحيانا يضع عصا بين رجليه ويطوف حول الغرفة كما لو كان ممتطيا أحد الجياد ! !

وبعد عام شعرت العائلة بتضاؤل الايراد فقرر الوالد مغادرة البلاد بدعوى ان الانجليز قوم لا دين لهم ولا تربيـة ، وهكذا غادرت العائلة انجلترا الى هولندا ثم الى فرنسا فسويسرا ومنها الى "زالتسبرج فى أواخر سنة ١٧٦٦ . وهناك أحيط الطفل بعطف رئيس الاساقفة ووضع للجامعة ألحانا موسيقية لرواية هزلية لاتينية . وعدة مقطوعات أخرى للبيانة وسنفونى (للاوركسترا) الكاملة . حتى اذا كان شهر سبتمبر سنة ١٧٦٧ غادرت العائلة كلها زالتسبرج مرة أخرى فى رحلة الى فينا

كان الحظ الى ما قبل هذه الرحلة مواتيا فنال الطفل ما لا مطمع معه فى مزيد من التقدير والرعاية والاعجاب ، ولـكن الدهر أخذ يقلب ظهر المجن للطفل ، أو على الأصح للصبى ، منذ انتقل فى هذه المرة الى فينا . فاذا مقدمه يثير الحفائظ فى نفوس الموسيقيين، واذا هم يتألبون جميعاً على موتسارت الذى لم يزل فى الثانية عشرة من عمره ولـكنه حظى دونهم بتكريم الامبراطور والامبراطورة . فدبروا فيما بينهم خطة يطفئون بها نور هـذا العبقرى الذى قام فى طفولته يهدد شهرتهم ويخفت صيتهم . وكانت خطتهم ان ينكروا علمهم بوجود (شىء) اسمه فولفجانج موتسارت وسماعهم بأي موسيقى منسوبة اليه ، وأن يؤكدوا عجز مثل هذا الطفل عن التلحين ويقطعوا بان الأمر لا يعدو ان يكون تضليلا وعبثا صارخا بأفهام الناس !

ازاء هذا المكر السىء ، وازاء الضيق المالى الذى أخذت العائلة تعانيه لاستحالة اقامة الحفلات إذ ذاك بسبب انتشار الجدرى ـ ازاء هذا أخذ ليوبولد موتسارت بمشورة

القيصر وعهد الى ابنه بتلحين رواية غنائية (اوبرا) واخراجها . ولـكن الاوبرا لم تكد تلحن حتى قام فى سبيل اخراجها كل ما يتصور العقل من عقبات . فمن ارجاء مصطنع الى اعتذارات منتحلة الى وعود مخلفة ، ومن تهويش متعمد فى أثناء التجارب (البروفات) ، الى ما لا حصر له من أساليب الدس والـكيد التى كانت وما زالت تجد مرعاها الخصيب في الجو المسرحى على وجه خاص

وأخيراً عادت العائلة الى زالتسبرج حيث واصل فولفجانج دراسته مستزيداً من درايته باللغة الايطالية ، حتى اذا كان شهر ديسمبر سنة ١٧٦٩ رحل الوالد وابنه الى ايطاليا وبقيا بها الى مارس سنة ١٧٧١ . وهناك استقبلا استقبالا باهراً ولقيا من ضروب الاعجاب والتقدير ما كان جديراً أن يمحو ذكريات الدس والحقد اللذين أحاطا بهما فى فيينا ، فقد حظيا هنا أيضا بعطف الاسرة المالـكة ومحبة الملـكة بنوع خاص ، وأنعم البابا على فولفجانج بلقب فارس ، وانتخبته عدة اكاديميات موسيقية عليا عضواً فيها ، والتقى فى روما بسفير انجلترا اللورد هاملتون وزوجته الليدى هاملتون خليلة نلسون المشهورة ، وتوج هذا كله بلقب شعبي اصبح فيما بعد جزءاً من اسم الموسيقى النابغة وهو لقب Amadeus أى المحبوب ، فظل اسم موتسارت بقية حياته «فولفجانج اماديوس موتسارت»

ولم يكد الوالد وولده يعودان الى زالتسبرج في سنة ١٧٧١ حتى تلقيا دعوة موجهة الى الموسيقى الصـغير باسم الامبراطورة ماريا تريزا لتلحين بعض مقطوعات مسرحية للاحتفالات التى تقام فى الخريف بميلان بمناسبة زواج الأرشـيدوق فرديناند . وكانت هذه فرصة نادرة لـكى يظهر فولفجانج عبقريته الى جانب عبقرية الموسيقى العجوز هاسى الذى كانوا يلقبونه (بالالهى) لعظمة ألحانه . وكان النصر للشاب ، حتى لقد صرح هاسى نفسه فى مجتمع عام قائلا : « ان هذا الشاب سيلقى بنا جميعا فى الظلام ! » وقد تحققت نبوءته فان فولفجانج غادر ايطاليا ولا صيت إلا صيته بعد أن لحن الأوبرا التى مثلت فى ميلانو نحو ثلاثين ليلة بلا انقطاع

على أن متاعب الحياة لم تلبث أن واجهت الأسرة جديا . لا سيا أن رئيس أساقفة زالتسبرج الجديد لم يكن صاحب ذوق موسيقى ولا عاطفة انسانية . فقد بذل فولفجانج كل جهده حين التحق مع أبيه بفرقة الـكنيسة لـكى ينال تقدير رئيس الاساقفة ، ولـكن غاية ما استطاع أن يكسبه من عمله بالـكنيسة رغم هـذا كله لم يتجاوز ما يعادل جنيها مصريا فى السنة !

وبلغ من تعنت الرجل أن رفض التصريح للوالد وولده باجازة يرحلان فيها من جديد باذاعة لفن الصبي النابغة . فآثر الوالد أن يحتفظ بهذا المورد من الرزق على ضآلته ، واستقال ولده ثم صحب والدته فى رحلة للبحث عن وظيفة عند أمير أجنبي يكون أعدل حكما وأكثر تقديراً لعبقريته . فرحل أول الأمر الى مانهايم ولكنه ظل الشهور الطوال ينتظر من أميرها رفضا لخدماته أو قبولا ، حتى اذا جاءه الرد بالرفض لم يبادر بالرحيل سعيا وراء الغرض الذى رسمه لنفسه حين استقال من زالتسبرج . ولعل القارىء يدرك سر هذا التلكؤ اذا عرف أن الصبى ، وقد أصبح الآن شابا فى الثانية والعشرين ، لقى فى هذه المدينة فتاة ألمانية فى الخامسة عشرة جميلة الصوت مبدعة فى الغناء أحبها من أعماق قلبه حتى كاد يقعد عن طلب الشهرة فى سبيل البقاء الى جانبها لولا حكمة والده وإلحاحه عليه فى وجوب مواصلة الرحلة الى باريس

هبط الشاب باريس مع والدته فى ٢٣ مارس سنة ١٧٧٨ ، فبدأ التلحين والتأليف الموسيقى ببراعته وجده اللذين قلما فارقاه ، ولكن الحظ التعس كان يهيىء له مزيداً من الفشل والتنغيص . فزادت متاعبه المالية . وضاق الشاب صدراً بالباريسيين وفساد ذوقهم الموسيقى اذ ذاك ، وتجردهم من صدق العاطفة ، واكتفائهم بازجاء التحية والاطراء ثمنا لما يستمتعون به من نتاج العبقريين . وتصادف أن خلت وظيفة موسيقية في قصر فرساى بمرتب يعادل فى ألمانيا ٣٣٣ ريالا فى ستة أشهر وهو مبلغ قد يكون ذا قيمة فى ألمانيا ولكنه لا يساوى شيئا يذكر في باريس . ولهذا رفض الشاب هذه الوظيفة مكتفيا بما يكسب من دروسه الخاصة الى أن يجد الوظيفة التى تليق له

وبينما موتسارت يعلل النفس بالأمانى معتصما بالصبر اذا بالقدر يهوى عليه بضربة تلقاها بشجاعة جديرة بأثبت الرجال جنانا وأشدهم جلدا . فقد نزل الموت بوالدته في ٣ يوليو سنة ١٧٧٨ اثر مرض لم يدم سوى أسبوعين . فلم تذهب هذه النازلة بصوابه ، بل بادر الى كتابة خطاب الى والده يخبره فيه بأن والدته مريضة . وتدرج من هذا الى أن وطأة المرض شديدة ، وان كل ما يأتى به الله خير على كل حال . ولكنه أشفق على والده فلم يفض اليه فى هذا الخطاب بنبأ الوفاة . وقبل هذا أرسل الى صديق لوالده ينبئه بالحقيقة ويرجو منه أن يهيئه لتلقى النبأ الفاجع ، وبعد أيام ألقى الشاب الى والده المحزون بتفاصيل المأساة

لم تطل اقامة فولفجانج فى باريس بعد ذلك ، اذ خشى عليه الوالد من الوحدة فى

العاصمة الفرنسية ، ودعاه الى العودة الى خدمة رئيس أساقفة زالتسبرج بشروط حسنة قبلها الرجل نادما على سلوكه الأول . وكذلك دعا الوالد ولده الى أن يعود بالفتاة التى كان قد عرفها وأحبها فى مانهايم وهى مدموازيل فيبر ، وكان صيتها فى الغناء قد بلغ زالتسبرج . فغادر موتسارت باريس فى ٢٦ سبتمبر سنة ١٧٧٨ . وعرج فى طريقه على مونيخ حيث انتقلت عائلة حبيبته مدموازيل فيبر ، وهرع الى دار العائلة وقلبه يثب بين جنبيه من فرحة اللقاء العاجل ، وفى نفسه من العواطف ماصوره البحترى فى بيته الخالد:

ولو عرف الناس التلاقى وحسنه   لحبب من أجل التلاقى التفرق !

ودخل الموسيقى الشاب على حبيبته التى فارقها وفارقته بدموع منهمرة مستهلات ـ دخل فاذا بها لا تكاد تعرفه ولا تكاد تذكر أن بينها وبينه عهداً واجب الوفاء . وهنا أدرك موتسارت علة العلل فى كل عهد حائل ـ وهل من علة غير طبيعة المرأة وقلبها المتحول ؟ فجلس الى البيانو وغنى فى رجولة وأنفة جديرتين به :

Ich lass das Madel gern, Das mich nicht will ....

« اننى أتخلى طيب الخاطر عن الفتاة التى لا تميل الىّ . . . »

وهو مذهب الشاعر العربى الذى قال :

لو تمنى البعـد عنى   نور عينى . . . ما تبعته !

واتجه موتسارت بقلبه بعدئذ الى احدى شقيقات الويز فيبر هذه وهى كونستانس فيبر وانتهى الحب الجديد بينهما فيما بعد بالزواج

عاد موتسارت الى زالتسبرج فى يناير سـنة ١٧٧٩ أى بعد ثلاثة أشهر وأيام من مبارحته باريس . والتحق مرة أخرى بخدمة رئيس الأساقفة بالشروط الجديدة التى أشرنا اليها ، وأخذ يواصل تواليفه الموسيقية ، حتى دعاه منتخب بافاريا قبيل شتاء سنة ١٧٨٠ لتلحين أوبرا «ايدومينو» فغادر زالتسبرج فى ٦ نوفمبر سنة ١٧٨٠ الى مونيخ، حيث أتم تلحين الأوبرا فى منتصف يناير سنة ١٧٨١ . وكان نجاحها الرائع متوجا للعام الخامس والعشرين من حياة موتسارت العظيم

وعند منتصف مارس سنة ١٧٨١ تلقى موتسارت أمراً بأن يلحق ببلاط زالتسبرج فى فينا . وهناك لقى من الهوان ما لا يكاد يلحق بالمعقول . وكيف يعقـل أن يعود موتسارت من هذا النصر المؤزر الموصول الحلقات فيجد نفسه ببلاط زالتسبرج فى منزلة لا تزيد على منازل الخدم والطهاة ؟

كتب موتسارت الى والده في ١٧ مارس يخبره بأنه وصل الى فيينا ثم يصف له كيف تناول عشاءه فيقول : « . . . وهناك جلس الى المائدة الغلامان ، ومراقب الخدم والهر تسيتى ، وصانع الحلوى ، والطاهيان . . وشخصى الحقير ! وقد تصدر الغلامان المائدة وكان لى على الأقل شرف الجلوس فى مكان متقدم على الطاهيين ! »

وكان طبيعيا أن تثور نفس الموسيقى الذى طبقت شهرته أنحاء أوربا ولقى فى ايطاليا وألمانيا وفرنسا وانجلترا كل ما لقى من إعجاب وتقدير ، وأحدث فى عالم الموسيقى انقلابا فنيا بروايته الرائعة « إيدومنيو » ـ كان طبيعيا أن تثور نفس موتسارت العظيم على هذا الهوان ، وأن يستقيل من هذه الوظيفة التى عانى فيها من الذل ما كاد يذهب بصحته ، إذ بلغ من تأثره ذات ليلة أن اضطر الى مغادرة دار الأوبرا فى منتصف الفصل الأول ، وعاد الى الدار يرتعد ويترنح من الحمى كالسكران !

غادر موتسارت وظيفته إذن فى إباء خليق بعبقريته وعظمته الفنية ، ولم يلبث أن خاض غمار الحياة الحرة معتمداً على قلمه الفياض وإنتاجه الخصب وجهده الذى لا يكاد يعتوره الفتور ، فأخذ يتكسب باعطاء الدروس وتلحين المقطوعات القصار والطوال والعزف على البيان فى حفلات النبلاء . وقد ظل موتسارت خلال خمس سنوات من سنة ١٧٨١ أمير عازفى البيان غير منازع . وفى هذه الفترة عرف فولفجانج أستاذ الموسيقى جوزيف هايدن ، ونشأت بينهما صداقة من أنبل ما عرف فى تاريخ التعاون الشريف بين رجل الفن وزميله . ولم يقطع حبل هذه الصداقة سوى الموت الذى عاجل موتسارت فى ريعان حياته . وقد عاش هايدن بقية حياته وفيا لذكرى موتسارت مشيداً بعبقريته ، ويؤثر عنه انه كان يقول كثيراً : « لا يمكن ان أنسى عزف موتسارت ما حييت »

* * *

كان عام ١٧٨٢ من أسعد الأعوام فى حياة موتسارت . ففى هذا العام أحرز نصراً مبينا على حاسديه وشانئى نبوغه ، بتلحين أوبرا Die Entführung aus dem Serail (المخطوفة من السراى) التى نالت من النجاح مالا زيادة معه لمستزيد . وفى هذا العام أيضا عقد قرانه على حبيبته (الثانية) كونستانس فير فى حفلة بسيطة مؤثرة . وقد روى موتسارت فى خطاب منه الى والده أنه حين نطق القسيس بصيغة العقد الزوجى انهمرت دموع زوجته وانهمرت دموعه أيضا ، فلما رأى الحاضرون والقسس شدة انفعالهما بتأثير الفرح شاطروهما البكاء !

على أن عوادى البؤس لم تلبث أن عدت على هذا الزواج بين الحبيبين السعيدين ، فقد مرضت الزوجة مرضا ألزمها الفراش قرابة العام ونصف العـام ، وتزل الضيق المالى بالفنان النابغة ـ أو على الأصح اشتدت وطأة هذا الضيق حين رأى أعضاء جدداً يزيدون عبثه ، هم أولاده الستة ، ثم دفع الهم ذلك الفنان المكدود العانى الى خلان مالوا به الى حياة فيها شيء غير قليل من اللهو والمجون ، وسقطت روايته العظيمة (أفراح فيجارو) أو بعبارة أدق لم تظفر بالنجاح الذى كان يحلم به موتسارت ، ورجحت كفة الموسيقيين الطليان الذين رأوا فى موتسارت خطراً على قوتهم ومكانتهم فى النمسا فتألبوا عليـــه بدسائسهم ومناوراتهم وعملوا على هدمه ، ثمَ أضيف الى هذا كله ما ألقى على كاهل موتسارت من ديون لا يكاد يعرف لها حد ، حتى نغص الدائنون صفو حياته وحياة أسرته ، وأصبحت هـــذه الديون مضغة الأفواه حتى فى بلاط الامبراطور . وقد سأله الامبراطور جوزيف يوما :

— لماذا لم تتزوج امرأة غنية ؟

فأجابه موتسارت بأنفته المأثورة :

— مولاى . انني أعتقد ان عبقريتى ستمكننى دائما من الانفاق على المرأة التى أحبها !

* * *

فى سنة ١٧٩١ ، بينما موتسارت يلحن الأوبرا الخالدة Zauberflote (الناى الساحر) أصيب بأعراض كانت نذيراً بانحلال قواه وإشرافه على النهاية . فقد كانت تعتريه من وقت لآخر فى أثناء دأبه على التلحين ليل نهار نوبات متوالية من الاغماء تستغرق كل منها عشر دقائق ، وبدت عليه علائم الضعف والهزال حتى اضطر فى شهر يونيو من هذا العام أن يكف مؤقتا عن التلحين ويقوم برحلة قصيرة الى بادن انتجاعا للصحة ثم عاد وأتم هذه الأوبرا فى شهر يونيو ، ولـكنه أدخل عليها بعض التعديل والتهذيب قبل تمثيلها فى آخر سبتمبر

وفى أوائل أغسطس من ذلك العام وقع حادث من أعجب الحوادث التى تعج بهـا حياة موتسارت . فقد دخل عليه زائر مجهول ودفع اليه خطابا غفــلا من أى توقيع ، يسأل فيه كاتبه عما اذا كان موتسارت يقبل تأليف لحن حزين ، واذا كان الرد بالايجاب فمتى يفرغ من هذا اللحن وماذا يطلب فى مقابل ذلك من أجر ؟ فدعا موتسارت زوجته وأطلعها على مضمون الخطاب فأشارت عليه بالقبول . وعندئذ كتب موتسارت رداً يلبي

فيه رغبة صاحب الخطاب المجهول ، ويحدد أجره ، ولكنه اعتذر عن تحديد الموعد الذى ينتهى فيه عمله ، واستفسر عن العنوان الذى يستطيع أن يرسل به اللحن المطلوب عند الفراغ منه . فعاد الزائر بعد أيام قلائل ودفع نصف الأجر الذى قدره موتسارت قائلا إن النصف الثاني سيدفع مع هدية قيمة حين يتم اللحن . وقبل أن ينصرف الزائر نصح للموسيقى الكبير ألا يضيع جهده عبثا فى محاولة الوقوف على اسم صاحب الخطاب !

ولم يكد موتسارت يمضى فى وضع اللحن حتى اضطر الى الانصراف عنه مؤقتا ، إذ طلب اليه فجأة أنه يلحن أوبرا بمناسبة تتويج الامبراطور ليوبولد في براغ . وبينا هو وزوجه يركبان عربة السفر الى العاصمة البروسية اذا بالزائر الغريب يظهر ويسأل موتسارت عما فعل باللحن . فيعتذر له ويعد بأن ينصرف الى اتمامه بمجرد عودته . .

وقد قضى موتسارت مدة اقامته فى براغ مريضا لاينقطع عن تناول العقاقير ، فلما آن أوان الرحيل ودع أصدقاءه ومعارفه باكيا ، إذ كان يحس احساسا غريبا بأنه يتزود منهم ويتزودون منه بالنظرة الأخيرة !

وعاد موتسارت الى فيينا فعكف على وضع اللحن الحزين وقد استولت عليه حال من الكآبة أقضت مضجع زوجه وأقلقت أصدقاءه وكان قد وقع تحت تأثير اعتقاد غريب . هو أن خصومه جرعوه السم ، وبهذا صارح زوجه يوما ، إذ فاجأها يوما بالحديث عن الموت واقتراب أجله ، قائلا إنه لا يكتب اللحن الحزين للزائر الغريب ، ولكنه يكتبه لنفسه ! فلما حاولت صرفه عن هذه الافكار السوداء أجابها بقوله :

— لا . لا . انى أشد ما يمكن اقتناعا بأننى لن أعيش طويلا . لقد سمونى بغير شك . وليس فى الامكان أن أتخلص من هذا الاعتقاد !

ازاء هـذا الأثر النفسى السىء الذى أثاره تأليف اللحن المشئوم حالت زوج موتسارت بينه وبين المضى فى تأليفه ، حتى اذا استرد مرحه قليلا ألح فى أن يتمه ، ولكنه لم يكد يستأنف تأليفه حتى عاوده المرض واشتدت وطأته عليه ، ولم يفارق هـذا اللحن ذهنه حتى فى النزع الأخير . إذ طلب الى أصدقائه المحيطين بسريره أن يغنوه إياه ، وقد كانت آخر كلماته لأخت زوجته : « لقد صنعت خيراً بحضورك . فيجب أن

تبقى هنا الليلة لتشهديني أموت ! » فلما حاولت صرفه عن هذا التفكير أجابها : « ان طعم الموت على لسانى فعلا »

ـــ انى أذوق الموت !

وفى هذه الليلة ٥ ديسمبر سنة ١٧٩١ ألقى نظرته الأخيرة على اللحن الحزين ثم قال وهو يطبق جفونه على دموعه المترقرقة فى عينيه :

ـــ ألم اقل لكم انى كنت أكتب هذا لنفسى ؟ !

ودفن موتسارت فى احدى مقابر فيينا كما يدفن أى مخلوق عادى . فلما أريد إقامة نصب له بعد عشرين سنة لم يستطع أحد أن يدل على رفاته ! !

توماس تشاترتون

شهيد الانفة وصريع الفاقة

«ليس من الشعراء الانجليز من يرتفع الى مستوى تشاترتون فى سن السادسة عشرة»
هكذا وصف الشاعر الانجليزى كامبل نبوغ توماس تشاترتون الشاعر الذى ضاق ذرعا بجحود الناس وريائهم، فآثر أن يموت كريما على أن يصانع الظروف ويطمئن الى البؤس الذى كاد يصل به الى حد التسول وقبول احسان المحسنين عليه بالطعام!

آثر أن ينتحر قبل أن يتم عامه الثامن عشر، فتجرع السم وهو على عتبة الحياة. وفارق الدنيا ناشئا يكاد ينطبق عليه قول شوقى رحمه الله:

ناشىء فى الورد من أيامه حسبه الله، أبالورد عثر؟

ولكن تشاترتون لم يعثر بالورد، وانما أثخنته أشواك الحياة بالجراح، فثارت به حميته، وأخذته الغيرة على كرامته، وتناول كأس الموت تخلصا من كأس الهوان

***

ولد توماس تشاترتون فى برستول بانجلترا فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٧٥٢. وكان أبوه ويدعى توماس أيضا، مغنيا فى فرقة كاتدرائية برستول ومدرسا فى احدى المدارس الحرة بالمدينة. وكان شديد الولع بالاطلاع والموسيقى، ويقتنى مجموعة قيمة من العملة الرومانية. ثم كان الى هذا كله يعتقد بالسحر ويتعمق فى دراسته مستعينا بمؤلفات كورنيليوس أجريبا. ولكنه رغم ثقافته التى حصلها بنفسه وارتفع بها عن المستوى الذى نشأ منه ـ فقد كان أبوه وأجداده منذ مائة سنة ـ يعملون فى فرقة سان مارى ريد كليف ـ رغم تلك الثقافة كان توماس، الأب، معروفا بالغلظة كما كان معروفا بشدة كبريائه واعتداده بنفسه

وقد مات الأب قبل مولد طفله باشهر ثلاثة. ولعله لو عاش لزوده من اعتداده

بنفسه واعتماده عليها ، ما كان محتملا أن ينقذه من المحنة التى ضل فى ظلماتها فأجهز على حياته فى نوبة من نوبات اليأس والاضطراب

أما والدة الشاعر فكانت رقيقة الطباع وان لم تخل تصرفاتها من مظاهر الطيش والحماقة . ولكن أعظم ما يؤثر عنها شدة اخلاصها وعنايتها بطفليها توماس الشاعر ومارى التى كانت تكبر أخاها بعامين ، وقد ورثت هذه الابنة عن أمها شخصيتها التى لا تكاد تتميز بطابع سائد خاص

أما توماس فقد كان دائما ذا شخصية واضحة اللون مرسومة المعالم ، وان يكن فى سنيه الخمس الأولى قد ظهر فى مظهر لا يسر ولا يبشر بمستقبل تتجلى فيه طوالع النبوغ التى يلمسها كل من تذوق قصائده ومحاولاته الأدبية منذ بلغ الثامنة الى أن طوى بيده صفحة حياته فى الشهر التاسع من عامه الثامن عشر

كان توماس فى أعوام طفولته الأولى شديد الكآبة والغباء لا يحسن تلاوة الحروف الهجائية فى الرابعة من عمره . وقد بلغ من شدة غبائه اذ ذاك ان المدرسة التى كان أبوه مدرسا فيها فصلته وهو فى سن الخامسة لأنه لا يصلح للاستمرار فى عداد تلامذتها ولأن كل جهد لتعليمه انما هو ضائع لا يمكن أن يثمر !

وقد ظل الطفل الى سن السادسة والنصف فريسة نوبات طويلة من شرود الذهن والبكاء لغير ما سبب ظاهر ، حتى خشيت أمه وجدته على عقله واعتقدتا أنه (أبله تماما) وقد روت أخته أنه فى هذه السن كان يبدى ميلا واضحا الى حب السيطرة والرياسة ، فيجعل من نفسه سيداً على رفاقه فى اللعب ويتمثلهم خدامه المأجورين ! وهى ظاهرة لا تنفى عنه صفة البلادة بل البلاهة التى كانت امه وجدته تلحظانها عليه

* * *

على أن العام الثامن من حياة توماس كان عام الفصل بين ماضيه البليد ومستقبله الموسوم بالذكاء والنشاط رغم خاتمته الفاشلة العاجلة . ففى سن السابعة والنصف تبددت عقيدة الأم فى ولدها ، ولم تعد تندب الحظ المنكود الذى رماها بطفل معتوه . فسرعان ما تعلم الطفل القراءة فى نسخة ضخمة الحروف من الانجيل ـ اذ كان من أظهر مالوحظ عليه انه يبغض المطالعة فى الكتب الدقيقة الحروف الصغيرة الأحجام

ولم تنقض فترة وجيزة على ذلك حتى بدت على الصبى مظاهر الشغف الشديد بمطالعة كل كتاب فى متناول يده ، لا يقتصر فى ذلك على فرع من فروع المعرفة دون آخر ،

فكان يلتهم ما يجد من الكتب التهاما سواء أكانت فى الفروسية أم التاريخ أم الفلك أم اللاهوت أم غيرها من الموضوعات التى يعزف عنها عادة معظم لداته من الصغار ـ بل لا يستسيغها أحيانا كثير من الكبار

كان توماس تشاترتون فى الثامنة مكبا على المطالعة الى حد (الادمان) فهو يستقبل النهار ويودعه مشغولا عن كل شىء الا الكتب . وقد تحركت فى نفسه إذ ذاك روح الأمل فى أن يرقى فى المستقبل قمة الشهرة بما وراءها من غنى وفير . فكان يتحدث فى هذا الى أمه وجدته ، ويعللهما بالأمانى ، ويعدها وعد الحاذق بطبيعة المرأة ، ويقول انه حين يصيب من الغنى ما ينتظره سيغدق عليهما « وافراً من ثمين الحلل » جزاء لهما على ما توليانه من عناية ورعاية

ولما بلغ الطفل التاسعة ألحق بمدرسة (مستشفى كولستون) وهى مدرسة اقليمية يلزم تلامذتها بارتداء المعطف الأزرق ولايكادون يتلقون أكثر من العلوم المعروفة عند الانجليز (بالراءات الثلاث) لأن اسماءهابالانجليزية تبدأ بحرف الراء وهىالقراءة والكتابة والحساب باعتبارها أساس التعليم الاولى . وطبيعى أن يشكو توماس من بقائه بمثل هذه المدرسة التى لا يجد فيها ما يشبع نهمه العلمى وأن يطلب الانقطاع عنها مؤكدا أنه فى المنزل أقدر على الدرس والاطلاع

وفي هذه السن على الأرجح وقعت الحكاية المشهورة بين تشاترتون والخزاف الذى أعجب بذكاء الصبى فوعد بأن يهدى اليه وعاء من الخزف دقيق الصنع منقوشا عليه « تومى تشاترتون » أو « وعاء تومى » أو ما يشاء الصبى الذكى من نقوش . وعندها التفت توماس الى الخزاف الكريم وقال له :

— ارسم لى على الوعاء ملاكا ذا جناحين وفى يده بوق يذيع به اسمى فى أنحاء العالم ! !

وفى سن العاشرة أبدى توماس تقدما كبيراً فى علم الحساب ، وبلغ من شغفه بالميكانيكا أن كان يفتش عن المختل من أدوات المنزل ليتولى اصلاحه . وهى ظاهرة اذا لم تمت الى الادب والشعر بسبب فهى دليل الصفاء الذهنى وتغلب روح الجد والعمل الدائب على كل حال

كان تشاترتون ، مثل كيتس ، مشغوفا بالقراءة حتى فى ساعات لهوه بالمدرسة . وكان يتخذ لنفسه غرفة صغيرة فى أعلى البيت يأوى اليها للمطالعة والكتابة ويعكف على

رسم صور الفرسان والكنائس والشارات العائلية مستعينا بالأصابع الملونة والفحم والرصاص الاسود ، وما زال كثير من هذه الرسوم محفوظا فى المتحف البريطانى . وفى هذه الغرفة كذلك كان تشاترتون يحتفظ بمحفوظات ذات تاريخ عجيب

فقد كان فى قاعة الوثائق بكنيسة سانت مارى ردكليف ، التى كان أسلاف تشاترتون يعملون فى فرقتها الموسيقية ، ستة صناديق أو سبعة من البلوط ، بينها صندوق يمتاز عن سائر الصناديق بضخامته ووفرة ما يحمل من أقفال متينة لايقل عددها عن ستة . وكان يطلق عليه (صندوق كانينج) نسبة الى وليم كانينج الصغير الذى يقترن اسمه بانشاء هذه الكنيسة واتمام بنائها . وكانت هذه الصناديق تحوى وثائق وأوراقا خاصة بشئون الكنيسة . وقد حدث قبل مولد تشاترتون بسنوات أن رأت الهيئة المعينة لادارة شئون الكنيسة فحص تلك الوثائق ، وبعضها قديم قدم الكنيسة نفسها وكانت المفاتيح قد ضاعت بتقادم الزمن فكسر الفاحصون الاقفال ونقلوا الصناديق التى قدروا أهميتها الى مكان آخر تاركين سائر الصناديق وبينها (صندوق كانينج) شاغرة فى مكانها وفيها معظم ما كانت تحوى من وثائق وأوراق . ومن هذه الوثائق كان والد تشاترتون يحمل الى منزله من يوم الى آخر مجموعة تحت إبطه ، ليستعين هو بها فى تجليد بعض كتبه وتستعين زوجته بها فى نقل النماذج لتطريز الملابس !

ومات والد تشاترتون فانتقلت أمه الى منزل آخر ، وحملت معها ما كان قد بقى من الوثائق والأوراق العتيقة . ومن هذه المخطوطات تكونت ذخيرة أفادت الصبى الذى تعلم القراءة من الكتب الضخمة ذات الحروف الكبيرة السوداء ، والذى نشر فى السنوات القلائل التالية عدة قصائد حسب كثيرون حتى من مشاهير الباحثين المدققين انها من وضع شاعر فى القرن الخامس عشر . ولا شك أن تشاترتون استغل القطع البيضاء من هذه الاوراق القديمة لكتابة العدد القليل من الوثائق التى كان يعرضها فيما بعد مدعيا أنها بعض أصول القصائد التى عزاها الى قسيس فى القرن الخامس عشر يدعى توماس راولى Thomas Rowley

وقد روى ثيسلتويت وهو من الاصدقاء القلائل الذين كان يصطفيهم توماس تشاترتون فى المدرسة ـ روى ثيسلتويت فيما بعد أن توماس اخبره فى صيف سنة ١٧٦٤ ان لديه مخطوطات قديمة كانت مختزنة فى صندوق بكنيسة ردكليف وأنه أعار بعضها أو احدها صديقا من اعز اصدقاء تشاترتون هو توماس فيلبس زميله فى

مدرسة كولستون . ويقول ثيسلتويت فى خطاب منه الى القس ميلز حول هذا الموضوع :

« قابلت فيلبس . . فأطلعنى على مخطوط مكتوب على رق من الجلد ، وانا واثق ان هذا المخطوط هو (الينور وجوجا) Elenoure and Juga وهى قصيدة على غرار الشعر اليونانى القديم نشرت بعد ذلك فى مايو سنة ١٧٦٩ (بمجلة المدينة والريف) ، وقد بدت الوثيقة مشرشرة الاطراف . ولست ادرى لماذا وكيف وقع ذلك .. اما الخط فقد كان حائلا مصفراً بفعل الزمن كما يبدو لى جليا »

كانت هذه القصيدة بداية الاسطورة التى حبك اطرافها الغلام الشاعر الطموح ، وهى اسطورة عثوره على قصائد من تأليف توماس راولى قسيس كنيسة سانت جون فى برستول وأخرى من تأليف وليم كانينج الذى طالما اغدق الهبات على هذه الكنيسة وانتخب عدة مرات محافظا للمدينة ، أو من تأليف سير ثيبوت جورج الذى ينحدر من عائلة عريقة يمتاز افرادها بالذوق الادبى . وعثوره ايضا على روايات تمثيلية من تأليفهم كاملة او منقوصة ، وملحمة سكسونية مترجمة ، ومقطوعات فى وصف الآثار المعمارية واغان وخطابات منظومة ومنثورة . ونحو ذلك من المقطوعات الأدبية التى خلفها تشاترتون قبل ان يبلغ عامه السادس عشر ولم يجد وسيلة يسترعى بها انظار القراء والدوائر الأدبية والصحفية خيراً من ان يسبغ ثياب اللغة العتيقة عليها وينسبها الى شخصيات تاريخية من قساوسة القرن الخامس عشر

ولعل الذى شجع تشاترتون على سلوك هذا السبيل لبلوغ الشهرة ولفت الانظار اليه ، ما كان يسود العصر الذى عاش فيه من جهل وبعد عن الاستقصاء والتعمق ، وما كان شائعاً من التسليم بالقضايا دون بحثها وتمحيصها والقاء الشكوك عليها حتى تستبين صحتها بما لا يدع مجالا للشك . يضاف الى ذلك كله ان البيئة التى نشأ فيها توماس كانت أبعد ما تكون عن أن توصف بالذكاء والاستنارة . فكان يكفى توماس أن يؤلف قصيدة من الشعر ويكتبها بنفسه على قطع من الرق ، ويذهب بها الى صديقه برجام ، وكاتكت ، وهما من باعة الأوانى البسطاء الذين لايعلمون شيئاًمن الأدب والتاريخ بل لا يعلمون من حوادث اليوم ، أكثر مما يعلم أشباههم عندنا من البدالين فى القرى ، إذ يعقدون فى حوانيتهم حلقات يتبادلون فيها أحاديث سطحية مليئة بالخلط فى الأدب والسياسة وحوادث العصر

كان يكفى تشاترتون أن يؤلف بنفسه قصيدة مكتوبة على طريقة الهجاء القديم ، ويذهب الى هذين الصديقين البسيطين يتلوها ، فاذا خدعته تجوز عليهما واذا هما يذيعان بين معارفهما نبأ الكشف الأدبى الذى وفق اليه الصبى (الشقى) !

وكان هنرى برجام يمتهن بيع الأوانى خلفا لسلف : ورثها تجارة عن أبيه وورثها أبوه عن جده كما ورثها جده عن أسلافه الأقدمين . وكان غارقا فى السوقية الى ذقنه شأن أمثاله ممن لم يرتفع بهم علم ولا هذبتهم بيئة راقية . ولكنه كان كملايين البشر فى أنحاء العالم ، بل كالبشر أجمعين ، حريصا على أن يحسبه الناس صاحب تعليم وثقافة . . وصاحب حسب رفيع ! وقد فطن توماس الى هذه النقطة البادية الضعف فى نفس برجام فعمد الى استغلالها على نحو ينفعهما معا ! فقد انقطع أياما فى بيته ثم ذهب لزيارة برجام وزميله فى دكانهما وتحت ابطه مخطوط كبير يحمل طابع البلى ، ثم نشره بين يدى الرجلين ليفهما ما وصل اليه من كشف خطير . فاذا على رأس المخطوط بحروف غلاظ : « سيرة عائلة آل دى برجام ، من الفتح النورماندى الى الوقت الحاضر ، كما استخلصها من السجلات الأصلية ، وملفات الفروسية ، وسجلات السفراء وحملة ربطة الساق - ت . تشاترتون » !

ويلى ذلك سلسلة محكمة الحلقات ترجع بعائلة الحسيب النسيب بائع الصفيح والقصدير الى فارس مغوار يدعى « سيمون دى سينكت ليزيه المعروف باسم سنليز »

وفى شجرة الأنساب العتيدة التى اعتكف الصبى ليحبكها فى منزله ، أن ذلك الفارس الصنديد دخل انجلترا مع وليم الفاتح ، وتزوج ابنة الزعيم السكسونى والشيوف وآل الى ملكيته بعدئذ قصر برجام فى نور ثمبرلند بين ما آل اليه من أملاك ، ثم أنعم عليه بلقب (إيرل نور ثمبتن) ! !

فماذا كان وقع هذه المفاجأة فى نفس برجام ؟

عقد الفرح لسانه فظل يرجع البصر مرات الى شجرة الانساب السحرية التى حققت أحلامه ، وأشبعت غروره ، ونقلته فى طرفة عين من عالم الضعة وهوان الشأن ، الى عالم الحسب والرفعة والمجد الأثيل !

فلما انقضت لحظات الدهشة ، وهدأت نفس البائع (النبيل) المغتبط ، دس فى يد الصبى شلنات خمسة لقاء جهده الموفق الدقيق !

ومضى الصبى فرحا بنجاح خدعته البريئة ، ولعله كان أشد فرحا بوسوسة الشلنات الخمسة فى جيبه !

أما ثانى البائعين الشريكين اللذين كانا من أخلص الاصدقاء وأوثقهم صلة بتشاترتون إذ يطالعهم بأشعاره المنحولة فلا يشكون فيما لها من قيمة تاريخية ـ فهو كاتكت الذى رسم له بوزويل (المؤرخ المشهور بترجمتـه الخالدة للناقد الأدبى العظيم الدكتور جونسون وعصره) صورة تدل على مبلغ بساطته وشدة سذاجته . فقد روى المؤرخ انه زار برستول مع الدكتور جونسون سنة ١٧٧٦ ، أى بعـد انتحار تشاترتون بست سنوات وبعد ان بدأ الجدل الذى لم ينته الا فى العصر الحديث حول حقيقة شعر تشاترتون وهل كان من نسج خيـاله هو ، أو أنه كان كما زعم توماس من تأليف قسيس يدعى توماس راولى عاش فى القرن الخامس عشر . وفى برستول لقيهما كاتكت وألح عليهما فى زيارة كنيسة ردكليف ليريهما (صندوق راولى) الذى ذاعت شهرته بذيوع كارثة تشاترتون . فلما بلغ الثلاثة الطابق الأعلى ، حيث قاعة الوثائق ، صاح كاتكت فى سذاجة نادرة بلهجة المنتصر الظافر : « انى سأحول الدكتور جونسون عن رأيه ! » وكان الدكتور جونسون ممن يقولون بأن ذلك الشعر لا يرجع عهده الى القرن الخامس عشر انما هو من تأليف تشاترتون نفسه . ثم أشار كاتكت الى « الصندوق المدهش » وصاح بلهجة المطمئن الواثق مرة أخرى :

ـــ ها هو ذا الصندوق بعينه !

ويعقب بوزيل على ذلك قائلا فى تهكمه المأثور انه بعد هذه المعاينة النظرية لم يعد فى القول زيادة لمستزيد !

لمثل هـذين كان تشاترتون ينشد قصائده فيحسبانها حقيقة من تأليف شاعر كان يعيش قبل عصرهما بنحو ثلاثة قرون . وكان من زمرة الذين يستمعون الى تشاترتون فى أغلب الاحيان ثالث يدعى مستر باريت وهو جراح كان مشغولا بجمع الوثائق والاسانيد لوضع مؤلف تاريخى عن برستول ، وقد ظهر هذا المؤلف بعد مصرع الصبى الشاعر فاذا هو يحتوى كثيراً من الموضوعات بلغة (راولى) الفريدة ، وقد نشرها الرجل معتقداً أن تشاترتون لم يفعل أكثر من ان قدم اليه هذه الموضوعات من صندوق راولى الذى نقل من الـكنيسة على النحو الذى ذكرنا من قبل

وكان من زمرة أصدقاء تشاترتون أيضا بيكر رفيقه فى مدرسة كولستون ، وكان

توماس يقرض له قصائد غرام موجهة الى فتاة أحبها بيكر تدعى مس هويلاند ، على مثال ما كان سيرانودى برجراك يقرض الشعر الغرامى لـكريستيان دى نيفليت فيبعث به هذا الى حبيبته روكسان ! وكان بيكر من الاصدقاء القليلين الذين فى سن توماس أو اكبر بقليل ، أما برجام وكاتكت ، والقس ألكسندر كاتكت شقيق بائع الأوانى ، وبالمر الرسام ، وغيرهم فقد كانوا من الـكهول الذين استهواهم ذكاء الصبي ، وكان تشاترتون يعتمد على معونتهم فى اسـتعارة ما عسى أن يكون لدى بعضهم من كتب ، الى جانب الشلنات التى كان يظفر بها أحيانا منهم

***

فى يوليو سنة ١٧٦٥ ، عند ما كان توماس فى نحو الثالثة عشرة من عمره ، ألحقته ادارة مدرســة كولستون بمكتب محام فى برستول يدعى جون لامبرت ، وقد اختار توماس نفسه أن يتمرن على هذه المهنة ، ولـكنه لم يلبث ان ضاق ذرعا بهذه الحياة الجديدة ، فقد رؤى أن يقيم توماس فى بيت لامبرت ، فما كان من هذا إلا ان اضطر الصبي الشاعر الى مشاركة أحد الخدم غرفة نومه وتناول طعامه فى المطبخ ! ثم كان لامبرت اذا عثر على قصيدة مما يكتب توماس مزقها معلنا سخريته وتبرمه بمـا يشغل الصبي به نفسه مما لا يمت الى المهنة بسبب ! على أن لامبرت لم يدع يوما أن تلميذه كان نزوعا الى العبث واهمال مهنته ، فقد كان يرسل خادمه من وقت لآخر متجسسا على الصبى فيجده دائما عاكفا على مكتبه . وما زال من محفوظات المتحف البريطانى الى اليوم نحو ثلثمائة وسبعين صفحة نسخها تشاترتون بخطه عن سجلات السوابق القضائية التى هى عماد القانون الانجليزى « غير المـكتوب » . وكان توماس بلا شك فى أوقات فراغه بالمـكتب يقرض الشعر على طريقة راولى التى لم تنكشف حقيقتها إلا فى العصر الحديث

وقد ظل أمر قصائد راولى معروفا فى دائرة ضيقة ، حتى وقع فى سبتمبر سنة ١٧٦٨ حادث على جانب غير قليل من الأهمية فى مدينة برستول . وهو الاحتفال الرسمى بافتتاح جسر جديد على نهر ايفون ليحل محل جسر قديم يرجع العهد بانشائه الى عهد هنرى الثانى . وبينما الناس فى مجالسهم يتحدثون عن الاحتفال الرسمى بافتتاح الجسر الجديد انسل توماس فى سكون الى حيث قابل رئيس تحرير (جريدة فلـكس فارلى) التى كانت تصــدر فى برستول إذ ذاك ، ودفع اليه قصيدة غريبة الهجاء ، تتخلل أبياتها كلمات غير مألوفة ، وان تكن القصيدة على وجه عام سهلة الفهم جميلة الوقع فى نفس القارىء ، وهكذا كان

شأن قصائد راولى التى أشرنا الى حقيقتها غير مرة . وكان موضوع القصيدة وصف الرهبان يعبرون الجسر القديم (ولعلها كانت العادة اذ ذاك فى افتتاح الجسور) نقلا عن مخطوط أثرى . ولم يطلب توماس ثمنا لهذه القصيدة ، ولكنه دفع بها الى رئيس التحرير لينشرها بلا ثمن. وهو أمر لا يبدو غريبا اذا ذكرنا أن توماس لم يكن حينئذ سوى صبى ناشىء لم يصب من الشهرة حظا قل أو كثر . ولم تكد هذه القصيدة تظهر حتى أثارت لغطا واهتماما شديداً بين هواة المخطوطات فى برستول ، وعددهم اذ ذاك غير يسير . فأخذوا يتساءلون عن مصدر هذه الوثيقة الخطية ، وهل وجدت وحدها أو كان معها وثائق أخرى من قبيلها ، وكيف السبيل الى مشاهدة هذه الوثائق والمساومة على شرائها ؟.. الى آخر هذه الأسئلة التى لم تنقطع الا باهتدائهم الى أن الشاب المجهول الذى سلم القصيدة الى رئيس تحرير الجريدة هو توماس تشاترتون (صبي المحامى)

وهنا تتجلى بأتم وضوح تلك الظاهرة التى استغلها تشاترتون لاثارة اهتمام الناس بأمره حتى كاد يفلح لولا الظروف التعسة التى انتهت بفاجعة انتحاره . والظاهرة التى نعنى هى السرعة العجيبة فى تصديق ما يلقى من قول أو تعليل ، دون عناية بتمحيص هذا الذى يلقى والتروى فى تصديقه حتى ينهض من الأدلة ما يدعو الى اليقين . ومن الغريب أن المتعلمين أنفسهم كانوا يستوون فى هذا المظهر مع غير المتعلمين !

ذهب جامعو الوثائق والمخطوطات الى تشاترتون يسألونه كيف عثر على الوثيقة التى نقل منها قصيدة الجسر القديم . فأبى أول الأمر أن يجيب . ثم أجاب قائلا إنه عثر على القصيدة بينما كان ينسخ لأحد الناس مخطوطات قديمة إذ كان قد نظم لهذا الرجل قصائد غزلية يبعث بها الى حبيبته ، فأراد أن يكافئه بأن يكلفه نقل تلك المخطوطات لقاء أجر معلوم ، وهذه كما يرى القارىء قصة (مطبوخة) أساسها ما أشرنا اليه فى الصفحات السابقة من أن تشاترتون كان ينظم لصديقه بيكر قصائد يبعث بها هذا الى حبيبته مس هويلاند . فلما لم يقتنع السائلون بهذه الاجابة صارحهم آخر الأمر بانه نقل القصيدة من مخطوط كان والده قد أخذه من صندوق راولى !

عندئذ آمن الباحثون (المدققون !) واطمأنوا . وان يكن أحدهم على ما يظهر ألح على توماس بأن يريه ذلك المخطوط . فقد روى صديقه ردهول Rudhall الكيميائى أن توماس ، على خلاف تكتمه المأثور ، زاره حينئذ واستحلفه ألا يذيع شيئا مما يرى . ثم تناول قطعة من الرق فى نحو نصف (الفولسكاب) ، وكتب عليها بحروف لم يفهمها

ردهول لأنها كما قال (كانت تختلف تماما عن الحروف الانجليزية) ، ثم تناول توماس قطعة الرق وعرض الكتابة التي عليها لحرارة القنديل حتى يعطيها مظهر القدم وهو ما حدث بالفعل إذ تغير لون المداد وبدت قطعة الرق مسودة حائلة . وقد حفظ ردهول هذا السر الى ما بعد وفاة تشاترتون بسنوات ، حتى اضطر فى سنة ١٧٧٩ الى ان يبيع قطعة الرق بعشرة جنيهات مساعدة لأم الشاعر المنكود الحظ ، وكان الفقر قد أناخ عليها وأصبحت فى عوز شديد

ولكن أعجب ما فى هذه القصة كلها أن توماس بعد ان خرج على تكتمه لم يطلع احداً على هذه (الوثيقة) المصنوعة ، فبقيت الى ان مات محفوظة عند صديقه ردهول !

على أن تشاترتون لم يقصر جهده على اذاعة القصائد التى كان يعزوها الى راولى ، بل كانت له قصائد ومقالات نشرت باسمه الصريح فى (مجلة المدينة والريف) ، فلم يأت عام ١٧٦٩ حتى كان توماس من الكتاب الذين يوافون هذه المجلة بآثارهم القلمية دون انقطاع ، وفى ديسمبر من هذا العام كتب الى الناشر المشهور دودزلى يقول ان فى استطاعته « الوصول الى مخطوطات تحتوى قصائد قديمة ومقطوعة تمثيلية ، لعلها أقدم ما عرف من الشعر التمثيلى الى ذلك الوقت ، وكلها من تأليف رجل يدعى راولى كان قسيسا فى برستول على أيام هنرى السادس وإدوار الرابع . . » ثم يقول إنه على استعداد لموافاة مستر دودزلى بنسخ من هذه القصائد اذا هو أبدى ميلا الى ذلك .

ولكن الناشر المشهور لم يكلف نفسه مؤونة الرد على هذا الخطاب ، فعاد توماس بعد انتظار شهرين وأرسل الى الناشر خطابا آخر أرفق به فقرة من القصة الشعرية (إيللا) على سبيل المثال قائلا انه يستطيع الحصول على نسخة من هذه القصة كلها اذا دفع جنيها واحدا الى الشخص الذى في حيازته الأصل المخطوط . ولكن دودزلى للمرة الثانية لم يجد حافزا من الانصاف أو أدب المعاملة يدفعه الى الرد على هذا الخطاب

عندئذ حول توماس نظره نحو غرض أبعد فى الجرأة وأدخل فى معنى الاقدام

فقد كان اسم هوريس ولبول Horace Walpole إذ ذاك من أشهر الأسماء وأبرزها فى مجامع الأدب الانجليزى ـ وكان ولبول من (هواة) الأدب بكل ما فى هذه الكلمة من معنى . فقد كان من سراة الانجليز الذين لا يعوزهم من أسباب الترف شيء ، فمال الى الأدب والأدباء ميل السراة الذين يتلمسون ألوان اللهو والتسلية ، لا يعنيه التعمق والجد فى ميدان الادب بقدر ما يعنيه (الظهور) فى زمرة الأدباء وتشجيع ذوى الفاقة

منهم ، وكان ولبول شديد الولع باقتناء المخطوطات التاريخية وجمع الطرائف ذات القيمة الادبية . ويؤثر عنه حادث لعله كان من الاسباب التى شجعت الشاعر الصبى على طرق بابه وإدخال خديعته البريئة عليه . فقد نشر ولبول كتابه « قصر أوترانتو » قبل سنوات ثلاث من العام الذى نحن بصدده ، وهو عام ١٧٦٩ ، ولكنه قال ان الكتاب مترجم عن مخطوط ايطالي يرجع عهده الى القرون الوسطى تماما ، كما كان يدعى شاعر برستول الصبى أن القصائد التى ينشرها منقولة من مخطوطات يرجع عهدها الى القرون الوسطى ، مع فارق وحيد ، هو أن مؤلفها المزعوم كان قسيسا يدعى راولى ! ولكن ولبول صرح بحقيقة ما فعل فى الطبعة الثانية من كتابه ، فثارت عليه حملة سنرى كيف كانت عاملا غير مباشر فى تضييق أفق الحياة أمام الشاعر الناشىء

ذلك ان تشاترتون لم يكد يفقد الأمل فى إثارة اهتمام دودزلى بأمره ، حتى اتجه الى ولبول يستثير اهتمامه بنفس الخديعة التى لم ير الأديب الموسر بأسا من أن يثير بها اهتمام الدوائر الأدبية قبل سنوات ثلاث . فكتب اليه خطابا موجزاً طواه على بعض قصائد من نظم جون أ . إيسكام John à Iscam ورسالة خطية عن « نهضة فن التصوير فى انجلترا مكتوبة بقلم ت . راولى سنة ١٤٦٩ للسيد كانينج » ولكى تتكون لدى القارىء فكرة بسيطة عن أسلوب هذه الرسالة نثبت العنوان بنصه ، وهو كما يرى مكتوب بهجاء يخالف الهجاء الانجليزى الحديث ويشابه طريقة الهجاء التى كانت شائعة فى القرون الوسطى . وها هو العنوان :

Ryse of Peyncteyíng yn Englande wroten by T. Rowlie 1469 for Mastre Canynge

وقد قال تشاترتون فى خطابه انه يبعث بهذه الرسالة لعل مستر ولبول ينتفع بها « فى أية طبعة تظهر بعد ذلك من أحاديثه البديعة حقا عن التصوير ! »

وما كاد ولبول يتلقى هذا الخطاب حتى رد عليه بخطاب جدير بتربيته العالية ، يعتبر من أعظم الخطابات الموسومة بطابع الأدب والكياسة فى اللغة الانجليزية . والخطاب مؤرخ ٢٨ مارس سنة ١٧٦٩ . وهو يبدأ هكذا :

« سيدى ـ حين طالعت خطابكم المدهش الرقيق الذى تسلمته هذه اللحظة ، لم يسعنى الا أن أعد نفسى مدينا بأعظم الفضل لسيد (جنتلمان) لم أسعد بمعرفته بعد . فأقدم لك ألف شكر على ذلك الخطاب ، وعلى ما تفضلت فعرضت من موافاتى بالمخطوط الذي لديك . وان الذى بعثت إلى بالفعل لثمين وملىء بطريف المعلومات ، ولست استطيع

أن أصوب لك خطأ ، بل أنت يا سيدى أشد قدرة على أن تردنى الى الصواب فاننى لم أسعد بالمقدرة على فهم اللغة السكسونية ، ولولاملاحظاتك التى تنم عن علم ، لما استطعت أن أفهم قصيدة راولى » !

وبعد أن يعد ولبول بنشر ما يشاء مراسله ، حين تسنح الفرصه بطبعة ثالثة من كتابه ، يسأله أين مكان قصائد راولى ، ويعلن له شغفه بنشرها أو نشر بعضها على الأقل ثم يحدثه حديث المطمئن الى صدق اكتشافه ، فيسأله فى أى زمن عاش القس جون صاحب الشعر الذى بعث به اليه تشاترتون . فاذا صح أنه كان يعيش قبل أن يكتشف (جون فان إيك) طريقة الرسم بالزيت ، فقد صح بذلك ما أشار اليه ولبول فى أحاديثه من احتمال أن يكون الرسم بالزيت قد عرف فى انجلترا قبل زمن فان إيك بكثير

ولم ينس الموسر الأديب أن يذيل خطابه بهذا الرجاء : « أرجو أن تتفضل بمراسلتى بعنوان مستر ولبول شارع أرلنجتون » !

كانت هذه بداية طيبة ، ولكن النهاية لم تكن بعيدة منها . فقد بعث تشاترتون بخطاب آخر الى ولبول طواه على مجموعة أخرى من النثر والشعر المعزو الى راولى . فاطلع ولبول صديقيه الأديبين الباحثين جراى وميسون على هذه المجموعة ، ولم يلبث هذان أن قطعا بزيف هذه الآثار القلمية وأكدا أنها منحولة ! وعندئذ كتب ولبول الى تشاترتون خطابا شديد اللهجة مليئا بالتقريع والتعريض القارص . ولا عجب فان ولبول لم يكن قد نسى حينئذ ما أصاب سمعته من أذى حين انكشفت الخدعة التى اعترف بها فى الطبعة الثانية من كتابه (قصر أوترنتو) فضلا عن الشعور الطبيعى الذى لا شك أن ولبول أحسه ، وهو شعور الحنق على انسان حاول أن ينتقصه ويعرض سمعته مرة أخرى للمساءة وقدح القادحين

وقد قابل تشاترتون هذه الصدمة بثبات وهدوء ، وبعث الى ولبول مرتين يرجو إعادة المخطوطات اليه ، مؤكدا ثقته فى الوقت عينه بصحة وثائق راولى وبعدها عن الزيف والانتحال . ولكن ولبول لأمر ما لم يرد على أى من الخطابين ، وسافر الى باريس فأقام ستة أسابيع ، وعاد بعدها فوجد خطابا ثالثا يطالب فيه تشاترتون فى حزم واصرار باعادة مخطوطاته اليه . وهنا تناول ولبول الخطابات والوثائق جميعا ثم طواها فى ظرف وأعادها الى تشاترتون دون كلمة أسف أو اعتذار من التأخير . واذا كان من المغالاة أن يقال عن ولبول ما قيل حين انتحر تشاترتون بعد عام من هذا الحادث ، انه هو الذى دفعه

بموقفه هذا الى الانتحار . فلا نحسب من المغالاة فى شىء أن يقال ان موقف ولبول كان على أى حال غير كريم ولا جدير بخلق النبيل الانجليزى الأديب

***

بعد هذا الحادث طرأ على نفسية الشاب الطموح فتور شـديد ، واعتراه انقباض جعله شديد التبرم والسخط بالحياة وصدماتها ، والناس وجحودهم ، بل جعله أكثر من ذلك كثير التفكير فى أسباب الخلاص من هـذه الحياة . فكان يتحدث عن الانتحار حديث المحبذ المقتنع بمبدئه وفكرته . ويروى أنه أخرج من جيبه يوما بمحضر من بعض الاصدقاء مسدسا صوبه الى رأسه وصاح فى حسرة: « آه لو أوتى الانسان فى هذه اللحظة شجاعة تعينه على جذب الزناد ! »

وفى ١٤ ابريل سنة ١٧٧٠ ترك تشاترتون على مكتبه قصاصات من الورق ملأى بالشعر الساحر والنثر اللاذع ، كما وجد بعض هذه القصاصات رجاء بأن يشيد قبر على هندسة القرون الوسطى ليضم رفات أبيه ... ورفاته هو ! وقد لف تشاترتون جانبا من هذه القصاصات وكتب عليها بصيغة رجال القانون : « هذه هى وصيتى الأخيرة، أنا توماس تشاترتون » وفى احدى القصاصات يقرر أن صاحب هذه الوصية سيموت فى مساء اليوم التالى . وعلى الغلاف هذه العبارة : « لقد كتب كل هذا بين الساعة ١١ و ١٢ من يوم السبت فى أشد حالات الاضطراب الذهنى ! »

واذا لم يكن سبيل الى الشك فى أن تشاترتون كان حقا (فى أشد حالات الاضطراب الذهنى) وأنه كان شـديد الضيق بالحياة كثير التفكير فى الخلاص منها بالانتحار ، فانه ليكاد يكون من المحقق أن تشاترتون لم يقصد بترك هذه القصاصات على مكتبه إلا أن تقع فى يد أستاذه المحامى فيبادر من تلقاء نفسه الى الخلاص منه . وهذا ما حدث تماما ، فقد عثر المحامى على هذه اللفافة وفضها ، فراعه ما بها وبادر الى اعفاء الصبى من العمل بمكتبه !

وهنا وجد تشاترتون نفسه حراً يوجه جهوده أنى شاء . ولاح له أن لندن كفيلة بأن تحقق رجاءه فى الشهرة والمجـد والثروة . ولم لا ؟ ألم يكن يوافى بمقالاته أربع صحف أو خمساً من صحف لندن ، انه حقيقة لم يكن يؤجر على هذه المقالات ، ولكن ألم ينل من تشجيع محررى هذه الصحف وتقديرهم ما ييسر له سبيل العمل بأجر زهيد أول الأمر فى واحدة من هذه الصحف على الاقل ؟ !

شد الفتى رحاله الى العاصمة الانجليزية بعد أن استشار والدته فنال موافقتها وزار

أربعة من رؤساء تحرير الصحف فى نفس اليوم الذى هبط فيه المدينة . ولـكنه لم يجد منهم جميعا سوى (التشجيع العظيم) . وقد زاد أحدهم وهو محرر (مجـلة فريهولدر) ان أخبر الفتي فيا بعد أن الناشر والسياسي المشهور ويلـكز قال له ـ أى للمحرر ـ إنه لا يكاد يصدق أن المقالات التى يكتبها تشاترتون بقلم شاب ، وإنه يود التعرف بكاتبها ! ولـكن الأستاذ ماسون فى ترجمته لحياة تشاترتون يصور هـذا الحديث بحق ضربا من الخداع الوضيع للحصول على مقالات لا ينوى أن يدفع لكاتبها أجراً ما

وقد نزل تشاترتون فى لندن أول الأمر عند عمة له تدعى مسز بالانس ، ومن غريب ما يؤثر عن شذوذه حينئذ أنه كان يأبى على أحد ان يكنس غرفته بدعوى أن « الشعراء يكرهون المكانس ! » وكانت عمته تناديه لحداثته باسمه مصغراً فلا تسميه توماس بل (تومى) ، فكان يغضب لذلك ويسأل عمته : « هل سمعت فى حياتك عن شاعر يسمى تومى ؟ »

وبعد أشهر ثلاثة انتقل تشاترتون الى منزل سيدة تدعى مسز اينجل ، تحرجا من أن ينكشف من متاعبه ما قد تنقله عمته الى والدته فى برستول . وكان تشاترتون قد الف رواية غنائية حسنة السبك والصياغة فلم تكد تقبل ، ويؤجرعليها خمسة جنيهات(!) حتى بادر الى ابتياع صندوق من الهدايا بهـذا المبلغ ، وبعث به الى والدته وأخته محققا بذلك املا كان يحلم به منذ بلغ الثامنة من عمره !

بعث الشاب بعد ذلك بقصيدة من ابدع القصائد المنحولة لراولى ، بل هى ابدعها على الاطلاق ، فاذا القدر الساخر يشاء أن ترفض (مجلة المدينة والريف) نشرها . وتلفت الفتى فاذا هو صفر اليدين بعـد كل ما بذل من جهد شاق موصول ، واذا هو يتضور جوعا ولا يكاد يجد ما يسد رمقه ، واذا بؤسه يتجسم حتى تتحرك عاطفة الخير فى نفس صاحبة المنزل فتدعوه الىأن يتناول معها طعامالعشاء ، ولـكن أنفته وعزة نفسه تصوران له أن في عبارات الدعوة للعشاء ما يكاد يشتم منه أنه فى حاجة الى الطعام ، فيرفض هذا التسول حتى على تلك الصورة المستورة !

ان فى استطاعته أن يقترض أجر السفر ويقفل عائدا الى برسـتول . ولـكن بأى وجه يعود وقد خرج منها الى لندن كما يخرج الغزاة للفتح ؟ أفيعود بعد ذلك متعثراً فى أذيال الهزيمة والذلة ؟ انه ليكاد يلمح ابتسامات الشامتين الساخرين اذ ينظرون شزراً الى مواطنهم الذى خرج من بينهم ساخطاً شامخ الانف ، ثم عاد وأنفه فى الرغام ! إنه

ليكاد يسمع رنين الضحكات الهازئة والنكات اللاذعة ، يرسلها برجام وكاتكت وسائر الاصدقاء القدماء حين يعود الى زمرتهم بعد أن غادرهم زاريا عليهم خمولهم موليا وجهه شطر لندن ، حيث النور والمجد وتقدير الجد والنبوغ

كلا ! لن يطيق أن يرى أو يسمع شيئا من هذا كله . لن يكلف نفسه وأمه وأخته احتمال هذ الذل والهوان . انطريق الخلاص قريب ميسور . ألم يطالع مؤلفات كثيرة عن الانتحار وما يبرره ؟ ألم يخرج من مطالعاته بأن الانتحار جائز حين تصبح الحياة عبثا لا سبيل الى احتماله ؟

بهذه الحالة النفسية أوى الصبي المهدم الآمال الى غرفته فى لندن ، فى ٢٤ أغسطس سنة ١٧٧٠ ، وحيدا ، جائعا ، حزينا ، يائسا ، فأوصد الباب وأقبل على (مخطوطاته) فمزقها ونثرها فى أنحاء الغرفة . ثم تناول جرعة من الزرنيخ وضع بها حدا لما جرعته الحياة من أهوال السخرية والجحود والجمود وضائع الجهود

***

ترى هل أخطأ تشاترتون حين أنهى حياته على هذا النحو قبل أن يبلغ عامه الثامن عشر ؟

لقيت أديبا فى الطليعة من مشاهير أدباء مصر المثقفين ، بينما كنت مشغولا باستجماع المراجع لهذا الفصل من الكتاب. فلما جر الحديث الى هذا السؤال ، أجابنى ان الرجل الذى يشعر أن له رسالة فى الحياة يجب أن يصمد لكل العقبات فى سبيل الوصول الى غايته . وإن تشاترتون على هذا القياس كان خليقاً باحتمال ذلة التسول وقبول احسان المحسنين عليه بالطعام الى أن يأتى اليوم الذى يتمكن فيه من اتمام رسالته

ولا أعلق على ما يراه الأديب الكبير إلا بأنه يمثل مذهبا فى الحياة يقابله مذهب آخر يجد له أقوى الانصار والمحبذين . وهو المذهب الذى يتمثل فى قول المتنبى :

ضل من يغبط الذليل بعيش رب عيش أخف منه الحمام !

وليم بت



بالأمس القريب أو في سنة ١٩٣٥ على وجه التحديد ، لم تجد الوزارة البريطانية بدًا من اسناد وزارة الخارجية فيها الى وزير غير وزيرها اذ ذاك سير صموئيل هور ، وذلك لأسباب تتعلق بموقفه ازاء الحرب الايطالية الحبشة . فلم يكد يستبين هذا الاتجاه من ناحية الوزارة البريطانية حتى أخذت الصحف تردد أسماء يرجح أن يختار من بين أصحابها الوزير الجديد ، وفى مقدمة هذه الاسماء اسم الوزير الحالى مستر أنتونى ايدن . ولكن قيل حينئذ إن عقبة كبيرة قد تحول دون اختيار مستر ايدن . ولم تكن تلك العقبة متعلقة بكفاءة الرجل أو مكانته ، بل كانت تتعلق بسنه ، فهو لم يكن اذ ذاك قد جاوز التاسعة والثلاثين من العمر . ولولا ما كان مستر ايدن قد نال من توفيق ظاهر في مهامه السياسية قبيل ذلك الوقت ، ولولا عوامل شتى من تأييد الدوائر ذات النفوذ لترشيحه ، وفى مقدمة هذه الدوائر جريدة التيمس صاحبة الشأن والنفوذ العظيم ـ نقول لولا هذا كله لكان جد محتمل أن يظل الرجل حيث كان ، لمجرد أنه لم يجاوز التاسعة والثلاثين أو هو قد جاوزها بقليل ، ولم تجر التقاليد بأن يلقى عبء الوزارة الخطير على رجل في مثل هذه السن الباكرة

هذا حادث لا نزال نذكره ، وهو غنى عن التعليق فى الدلالة على مبلغ ما للسن من اعتبار فى تقليد الوزارات والترشيح لها . وليس فى ذلك غرابة ، ولكن الغريب حقاً هو أن يستطيع شاب فى الثالثة والعشرين من عمره أن يحطم هـذه العقبة الطبيعية تحطيما ، وأن يتولى وزارة من أخطر الوزرات شأنا فى بلد غنى بالأكفاء والسياسيين الدهاة مثل انجلترا. ثم لايقف طموح هذا الشاب عند ذلك ، بل لا يكاد يتخطى الرابعة

والعشرين من عمره حتى يرقى رياسة الوزارة البريطانية ويستبقى لنفسه مع الرياسة أعباء الوزارة التى شغلها من قبل وهى وزارة المالية ذات المسئوليات الخطيرة !

هذا الشاب هو وليم بت الذى كان فى أواخر سنة ١٧٨٣ رئيسا للوزارة البريطانية ووزيراً للمالية فيها ، أى انه كان يقوم بالمجهود الذى كان يضطلع بعبئه فى سنة ١٩٣٦ مستر بلدوين ومستر نيفيل تشمبرلين معا ، وكلاهما قد جاوز الخمسين بل شارف الستين بينما لم يكن هو قد جاوز الرابعة والعشرين بكثير !

من هو وليم بت هذا وما سر بزوغ نجمه فى هذه السن الباكرة ؟ وفى أى الظروف اختير ؟ وماذا كان مبلغ توفيقه فى الحكم ؟

هذه هى المسائل التى أريد أن أعالجها متوخيا الوضوح بقدر ما يسمح الحيز المقدر لهذا الفصل فى الكتاب

* * *

وليم بت هو أصغر أبناء لورد تشاتام ، الذى كان أعظم سياسى انجليزى فى عصره والذى يرجع اليه الفضل فى انتصار انجلترا فى حرب السنوات السبع ، وكان لورد تشاتام يلقب (بالنائب العظيم) وقد سما بمواهبه وحدها الى قمة المجد والسلطان ، وسجل لنفسه فى التاريخ صفات عالية ورثها عنه ولده وليم بت فكانت أكبر أسلحته فى كفاحه السياسى المجيد . فقد كان لورد تشاتام طلق اللسان، قوى البيان ، نبيل الطلعة ، كريم الخلق ، نقى الصفحة نزيها فى حياته الخاصة والعامة . وكان الى جانب ذلك قاسى الحملات على خصومه، حاداً مريراً فى تهكمه وسخريته . وليس فى هذه الصفات كلها صفة واحدة لم يرثها وليم بت ولم ينتفع بها فى التغلب على العقبات والصعاب الخطيرة التى واجهته فى مستهل حياته السياسية على وجه خاص . وفى هذا ما يفسر قول المؤرخين ان وليم بت كسب (نصف المعركة) بمجرد بنوته للورد تشاتام

وقد نشأ وليم بت فى محيط سياسي قلما أتيح لسواه ، فانه كان عريقا فى المجد السياسى من ناحية أبيه وأمه على السواء . فأمه من عائلة جريفيل التى تكاد تظفر بأكبر نصيب من الصلة بمناصب الوزارة المختلفة . وحسبك دليلا على ذلك أن إخوتها الخمسة ، خؤولة وليم بت ، تولى أحدهم رياسة الوزارة ،وانتخب الآخرون جميعا فى أوقات متفاوتة فى مجلس العموم ، وتولى ثلاثة منهم عضوية المجلس الاستشارى للملك

وكان وليم فى طفولته حاد الذكاء خارق المواهب ، وكان شديد الميل الى

الرياضيات والشئون السياسية . فلا غرو أن تكون حياته العامة فيما بعد قسمة بين الشئون المالية والسياسية

وتروى عن بت فى طفولته نادرة تدل على مبلغ تاصل روح الرجولة والطموح وحب الكفاح فى نفسه فى سن لا يكاد يكون الشغل الشاغل فيها للطفل سوى اللهو وصغائر الأمور . وذلك أن بت حين كان فى السابعة من عمره علم أن والده نال لقب اللوردية ، فما كان منه إلا ان اغتبط أشد الاغتباط ، لا لما نال والده من تشريف وتقدير ، بل لانه هو ليس أكبر اخوته سنا ، فهو بذلك لن يرث لقب اللوردية فى مجلس اللوردات فى مستقبل حياته وانما سيكون حراً من هذا اللقب وسيكون فى قدرته أن يخدم وطنه بين جدران مجلس العموم (مثل بابا) !

أليس صدور مثل هذا التفكير عن طفل فى مثل هذه السن أقرب الى شوارد الخيال ومصنوع الروايات منه الى الحقائق المسرودة على السنة الثقات ؟ !

بلى ، ولكن كل ما حفظ لنا التاريخ عن حياة هذا الشاب الخارق النبوغ لا يجعلنا نصدق ما يروى عنه من غرائب وحسب ، بل يكاد يميل بالطبيعى من تصرفاته الى ناحية الشذوذ ومثار الاستغراب !

حينما كان بت فى الثانية عشرة كان والده يرفعه على كرسى ويدعوه الى الخطابة فى أهم موضوعات اليوم أمام جموع الزائرين والأصدقاء ، وفى الثالثة عشرة ألف الغلام مأساة ذات خمسة فصول كان محورها السياسة والسياسيين ، ويقول اللورد جون رسل فى كتابه عن تشارلز فوكس (الذى كان يكبر بت باعوام عشرة وكان معارضا عنيداً لبت طول حياته) يقول اللورد جون رسل فى كتابه هذا ما يلى :

« روت لى دوقة لينستر حديثا كانت حاضرته جرى بين أختها ليدى كارولين ومستر فوكس (اللورد هولاند والد تشارلز) . إذ ألحت ليدى كارولين باللوم على زوجها لشدة ما يدلل أطفاله وبخاصة تشارلز ، ثم قالت : « لقد كنت صباح اليوم فى زيارة ليدى هستر بت،ورأيت هناك وليم بت ذلك الطفل الصغير الذى لم يبلغ الثامنة بعد ، وانه حقاً لأذكى طفل رأيته فى حياتى ، وقد لاحظت من الشدة فى تربيته والدقة فى سلوكه ما يجعلنى أؤكد لك ــ وأرجو أن تفطن لما أقول ــ أن هذا الغلام سيكون شوكة فى جنب تشارلز طوال حياته »

فهذه الشهادة فضلا عما تحمل من اعجاب شديد بنبوغ بت فى طفولته،تنطوى كذلك

على نبوءة صدقتها الأيام على نحو ما نظن أن ليدى هولاند كانت تقدره . فكأنها حين قالت لزوجها ماقالت كانت تستشف من وراء المستقبل صورة بت يناوىء ولدها ويشتد بينهما الخصام السياسى العنيف الذى استغرق أكثر من عشرين سنة بلا هوادة ولا هدنة !

***

لم يتلق بت تعليمه فى مدرسة ما ، ولكنه تعلم فى بيته على أستاذه الخاص وأبيه العظيم ، فلما أتم عامه الخامس عشر ألحق بجامعة كمبردج حيث درس ست سنوات كان فيها مثال الجد والدأب على التعمق فى آداب اللغة الانجليزية . ويقول ماكولى ان معلوماته في اللغات القديمة والرياضيات كانت أوسع مما لم يكن يستطيع الالمام به إلا القليلون ممن يكبرونه بسنوات ثلاث . وكان مولعا على وجه خاص بدراسة نيوتن ومؤلفاته ، ولم يكن فى الجامعة كلها من هو أبرع منه ولا أسرع فى حل معضلات المسائل الرياضية

ولم يكد بت يبلغ سن الرشد حتى كان يحتل مقعده بين النواب فى مجلس العموم البريطانى !

وفى الثانية والعشرين من عمره ألقى (خطبته العذراء) فى مجلس العموم ، وهى الخطبة التى افتتح بها حياته البرلمانية ، فكانت خير فاتحة وأعظم بشير بما ينتظر هذا الشاب العجيب من مستقبل حافل جليل

كان موضوع تلك الخطبة مشروع الاصلاح الاقتصادى الذى قدمه الى البرلمان النائب العالم الفيلسوف الاقتصادى ادموند بيرك وقد وقف بت يوم تقديم هذا المشروع ، أى فى يوم ٢٦ فبراير سنة ١٧٨١ ، فكان مدافعا بارعا عن المشروع ومؤيداً صادقا له . وقد أطرب بت أعضاء المجلس وبهرهم بما أبدى إذ ذاك من ضبط النفس وطلاقة اللسان وحضور البديهة ونبيل الطلعة والمظهر . وليس أبين فى الدلالة على مبلغ توفيق الخطيب الشاب فى فاتحة خطبه من قول أحد مشاهير الاعضاء المحنكين : « لم يكن فى الخطبة كلمة قيلت أو اشارة أبديت يصح أن تكون محلا للملاحظة أو التصحيح ! »

وقال ادموند بيرك تعليقا على الخطبة نفسها : « ليست هذه العصا من العصية ، ولكنها العصية نفسها ! » يشير بيرك بذلك الى أن وليم بت ليس شبيها بلورد تشاتام وحسب بل صورة كاملة حية لوالده (النائب العظيم)

***

كانت حرب استقلال أمريكا هى الشغل الشاغل للوزارة البريطانية والرأى العام فى

انجلترا عندما دخل وليم بت مجلس العموم . فكان للنائب الشاب موقف فذ ازاء هذه الحرب المستعرة . وذلك أن والده لفظ النفس الأخير وهو يقاوم فكرة استقلال المستعمرات الأمريكية لما فى ذلك من تمزيق الامبراطورية البريطانية . ولكن وليم بت لم يكد يستقر فى مقعده بين النواب حتى أعلنها حملة شعواء على سياسة اخضاع الأمريكيين وإذلالهم ومواصلة الحرب التى لم يجن منها البريطانيون شيئا « سوى سلسلة من تافه الانتصارات أو ساحق الهزائم ـ انتصارات نحييها احتفالا بهزيمة طارئة أنزلناها باخواننا الذين نسعى لسحقهم وتمزيق شملهم ، انتصارات تشيع فى البلاد الأسى على الفجيعة فى أبناء قرابتنا الأعزاء ، أولئك الذين ذبحوا في سبيل غاية دنيئة ترمى الى فرض الذل والعبودية بغير ما قيد ولا شرط ، انتصارات تشيع فى البلاد القصص والروايات عن مجيد الجهود التى يبذلها رجال يقاتلون فى سبيل الحرية المقدسة . . . »

بهذا اللسان الطلق وبهذه اللهجة الحارة الصادقة كان يخطب وليم بت فى الثانية والعشرين من عمره مؤيداً رجال المعارضة الفطاحل : فوكس وأدموند بيرك وشريدان والجنرال كونوى . وقد اشتركوا فى توجيه أعنف الحملات البرلمانيـة وأخطرها على اللورد نورث حتى طوحوا بوزارته بعد ان باءت بخذلان الرأى العام والبرلمان . فلما جاء الأوان لتوزيع الأسلاب والغنائم بين رجال المعارضة ، تنحى وليم بت وأبى أن يقبل الانتظام فى عقد الوزارة التى ألفها لورد روكنجهام ، وكان من أعضائها مستر فوكس ولورد شلبيرن والجنرال كونوى وأسند فيها منصبان الى بيرك وشريدان

فهل أقطع فى اظهار مكانة وليم بت فى هـذه السن الباكرة ، وهل أدل على سمو نفسه واعتزازه بشخصه وثقته بمستقبله وكفاءته من أن تعرض عليه الوزارة وهو لم يبلغ الثالثة والعشرين من عمره ، فلا يهرع الى تقبلها ولا تأخـذه اللهفة عليها ولا يجتذبه بريقها ، بل يعزف عنها ويرفضها حيث كان يتحسر عليها الكهول والشيوخ ؟

على أن الوزارة لم تلبث ان أقبلت على وليم بت وانقادت اليه . فقـد عاجلت المنية لورد روكنجهام فى يوليو سنة ١٧٨٢ فرأس الوزارة من بعده لورد شلبيرن ، وبادر فوكس وأنصاره الأربعة الى الاستقالة من الوزارة ورفضوا أن يرأسهم لورد شلبيرن الذى كان يخالفهم فى سـياسة التسليم المطلق باستقلال أمريكا ، ووقع اختيار شلبيرن على وليم بت ليكون وزيراً للمالية وزعيم الوزارة فى مجلس العموم ، وعمره اذ ذاك ثلاث وعشرون سنة

غير أن وزارة شلبرن لم تكد تعقد معاهدة فرساى وتعترف باستقلال أمريكا حتى وجدت نفسها ازاء أشهر ائتلاف عرف فى تاريخ التعاون الحزبى فى انجلترا . وحسبك أن تعلم أن عنصرى هذا الائتلاف هما الخصمان اللدودان لورد نورث وتشارلز فوكس لتدرك مبلغ الدهشة التى قوبل بها هـذا الائتلاف العجيب الذى دبرته المعارضة لا لشىء سوى كراهيتها الشديدة للورد شلبيرن ، ولغير ما غاية سوى اسقاط وزارته وانتزاع الحكم من يديه. وقد تم للمعارضة ماأرادت فهوت وزارة لوردشلبيرن عن كراسيها ودخل فوكس ونورث وبيرك الوزارة رغم أنف الملك جورج الثالث الذى قال عن ائتلاف المعارضة انه « لا يوجد فى تاريخ هذا الشعب أو أى شعب آخر ائتلاف أقل من هذا الائتلاف استناداً الى المبدأ والعقيدة »

وعاد وليم بت الى مقعده فى مجلس العموم معارضا صارم القول قوى الشكيمة . ولكن الوزارة كانت موفورة الأغلبية منيعة الجانب وعبثا حاول وليم بت أن يحمل أغلبية البرلمان على فصم عرى «زوجية مشئومة الطالع واضحة الشذوذ » ، وعبثا حاول صد الوزارة عن سياسة عقد القروض بأفدح الشروط . ولكنه لم ينثن يوما واحداً عن مواصلة العمل البرلمانى : تارة لاصلاح الدستور ، وتارة لعرقلة المشروعات الوزارية التى يراها خطراً على المصلحة العامة

وكان جورج الثالث من ناحية أخرى يتحين الفرصة للخلاص من وزارة فوكس ونورث ويتلمس لذلك الوضع الدستورى الذى يحتمى وراءه لتحقيق مايريد . وسرعان ما سنحت الفرصة المنشودة وقدمت الوزارة مشروع قانون بتنظيم حكومة الممتلكات البريطانية فى الهند . ومراقبة أعمال شركة الهند الشرقية . واذا بالمشروع يقضى باسناد الاشراف الفعلى على شئون شركة الهند الشرقية الى سبعة مندوبين يتولون مناصبهم أربع سنوات ،ولا يجوز عزلهم بحال من الاحوال . وينص المشروع على أسماء هؤلاء المندوبين فاذا أربعة منهم قد اختيروا من أنصار فوكس ،والثلاثة الباقون من أنصار لورد نورث . وظاهر من هذا أن الغرض هو ضمان الحكم للمعارضة فى الهند مدة أربع سنوات على الأقل مهما يكن نصيبها فى انجلترا من النجاح

وقد نجحت الوزارة فى الظفر بموافقة مجلس العموم على هـذا المشروع . وهنا لم يسع الملك أن يقف مكتوف اليدين ، بل خرج عن الحياد التقليدى ووقف موقفه المشهور الذى جعل بعضهم يصرح إذ ذاك بأنه يعيد الى الأذهان موقف شارل الأول

سنة ١٦٤١ ، وقد دفع شارل رأسه ثمناً لذلك الموقف

لم يكد مشروع القانون يمر فى مجلس العموم ويحال الى مجلس اللوردات حتى استدعى الملك اليه أحد أعضاء المجلس الأخير وسلمه تصريحا كتابيا يخوله فيه الحق فى أن يقول لمن شاء من اللوردات إن من يوافق على مشروع القانون لا يكون فقط من غير أصدقاء الملك بل يعتبر عدواً شخصيا له ! !

وكانت نتيجة هذا الخروج الصريح على التقاليد الدستورية أن ظفر الملك بأمنيته ، وهزمت الوزارة فى مجلس اللوردات باغلبية خمسة وتسعين صوتا ضد ستة وسبعين . وكان ذلك فى ١٧ ديسمبر سنة ١٧٨٣

وفى ١٨ ديسمبر بعث الملك عند منتصف الليل برسالة الى لورد نورث ومسترفوكس طالبا منهما أن يردا اليه أختام الحكم بوساطة وكلاء الوزارات لان جلالته لا يحب مقابلتهما بشخصه !

* * *

واذا كان المؤرخون قد اتفقوا على مؤاخذة الملك جورج الثالث لتداخله غير الدستورى سعيا للخلاص من وزارة فوكس ونورث ، فقد اتفقوا أيضا على أنه أصاب أعظم السداد ونهج منهج الحكمة إذ سلم دفة البلاد الى وليم بت فقاد السفينة بمهارة ووطنية وإخلاص فى أحرج الأوقات والظروف

على أن بت فى الشهور الأربعة الأولى من حكمه كان فى موقف لا يحسد عليه . ونرى قبل أن نشرح للقارىء هذا الموقف الخطير أن نروى الحادث التالى لما يلقى من ضوء على شخصية وليم بت وصفاته . وبهذا الضوء يستطيع الانسان أن يهتدى الى السر فى انتصار مثل هذا الشاب على خصومه وتغلبه على عقبات تفت فى عضد المحنكين أنفسهم من رجال الحكم والسياسة

دار الحديث ذات يوم فى مجلس كان من حضوره وليم بت ، حول رياسة الوزارة . وألزم الصفات التى يجب أن تتوفر لمن يلى هذا المنصب حتى يوفق فى النهوض به . فقال أحد الحاضرين ان ألزم هذه الصفات طلاقة اللسان . وقال آخر بل هى الثقافة . وخالفهما ثالث فقال إن ألزم ما يلزم رئيس الوزراء هو الجلد على العمل

ولكن وليم بت خالفهم جميعا بقوله :

— كلا ، بل ألزم من ذلك كله . . الصبر

وسيرى القـارىء فيا يلى كيف كان الصبر ، بما يحمل فى طواياه من ضبط النفس ، هو الميزة الكبرى الى تذرع بهـا وليم بت فتحطمت عليهـا موجات الهجوم الجبارة التى كادت تكتسح وزارته وتجرفها فى مستهل أيامها العصيبة ، وسجل لنفسه اكبر نصر فى أخطر صراع دستورى على الحكم فى تاريخ البرلمان الانجليزى

***

كأنما أبى القدر الا أن يمتحن هذا الشاب بأقسى ما يمتحن به انسان يستقبل حياة العمل والجلاد

فى ١٩ ديسمبر أسندت الى وليم بت رياسة الوزارة ووزارة المالية . وكان طبيعيا أن تفتقر وزارة يرأسها شاب فى الرابعة والعشرين من عمره الى العناصر ذات الصيت الطائر أو النفوذ القوى . فلم يكن بين أعضـاء الوزارة رجل يمكن أن يعتمد بت على معاونة جدية منه سوى لورد تمبل

وتأبى الظروف القاسية الا أن ينتقض لورد تمبل على وليم بت بعـد ثلاثة أيام من تأليف الوزارة . فقد كان من رأيه أن يكون أول عمل للوزارة حل البرلمان فى الحال وخوض معركة انتخابية يتقرر بها المصير ، فاما بقاء فى الحكم بالأغلبية وإما مغادرة منصة الحكم طبقا للدستور . ولـكن وليمبت خالفه الرأىوأبى الا أن تعتصم الوزارة بالشجاعة والصبر وتواجه البرلمان القائم وتتبين نتيجة ما تبذل من جهد لـكسب عطف النواب فبادر لورد تمبل الى الاستقالة فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٧٨٣

بهذا قضى على وليم بت أن يواجه الموقف وحده ، وينقذ وزارته وسمعته بصراع لا معين له فيه ولا عمدة حتى على أقلية تذكر فى مجلس العموم

كان بت هو النائب الوحيد فى الوزارة . أماالستة الباقون فكانوا كلهم من أعضاء مجلس اللوردات . وكانوا جميعـا بين رجل محدود الـكفاءة وآخر تنقصه حرارة الولاء والاخلاص !

وكان على الوزارة ـ أو بعبارة أخرى كان على وليم بت ـ أن يواجه فى مجلس العموم أغلبية ساحقة نافرة يتزعمها ثلاثة هم اقوى رجال السياسة إذ ذاك بأسا وسطوة : أولهم تشارلزفوكس بما اشتهر عنه من قوة مرهوبة فى الجدال والاحراج . والثانى إدموند بيرك بما كان عليه من علم واسع وتفكير عميق ، والثالث لورد نورث بكل ما أوتى من حنـكة سياسية وخبرة طويلة فى اصول الحـكم !

وكان على الوزارة الى هذا كله أن تحتمل أشد انواع السخرية وأمر عبارات التهكم والاستهزاء ، تجرى على السنة التحذلقين وغيرهم من الذين يستهوون العامة بألوان الفكاهات اللاذعة على حساب الوزير الشاب الجديد !

كانوا يذيعون المقطوعات الشعرية يتندرون فيها (بالتلميذ) الذي ألقيت اليه مقاليد البلاد كما وصفه أحدهم فى مقطوعة قصيرة يقول فيها ماترجمته الحرفية :

يا له من مشهد تحملق الشعوب المحيطة بنا دهشة له

مشهد مملكة يعهد برعايتها الى تلميذ صغير ! !

* * *

وجاء اليوم الأول من أيام المحنة الدستورية الخطيرة يوم ١٢ يناير سنة ١٧٨٤ عقد مجلس العموم فى جو مكهرب تسوده روح النفور من الوزارة ، والسخرية من الوزير (التلميذ) ، وتحدى الملك الذى يظاهر هذا الحدث الصغير !

وظهر وليم بت فى قاعة المجلس على رأس حكومته . ولم تكد تفتتح الجلسة ويعطى الاعضاء الكلمة حتى انهالت على الوزير والوزارة الحملات . وظهرت اغلبية المجلس ضد الوزارة فى اقتراعين متوالين فى هذه الجلسة ، ووافق الاعضاء على خمسة قرارات ضد وليم بت فى الليلة نفسها !

وتوقع الجميع للوزارة الفشل الذريع والسقوط الذى لاقيام بعده ، وبهذا نفسه تنبأ جيبون المؤرخ المشهور

ولكن بت لم يفقد روحه المعنوية رغم هاتيك الهزائم المتوالية . وقد كتب اليه الملك فى اليوم التالى يقول : « انى مستعد لاتخاذ أية خطوة تقترح لمقاومة هذه الحملة ، ومواصلة الكفاح الى آخر رمق من حياتى فى هذه السبيل ! »

فهل سارع (التلميذ) الذى يرأس الوزارة الى الملك يشير عليه بحل البرلمان والنزول مع المعارضة الى ميدان الانتخاب الذى كان المال إذ ذاك من أقوى أسلحة الفوز فيه ؟

معاذ الحكمة والفطنة والرأى السديد ! بل معاذ الصبر الذى كان يؤمن به وليم بت إيمانا يزعزع شامخ الجبال !

تذرع بت بالحكمة والصبر ، فلم يعبأ بهزيمته فى المجلس ، وعاد بعد يومين اثنين يحمل الى النواب مشروعا وضعه هو لادارة شركة الهند الشرقية ، فقرىء المشروع قراءة

واحدة ثم اجتمع المجلس على هيئة لجنة للنظر فى حالة البلاد ومصيرها وأصدر قراراً رهيبا ينص على مايأتى :

« ان استمرار الوزراء الحاضرين فى الاضطلاع بأعظم الشئون أهمية ومسئولية ، أمر يخالف المبادىء الدستورية ، ويضر بمصالح جلالة الملك وشعبه » !

ولكن حتى هذا القرار الرهيب لم ينل من شجاعة وليم بت وأناته ، فاستمر الوزير الشاب معتصما بحبل الصبر يوما بعد يوم وأسبوعا بعد أسبوع ، واستمر على جلده وكفاحه من ١٢ يناير الى ٨ مارس وهو يلتزم في تصرفاته الحكومية أقصى حدود النزاهة ونظافة اليد واصالة الحكم ، ثم هو يكافح فى الوقت عينه كفاح المستميت للتخفيف من حدة الخصومة التى يلقاها من أعضاء البرلمان ، ولعل اشهر خطبه وأروعها بين جدران مجلس العموم خلال هذا النضال المستعر ، خطبته التى قام يرد بها حملة المعارض الخطير تشارلز فوكس عقب صدور قرار البرلمان بمخالفة بقاء الوزارة لمبادىء الدستور . وانك لتلمس فى هذه الخطبة قوة البيان وبراعة القول وصدق اللهجة وحرارة الايمان الذى تسنده وتدعم أركانه طهارة اليد وسلامة الطوية . انظر الى هذا كله كيف يتجلى فى قوله يومئذ :

« هل جرى على لسانى يا سيدى الرئيس ـ والخطاب لرئيس المجلس ـ ما يجعلنى خليقا أن أوصم بايثار منصبى الخاص على الصالح العام ؟ لقد ناديت يا سيدى مرة بعد أخرى أن أثبتوا لى ان هناك أى أمل منظور ـ بل دلونى على أبعد آيات الرجاء فى أن تؤدى تقديم استقالتى بحال من الأحوال الى عودة السلام والسعادة الى البلاد ، وعندئذ أبادر الى استقالتى فى الحال ! ولكني أنادى يا سيدى فى الوقت نفسه بأنى لن اتقدم باستقالتى تمهيداً للمفاوضة مع المعارضين . لن أتخلى عن منصبى لأرمى بنفسى تحت رحمة ذلك السيد الوافر الاحترام (يقصد تشارلز فوكس) انه يدعونى الآن وزيراً بمجرد الاسم ، ويصفنى بأنى مجرد دمية يحركها نفوذ سرى من وراء ستار ! ولكن لانى يا سيدى أرفض ان أكون وزيراً بمجرد الاسم من صنائعه هو ـ ولأننى آنف ان أكون دمية يحركها ذلك السيد الجليل الاحترام ، فاننى أرفض أن أستقيل . كلا ، ولن تستثيرنى عباراته الساخرة الزراية الى أن أستقيل ! بل أقسم لكم بشرفى وسمعتى أنى لن اقدم على الاستقالة بحال من الأحوال !

« فليحاذر هذا المجلس أن يبيح لأى انسان ان يدخل مأربه الشخصى ، وينسج

مصالحه الذاتية فى قرارات مجلس العموم . ان كرامة المجلس هى وحدها الملجأ والملاذ ، فلنحاذر أن يكون الملجأ إذن كرامة أى مجموع من الناس ، فلنحاذر أن يكون للاحقاد الشخصية نصيب فى الحكم على هذه المسائل الدستورية العظمى ! إن السيد الجليل الاحترام (يعنى فوكس) قدرة على أن يضفى بفنونه الساحرة جمالا يزين به القبيح . فهو يضع أمام اعينكم صورة جميلة خادعة ، ثم يدفعها اليكم لتفحصوها بعين التدقيق ، ولكنكم لا تكادون تقربونها حتى يختفى الشبح الخادع ، ويزول طيف الحرية الجميل لتجىء فى أعقابه الفوضى والاضطراب ودمار الدستور !

« ذلك لأن الحق يا سيدى هو أنه إذا كان الاستقلال الدستورى للتاج سيدفع الى شفا التمزيق ، فأين إذن ما نفاخر به من توازن فى الدستور ؟ مهما يكن إذن من فظاعة الصراع فان ضميرى وواجبى ووثيق رعايتى لدستور أجدادنا ـ تدعونى كلها الى الثبات فى موقفى العصيب . ولست أتشبث بمنصبى مدفوعا بأى استكبار أو هزؤ أو تحد للقرارات الدستورية التى يصدرها هذا المجلس ، ولا أنا أتشبث به لأمر شخصى يتعلق بالشرف ، ولا أنا مستمسك به لأى مطمع فى سلطان الحكم وجاهه . ولكن الحالة الراهنة تقتضينى ـ بل أزيد فأقول ان البلاد كلها تناديني ـ أن أكون حامى هـذا المعقل . . ولقد صحت عزيمتى لذلك على أن أكون حاميه !

بهذا اليقين الصادق وهـذا اللسان العضب احتمل وليم بت ما احتمل فى الاشهر الأولى من حكمه . حتى قدر له أخيراً أن يظفر بالتأييد المنشود ويفل من حدة المعارضة . وساعده على النجاح فى كفاحه الخطير امور ثلاثة : أولها ترفعه عن أن يستولى على ايراد سنوى قدره ثلاثة آلاف جنيه من منصب فخرى كان الناس جميعا يتوقعون أن يقبله وليم بت لفقره وقلة موارده ، ولـكنه فاجأ البلاد بتحويل الايراد الى صديقه الفقير الأعمى الـكولونيل باريه وقطع عنه بذلك الاعانة التى كان يتناولها من خزانة الدولة . وحدث بعد ذلك ان كان وليم بت يستقل عربته الى ميدان باركلى فهاجمه بعض الرعاع على مقربة من نادى بروك فى شارع سان جيمس ، وهو النادى الذى كان يتردد عليه تشارلز فوكس ، وقد كان من حسن حظ بت ان كان معه أخوه فوقاه عدوان المعتدين ومكنه من الاحتماء فى نادى هوايت بالشارع نفسه ، وكان هـذا العدوان السياسى الرخيص سببا فى سخط فريق من الرأى العام على المعارضة وعطفهم على بت . أما ثالث الامور التى ساعدت الوزير الشاب فى كفاحه فهو شطط المعارضة وانسياقها بدافع الخصومة الشخصية الى

انتقاد كل شيء حتى ضاعت قيمة معارضتهم فى نظر الجمهور

لهذا كله لم يكن عجيبا أن يسحق وليم بت المعارضة حين حل البرلمان فى ابريل سنة ١٧٨٤ وخاض معركة الانتخابات التى فقدت المعارضة فيها مائة وستين مقعداً ، وسمى الاعضاء الذين فقدوا مقاعدهم فى هذه الانتخابات « شهداء فوكس » !

ودخل وليم بت مجلس العموم فى ١٨ مايو فلم يعرف فى تاريخ بريطانيا وزير دخل البرلمان بمثل الانتصار الباهر والمظاهر الحماسية الخلابة التى ظفر بها وليم بت فى ذلك اليوم المشهود . وقد استقر له الأمر بعد ذلك فأدار دفة بريطانيا سبعة عشر عاما كاملة !

* * *

الى هنا لا أجد بداً من اقتضاب الموضوع لضيق المقام مكتفيا بأن أقول ان وليم بت فى رياسة الوزارة ووزارة المالية قد امتاز بآيات بينات من الحزم والجرأة والكفاءة والتفانى فى الاخلاص ، وأشهر ما يؤثر عنه أنه كان بطل المحالفات التى واجهت بها انجلترا نابليون بونابرت ، وفى عهده أحرز نلسون أبهر انتصاراته فى موقعة الطرف الأغر

ويرى بعض المؤرخين أن وليم بت قضى نحبه حزنا وأسى بسبب ما تحطم من آماله حين انتصر نابليون فى ٢ ديسمبر سنة ١٨٠٥ فى موقعة أوسترليتز . وقد أسلم الروح فى يناير سنة ١٨٠٦ بعد أن ملأ القلوب والأسماع سبعة عشر عاما فى بلاده وخارج بلاده على السواء

مصطفى كامل

أعظم شاب فى تاريخ مصر



يتساءلون أبالسلال قضيت أم
بالقلب أم هل مت بالسرطان
الله يعلم أن موتك بالحجى
والجد والاقدام والعرفان !

صدق شوقي رحمه الله . فما كان هذا الذى قال فى مصطفى كامل إلا حقاً صراحاً ، لا تشوبه من مبالغات الشعر وسفسطة الشعراء شائبة

لقد راح مصطفى كامل فى ريق شبابه شهيد عزيمته الجبارة واقدامه الذى لا يعترف بالصعاب والعقبات ، وجده الذى لا إشفاق معه على صحة ولا جهد

ألم يكن دستوره فى الجهاد « لا معنى للحياة مع اليأس ، ولا معنى لليأس مع الحياة » ؟

ألم تكن الحياة ، ولم تزل ، مليئة بالعوائق مترعة بألوان الصعاب التى لا بد للانسان عندها من اختيار أحد نهجين : راحة الى اليأس ، أو نشاط الى الكفاح ؟

لقد اختار مصطفى كامل طريق الكفاح ، ولكنه كان كفاحا بلا هوادة ، كفاحا جباراً أمام قوة ، بل قوى جبارة . وقد انتهى الكفاح الى نتيجة باهرة ولكنها مؤسية. باهرة لان النصر فيها كان للزعيم الشاب ، الذى قوض بمعاوله العتيدة صروح الظلم والاستعباد بما لا قيامة لها بعده . وكانت نتيجة مؤسية لأن القائد المنتصر قد استشهد فى ختام المعركة

***

ولد مصطفى كامل فى ١٤ أغسطس سنة ١٨٧٤ . وكان والده على افندى محمد مهندسا

فى الجيش المصرى من أيام محمد على الكبير ، وكان أستاذاً للمرحوم على مبارك باشا بمدرسة الهندسة ، وقد عنى بتربية أولاده تربية صالحة قوية لا شك أنها كانت عظيمة الأثر فى طابع الجد والاستقامة الذى امتازت به حياة الزعيم الشاب من طفولته الى ان اختاره الله الى جواره

ألحق مصطفى كامل بمدرسة أم عباس الابتدائية وهو فى مستهل العام السابع من عمره . بعد أن تزود فى البيت بمبادىء القراءة والكتابة وحفظ كثيراً من القرآن الكريم على يد فقيه صالح كان يعده للالتحاق بالازهر على ما كان يريد والده . وقد مكث فى مدرسة أم عباس عامين ثم حدث أن عاقبه أحد المدرسين لمبادرته الى الاجابة على سؤال موجه إلى تلميذ سواه . فعز على مصطفى أن يعاقبه المدرس بأن يسبه ثم يحبسه . فطلب الى والده أن ينقله من هذه المدرسة « فانى لا أحب ان أكون تلميذاً فى مدرسة أحد اساتذتها على ماترى ياوالدى من الجور والاستبداد» فلما تحقق والده صحة ما قال ، ادخله مدرسة السيدة زينب التى كانت خاضعة لوزارة الاوقاف . وقبل ان يتم دراسته الابتدائية بهذه المدرسة وافت المنية والده فسأل اخاه وولى امره حسين واصف باشا (وزير الاشغال فيما بعد) ان ينقله الى مدرسة القربية لقربها من منزل جده لأمه ، حيث كان يقيم هو واخوته إذ ذاك . فأجابه اخوه الى رغبته . وفى هذه المدرسة اتم دراسته الابتدائية بتفوق عظيم . وتسلم المرحوم من الخديو توفيق باشا جائزة الامتحان فى احتفال دارت فيه بين سموه وبين زعيم المستقبل محاورة تنم على الثبات ورباطة الجأش وعلو النفس ، ففى هذه المحاورة سأله سمو الخديو :

ـــ ما اسمك يا بنى ؟

فأجاب ـ اسمى مصطفى كامل !

(وهنا لفت ضابط المدرسة نظره همسا الى انه ينبغى ان يقول ـ عبدكم فلان ـ فلم يلتفت التلميذ الكريم النفس الى هذه الملاحظة)

فلما سأله الخديو بعدئذ عن اسم والده لم ينتهز الفرصة ليعمل (بنصيحة) الضابط الخبير بما كان عليه العرف إذ ذاك ، وما لا يزال الى الآن ، من اعلان العبودية والذلة فى حضرة العظماء . وانما اجاب مصطفى كامل حين سئل عن اسم والده بكل بساطة :

ـــ المرحوم على محمد

فلما انتهت الحفلة قصد مصطفى كامل إلى الضابط وقال له فى شمم ، وفى حجة قوية :

« ما كان أبى عبداً وما كنت أنا كذلك . فاذا اجبت بغير الواقع كما كنت تريد ان اجيب كنت كاذبا ! »

وانتقل مصطفى كامل الى مرحلة التعليم الثانوى فألحق بالمدرسة التجهيزية (وهى الآن الخديوية) فلما كان فى السنة الثانية أصدر وزير المعارف ـ وهو إذ ذاك المرحوم على مبارك باشا ـ قراراً برفع نسبة النجاح الى ١٦ درجة من عشرين فى كل مادة . وظهرت نتيجة الامتحان فاذا ترتيب مصطفى كامل السابع من بين اخوانه الذين يبلغون خمسة وسبعين عدداً . وإذا هو مع ذلك لا ينال هذا المتوسط المشروط للنجاح ، بل لم ينله بين الناجحين جميعا سوى طالبين اثنين . فهداه تفكيره وما فطر عليه من صفات الشجاعة وروح الجد والاقدام الى أن يقصد الى وزير المعارف فيدخل عليه موهما الحاجب حين أراد منعه بأنه (ابن الباشا !) فلما تخطى الحاجب قال له بصوت مرتفع انه (ابن الباشا فى العلم !) ورفع على مبارك نظره على هذا الصوت وسأل الصبى الماثل أمامه : ماذا يريد ؟ فلما بسط له شكايته . أراد الوزير أن يمتحنه فى علم تقويم البلدان (الجغرافيا) فسأله عن جزيرة نائية وطلب منه الاشارة الى موضعها على خريطة معلقة على الحائط . فلم يعرفها مصطفى كامل لضآلة شأنها على ما يظهر . وهنا تبدو جرأته فى أقوى مظاهرها إذ يستأذن فى شجاعة مهذبة أن يسمح له الوزير بأن يلقى عليه سؤالا واحداً . فلما أذن له سأله أن يخبره وقد صعد الى مكتبه نحو ألف مرة كم عدد درجات سلم الوزارة ؟!

وهنا تحول الوزير عن السؤال وقد فهم أن القرار أحدث فى نفوس التلاميذ أثراً شديد الوقع . وانتهت المقابلة بأن أذن لمصطفى كامل ان يذهب فيعلن لأخوانه اقتناع الوزير بظلم القرار وعدوله عن المتوسط الجديد الى القديم ! ومن هذا الوقت ذاعت شجاعة مصطفى كامل بين اخوانه واشتدت محبتهم له ، كما عظم تقدير أساتذته له واعجابهم بنشاطه وعلو نفسه . ويروى المرحوم جرجى زيدان بك ان أحد رفاق مصطفى كامل فى المدرسة أخبره بأن المرحوم على مبارك باشا نفسه كان يختصه بجنيه كل شهر مدة إقامته فى المدرسة . وكان الوزير الكبير يدعو مصطفى كامل الى منزله ويناقشه فى المسائل العلمية والاجتماعية ويعرف به جلساءه من العلماء والوزراء ، فكانوا جميعا يتوقعون له مستقبلا زاهراً جديراً بسعة اطلاعه وحضور بديهته وعلو همته

ويظهر أن هذا التقدير الذى كان مصطفى كامل يرى نفسه محوطا به ، ولد فى نفسه أكبر الآمال وأسمى المطامع ، وهو بعد فى دور الدراسة الثانوية . فقد روى شقيقه

على فهمى بك فى السيرة التى وضعها له أن المرحوم على مبارك باشا زار المدرسة التجهيزية يوما . فلما دخل الفصل الذى به مصطفى كامل طلب منه ان يرتجل خطبة فيما ينوى ان يصنع بعد ان يتم دراسته الثانوية . فوقف يقول بالاسلوب العربى الرصين ، والمنطق العذب المتدفق والسمو الفكرى الذى كان يشع فى كل خطبة من خطب مصطفى كامل منذ اعتلى ذرى المنابر الى ان ودعها بخطبة الاسكندرية الخالدة ، قال (التلميذ) مصطفى كامل فى خطبته المرتجلة امام على باشا مبارك :

« سألتنى يا سعادة الوزير الخطير ، سألت الله لك الرفعة والارتقاء ، أن أقول كلمة فيما أريد أن أصنع بعد نيل شهادة الدراسة الثانوية ، فأنا أكل هذا الأمر الى إرادة الخالق عز وجل ، فلتكن مشيئته تعالى . بيد انى استنتجت مما كان يرويه لى المرحوم والدى من أحاديث كبار الرجال ، وما درسته على أستاذى العلامة المفضال (احمد بك نجيب) معلم التاريخ من سير الفاتحين الأبطال ، ما أيقنت معه أن أعظم الرجال شأنا من يحرر بلاده وينقذ أمته من ربقة الذل والاسترقاق ، وأنا سأكون ذلك المحرر الذى يكتب ويخطب ، وأضرب الأمثال للناس كما كان يصنع أستاذى ، مبشراً بما فى الحرية من العزة والحياة ، منذراً بما فى الذل من الموت والصغار ، والله تعالت حكمته وجلت قدرته يوفقنى الى ذلك »

والتحق مصطفى كامل بمدرسة الحقوق الخديوية فى السادسة عشرة من عمره . فأخذ ينشر الرسائل ويوافى الصحف بالمقالات ، ويعتلى ذرى المنابر خطيبا ومناظراً فى الجمعيات. واتصل فى سنة ١٨٩٢ ، أى فى سنته الأولى بالحقوق ، بالأديب الكبير الشيخ على الليثى خطيب العرابيين . فأفاد كثيراً من خبرته وعلمه بدخائل الحوادث الأليمة التى صاحبت الاحتلال البريطانى . وفى ١٨ مارس سنة ١٨٩٢ قدمه الشيخ على الليثى الى سمو الخديو السابق عباس حلمى الثانى . فنشأت بذلك بين الأمير وزعيم المستقبل علاقة كان لها أعظم الأثر فى حياة مصطفى كامل وخطته فى الجهاد . ويفسر الدكتور هيكل بك سر اعتماد الخديو عباس على مصطفى كامل وغيره من الشبان تفسيراً دقيقا ، فيقول ان عباس الثانى «ما لبث ان تبوأ عرش أبيه وجده حتى وجد نداً له فى قصر الدوبارة لورد كرومر معتمد بريطانيا صاحبة السلطان الفعلى فى البلاد بقوتها وبجيش احتلالها وباستشارها بكل المناصب الرئيسية فى الحكومة ، وهو مالبث أن تبوأ عرش أبيه وجده . وأراد ، مدفوعا بحماسة الشباب ، أن يظهر للناس حقه وسلطانه حتى صدمته حادثة الحدود التى اضطر

معها الى الاعتـذار عن ملاحظته التى أبداها للقائد كتشنر حين عرض الجيش المصرى بالسودان . وكان المتقدمون فى السن من المصريين الذين شهدوا عهد اسماعيل ومظالم حكومته ، والذين رأوا حركة عرابى واشتركوا أو لم يشتركوا فيها وشهدوا فشلها وتغلب سلطان الانكليز عليها وعلى فرنسا وانفرادهم دونها بأمر مصر ـ كان هؤلاء المتقدمون فى السن أشد الناس تردداً فى مشاركة الأمير الشاب الذى اعتلى العرش فى الثامنة عشرة من عمره فى مطامعه ومطامحه ، فلم يكن يستطيع الاعتماد الا على الذين لم يهون عليهم ظلم اسماعيل واستبداد الانكليز ، والذين لم يضعف الجهل أو البله فى نفوسهم معنى الحرية . وكان مصطفى كامل بين هؤلاء بل كان فى مقدمتهم . فقد جمع الى الشباب اقداما جاوز حدود الاقدام ، مع نشاط عصبي لا يهدأ الا أن يهد المرض صاحبه ويقعده عن حركته الدائمة . . . »

وندع الآن حديث هذه العلاقة ، وما كان لمصطفى كامل من عذر فى الاطمئنان اليها والاعتماد عليها . فنقول ان مصطفى كامل لم يقنع بالدراسة فى مدرسة الحقوق الخديوية فالتحق فى العام التالى بمدرسة الحقوق الفرنسية ، استزادة من الدراسة باللغة الفرنسية وتشربا لروح الحرية التى تسود التعليم فى المدرسة الأخيرة . فكان يدرس الحقوق المصرية نهاراً والفرنسية ليلا . ويجمع الى ذلك اشتغاله باصدار مجلة (المدرسة) التى أنشأها وتزعم بها زملاءه في الدرس ، وعمله كاتبا وخطيبا ومناظراً فى الصحف السيارة والأندية والجماعات . وفى أواخر يونيو سنة ١٨٩٣ غادر مصر للمرة الأولى الى فرنسا حيث أدى امتحانه الأول فى الحقوق الفرنسية . وفى هذه الزيارة لفت نظره (نشاط القوم ومعدات حياتهم) وتعرف بطلاب روسيين وبولونيين ويابانيين « فرأيتهم جميعا منكبين على العلم ، ولـكنى أؤكد لك ــ والخطاب لأخيه ـ أن المصرى أقواهم عارضة وأعلاهم ذكاء ، ولا ينقصه الا الارادة التى هى أس النجاح» وقد سأله المرحوم على مبارك باشا على أثر عودته من هذه الزيارة الأولى : لماذا تقـدم الفرنسيون وتأخرنا نحن ؟ فوقف أمام الوزير وجلسائه وقد ثارت حميته ، وتدفق بيانه ، وقال فى بصيرة نافذة وحكمة جديرة بالشيوخ المحنكين : « تسألنى يا سعادة الوزير لماذا تقدموا هم وتأخرنا نحن ؟ وأنت العليم بسبب التأخر عندنا وأسباب التقدم عندهم . انهم تقدموا لأن الحكومات هناك تشعر بما على عاتقها من التبعات أمام الأمم ، فلا تهضم لهم حقا ، ولا تخلف معهم عهداً ، ولا تضن عليهم بمعونة ولا تستهين بما عليها من الواجبات . . . والحكومة خادمة للشعب لا سيدة

له وكنى . . أما نحن ، وصبراً جميلا يا مصر ، فكما تعلم . إذا طلب أحدنا من الحكومة طلبا نبذت طلبه ، واذا رأت فكرة حميدة تشتغل بتحقيقها الأمة خلقت العراقيل وأوجدت الموانع ، حتى لتكاد هذه الامة العزيزة تختنق بغاز هذه السيطرة الغاشمة . . . » واختتم مصطفى كامل كلته الملتهبة بهذه العبارة التى تنطق بما كانت تنطوى عليه نفسه من إيمان بانتصار العدل والحق : « ولكن هذه الحالة لن تستمر طويلا ، وان لكل باغ مصرعا ! »

وفى ٨ يناير سنة ١٨٩٣ احتفل مصطفى كامل واخوانه للمرة الاولى بعيد الجلوس الخديو . وكان المقصود بالاحتفال فى الواقع التظاهر ضد السلطة غير الشرعية فى البلاد من طريق تمجيد السلطة الشرعية ممثلة فى الجالس على العرش . وفى هـذا الاحتفال دعا مصطفى كامل جهرة الى المطالبة بجلاء الانجليز . فصدر بسبب ذلك قرار وزارة المعارف بمنع التلامذة من مزاولة الشئون السياسية ومكاتبة الصحف . ولكن هـذا القرار لم يكن ليثنى عزيمة مصطفى كامل ، بل كان على العكس حافزاً لهمته ، وفى أواخر سنة ١٨٩٤ قصد الى تولوز حيث نال اجازة الحقوق بعد جهد كاد يودى بصحته . فكتب الى أخيه يقول : « . . . عولت بمشيئة الله على الانتظام فى سلك رجال المحاماة لأدافع عن حقوق الافراد . ولو أتيح لى الخير وبلغت ما أتمنى لكنت المدافع عن حقوق الأمة بأسرها أمام العالم أجمع . لان مصر وهى جنة الدنيا لا تستحق أن يداس شرفها بالاقدام ونصبح فيها نحن أبناءها الاعزاء ممقوتين غرباء ! »

وقد كان ما أراد مصطفى كامل ، فلم يكد يشتغل بالمحاماة بضعة أشهر حتى ضاق بها . ووجد أفقها محدوداً لا يرضى أطماعه ، فاتجه الى ميدان السياسة . ولم تنتصف سنة ١٨٩٥ حتى كان قد قطع صلته بالمحاماة

* * *

فى ٢٨ يناير من ذلك العام ، عام ١٨٩٥ ، نشرت جريدة الاهرام حديثا بين مصطفى كامل والكولونيل بيرنج (شقيق لورد كرومر) كان قد جرى بينهما على ظهر الباخرة فى أثناء عودة مصطفى كامل الى مصر ، وفى هذا الحديث لم يراع الكولونيل بيرنج أقل تحفظ فى عباراته ، اعتماداً على الصفة الخاصة التى دارت فيها المناقشة بينهما . فصرح بأن مصر دخلت « تحت حكم الانجليز دخولا لم يبق معه شك لعاقل من العقلاء » ولما ذكره مصطفى كامل بوعود الوزراء البريطانيين بالجلاء ، ضحك ساخراً وقال فيما قال : « . . أتظنون أننا نؤخذ بأقوالنا ، وأفعالنا ناطقات بحقيقة نياتنا ؟ وماذا على رجالنا

اذا كانوا حققوا لكم ولاوربا (الاحتلال المؤقت) و (الجلاء القريب) ومبدؤهم (الكذب فى خدمة الاوطان) . واستعمال الخداع فى السياسة . . نفس استعماله فى الحرب والطعان ؟ ! »

ولم يكد ينشر هذا الحديث حتى أثار حربا قلمية عاصفة دارت رحاها بين الصحف الوطنية والصحف الناصرة للاحتلال . وصال فيها مصطفى كامل صولات صادقة كتب له فيها الفوز والانتصار

وفى ٢١ مارس سنة ١٨٩٥ قدم مصر النائب الفرنسى مسيو دلونكل ، للاجتماع برجال مصر الوطنيين ودرس الحالة الاجتماعية والسياسية بمصر ، فاستقبله مصطفى كامل بالاسكندرية ورافقه طوال الايام العشرين التى قضاها بمصر . فكان لهذه الزيارة وحركات مصطفى كامل خلالها وقع أليم فى نفوس المحتلين

وفى أوائل شهر مايو من العام نفسه سافر مصطفى كامل فجأة الى باريس . وقد قال لأخيه حين أبدى دهشته لنبأ هذا العزم المفاجىء على السفر : « أنسيت المسألة المصرية ، تلك المسألة التى استخرت الله أن اكون المدافع عنها ؟ لقد زودت نفسى فى المدة الماضية بمعلومات جمة عنها ، إذ طالعت كتبا كثيرة رسمية وغير رسمية ، ووقفت على كل أسرار بلادنا السياسية ، فلا تدهش ياأخى فان هذا الطريق ــ ولو أنه وعر المسلك ــ مطلوب من كل وطنى صادق . . »

ولم يكد يبلغ باريس حتى أرسل الى أخيه على فهمى بك يقول : « . . قد أوصيت على صورة سياسية تمثيلية لأقدمها مع عريضة سياسية لمجلس النواب الفرنسى ، وسأجتهد فى أن يكون الموقعون على هذه العريضة من أبناء مصر كثيرين حتى يكون لها فى العالم دوى كبير وتأثير عظيم . . »

وقد تحقق ما كان يجيش فى صدر مصطفى كامل بهذا الصدد من آمال . فقد قصد الى مجلس النواب الفرنسى فى ٤ يونيه ومعه ستة من اخوانه المصريين المقيمين بباريس . وقدم الى رئيس المجلس عريضة استغاثة من الأمة المصرية بالأمة الفرنسية ، مختتمة بالهتاف لفرنسا « محررة الأمم »، وفى العريضة اشارة الى الصورة الرمزية التى سبقت الاشارة اليها ، وقد تسلمها منه سكرتير المجلس . وفى تلك الصورة فتاة حسناء تمثل فرنسا مصغية لاستغاثة الملهوف ، وقد مدت يدها تتناول من يد المصرى شكاية أمته الممثلة بفتاة تستغيث وهى مكبلة بأغلال غلاظ مربوطة بمخالب أسد رابض يقف الى جانبه رجل

هائل الصورة قابض على سيفه ناظراً الى مصر شزراً كأنما يريد التهامها . وكان ذلك رمزاً للاستبداد المفروض على مصر . وفى أسفل الصورة أبيات بالعربية من نظم مصطفى كامل وأمامها ترجمتها بالفرنسية وهذه هى الأبيات :

أفرنسا يا من رفعت البلايا عن شعوب تهزها ذكراك
انصرى مصر إن مصر بسوء واحفظى النيل من مهاوى الهلاك
وانشرى فى الورى الحقائق حتى تجتلى الخير أمة تهواك

وقد أثارت هذه الخطوة الموفقة اهتماما عظيما فى أنحاء العالم ، وهاجت هائج الصحف البريطانية حتى خرجت احداها عن صوابها فكتبت تقول : « ظهر بين المصريين رجل مهيج يدعى أنه مصرى والحقيقة أنه تركى . وقد كان أبوه موظفا فى سراى الخديويين المصريين . وقد قدم هذا المهيج المغرور استنجاداً لفرنسا من الاحتلال ، ونسى ما عليه انجلترا من القوة والحق فى احتلال مصر . . فالرأى العام الانجليزى لا يلتفت لهذا الهذيان الذى يدل على أن يداً كبيرة تحركه ضد انجلترا صاحبة الحول والطول ! »

وقد كان هذا الأثر البعيد القوى الذى أحدثته العريضة حافزاً جديداً شد من عزيمة الزعيم الشاب ، وبخاصة بعد ذيوع اسمه فى أنحاء أمريكا وفرنسا وانجلترا وألمانيا والنمسا وتركيا وغيرها . فأخذ يتنقل فى أنحاء أوربا يخطب ويكتب ويدلى بالحديث تلو الحديث الى الصحفيين الذين أخذوا يمطرونه بالأسئلة الدقيقة المتوالية ، فكان يجيب عنها اجابة السياسى الجرىء المدقق الواثق من حقه وعدالة مطلبه ، حتى لفتت لباقته وهمته العالية أنظار العظماء ورجال السياسة والصحفيين الأوروبيين ، فترى الدكتور هوفمان زنيفر رئيس حزب الشمال الالمانى يقول له في خطاب مؤرخ فى ١٨ نوفمبر سنة ١٨٩٦ : « انى قرأت اعمالك الاخيرة ، وتتبعت كل خطواتك السياسية دفاعا عن بلدك العزيز فوجدتها لم تصدر الا عن وطنى مخلص ذكى نشيط . فأهنئك بهذه الدرجة التى تدهش كل من وقف عليها وعرف ان سنك هى سنك (وكانت سنه رحمه الله اذ ذاك اثنتين وعشرين سنة) »

وكتب اليه احد النواب الايطاليين المشاهير : « انك بأعمالك تلفت العالم من جديد الى تاريخ مصر القديم والجديد ، وتعيد ذكرى الفراعنة الذين لبسوا قبل بنى البشر تاج العلم ودخلوا جنة الصناعة ! انك لا تقل فى نظرى عن أوربى ذى رأس كبير مثلك ، وربما فضلته بنشاطك الفائق الذى لا يقل عن نشاط البخار . فمن باريس نسمعك وكذلك من برلين وفينا والاستانة تذكر بلادك ، حتى خيل لنا ان العالم كله معك . . .

فلا تحرم ايطاليا من زيارتك فان الأحرار يحبون على الدوام رؤية الاحرار من أى جنس كانوا ! »

ويضيق بنا المقام اذا نحن حاولنا أن نحصى العظماء الذين بهرهم مصطفى كامل بأعماله والصحف التى ملأت أنهارها باطراء شجاعته ونبالة أغراضه

وقد تعرف مصطفى كامل فى سبتمبر سنة ١٨٩٥ الى الكاتبة الفرنسية الحرة مدام جوليت آدم التي خصصت جانبا عظيما من جهودها لخدمة القضية المصرية والحملة على الاحتلال . وفى نوفمبر من العام نفسه كتب الى الوزير الانجليزى لورد سالزبرى خطابا يرد فيه على الحملة الشعواء التى شنها اللورد على الخليفة فى قاعة جلدهول . فلما نشر هذا الخطاب اثار اهتماما شديداً فى أوربا . ولم يلبث هذا الاهتمام أن تجدد حين كتب المرحوم الى مستر جلادستون زعيم الاحرار يطلب اليه تصريحا فى شأن المسألة المصرية « يكون له أعظم قيمة فى هذه الايام التى يحسب فيها الجم الغفير من أبناء ديننا المسلمين أنكم اكبر عدو رآه الاسلام ! » كما جاء فى الخطاب بصريح العبارة ، فرد مستر جلادستون بخطاب يقول فيه : « إنه مجرد بالمرة من كل سلطة » وإن آراءه لم تتغير قط « وهى دائما أنه يجب علينا أن نترك مصر بعد أن نتمم فيها بكل شرف وفى فائدة مصر نفسها العمل الذى من أجله دخلناها . وان زمن الجلاء على ما أعلم قد وافى منذ سنين ! ! »

وعاد مصطفى كامل الى مصر ثم غادرها فى أغسطس عائداً الى أوربا لمواصلة نشاطه الوطنى فى عواصمها . وقصد فى أواخر اكتوبر الى الاستانة حيث تشرف بمقابلة السلطان عبد الحميد للمرة الأولى . فكان أول ما قال السلطان حين رأى مصطفى كامل : « انى كنت أظنك رجلا مسنا ، ولكنك لا تزال فى حداثة العمر ، فبارك الله فيك ! »

ولما أراد السلطان بعد أيام أن يمنحه بعض الرتب أو النياشين اعتذر قائلا : ان وطنيته « خالصة لا تبتغى أجراً ولا تسأل فخراً » وقد خشى أن تروج بضاعة الاعداء ضده « ويتهمنى أبناء وطنى العزيز بالعمل حبا فى الظهور ونيل هذه الالقاب الكاذبة ! » وهكذا ظل مصطفى كامل لا يحمل رتبة حتى أنعم عليه السلطان فى سنة ١٨٩٩ برتبة المتمايز ثم بالرتبة الأولى ، ثم برتبة الباشوية بعد بضع سنوات

* * *

كان مصطفى كامل يعتمد فى كفاحه على قوى ثلاث لم تلبث أن تلاشت آماله فيها جميعا واحدة بعد واحدة : فلقد كان يعتمد أولا على نفوذ الخديو عباس الثانى . ولم يكن

أى منهما يبذل أقل جهد فى اخفاء العلاقة السياسية الوثيقة بين أمير البلاد وزعيمها ، فكان الخديو وأنصاره على اتصال ظاهر غير منقطع بمصطفى كامل ، وكان مصطفى كامل من جهته لا يتردد فى الادلاء بالاحاديث الى الصحف الاوربية مجاهراً فيها بخطة الخديو ونياته ، حتى لنراه يقول مرة فى غير تحفظ ولا مداراة : « ان خطة الخديو هى انتظار الظروف ليستعد أحسن استعداد للوثوب والنزال لاسترداد حقوق البلاد المهضومة » !

ولا غرابة فى أن يحرص مصطفى كامل على هذه العلاقة ويعمل على توثيقها بترديد عبارات الولاء للخديو وانتهاز كل فرصة للاشادة بذكره ، تفاديا للوقوع فى الشرك الذى نصب لكل زعيم شعبى قبل مصطفى كامل وبعده ، وهو اتهامه بالسعى الى العرش من طريق التقرب الى الجماهير . هذا الى أن مصطفى كامل كان داعية الى تخليص البلاد من احتلال المحتلين وتدخلهم فى شئون مصر . فكان طبيعيا ومنطقيا أن يكون داعية لاحترام حقوق الحاكم الشرعى للبلاد ومناصرته فى صراعه ضد المحتل الدخيل .

ولكن عدول الانجليز عن سياسة الشادة والعنف مع الخديو الى سياسة اللين (والوفاق) التى اختطها خلف اللورد كرومر ، وميل مصطفى كامل وأنصاره الى محاسنة رجال حزب الأمة وأمثالهم ممن ناصروا العميد البريطانى السابق فى صراعه مع الخديو عباس ، وطمع الخديو فى أن يحصل بسياسة الوفاق على مالم يكن اليه سبيل فى أيام سياسة النزاع ، كل دلك أودى به الى التنكر لمصطفى كامل وزملائه . فسقط بذلك سلاح من أسلحة الزعيم الشاب فى كفاحه

وكان ثانى أسلحة مصطفى كامل فى جهاده الاستعانة باوربا لنصرة قضية مصر وتخليصها من احتلال الانجليز . ولا غرو فقد كان التنافس الدولى فى أواخر القرن الماضى على أشده ، وكانت دول العالم بغير استثناء تنظر الى بريطانيا نظرة الريب والحسد وتسودها جميعا روح الرغبة فى الحد من نفوذ الانجليز أو منع اتساع هذا النفوذ على الأقل . وكانت الخصومة الفرنسية الانجليزية قريبة الشبه بالخصومة الايطالية الانجليزية التى نشهدها اليوم ، بل كانت تفوقها مرات . وكانت المانيا ممتلئة بالقوة معتزة بانتصارها بعد حرب السبعين ، عظيمة الأمل فى أن تصبح امبراطورية لاتقل عن الامبراطورية البريطانية في الشأن . وكانت الدول جميعا وفى مقدمتها روسيا وتركيا ، تعلق أهمية كبيرة على مصير منطقة البحر الابيض المتوسط وقناة السويس

يضاف الى هذا كله أن فرنسا على وجه خاص كانت تتمثل لمصطفى كامل وكثيرين

غيره رسولا من رسل الحرية والاستقلال ، لا لبلادها وحدها ، بل لأى بلد فى العالم .
ألم يكن لها نصيب مذكور في جهاد الولايات المتحدة واليونان وبلجيكا وايطاليا للظفر بحقها فى الحرية ، والفكاك من قيود الاستعمار ؟

على أن هذا الأمل فى معونة الدول الأوربية لم يلبث أن انهار ، واندكت قوائمه حين عقدت انجلترا مع فرنسا الاتفاق الودى المشهور سنة ١٩٠٤ ، وهو الاتفاق الذى يعد وثيقة نادرة فى تاريخ الاتفاقات السياسية بين الدول ! وحسبك أنه يقضى جهرة بأن كلا من الدولتين تتيح للاخرى حرية التصرف كيفما شاءت فى البلد الذى انشبت فيه أظفارها : انجلترا فى مصر وفرنسا فى المغرب الأقصى ، ولكن من الخطأ أن يعتقد أحد أن مصطفى كامل لم يفقد أمله فى فرنسا وأوربا إلا حين عقد هذا الاتفاق . فهو فى الواقع قد رأى قبل ذلك بسنوات من تلون السياسة الاوربية ومن تناقض فرنسا مع مبادئها ، صوراً كانت كفيلة بزعزعة ثقته فى معونتها المجدية . فتراه يكتب الى مدام جولييت آدم من بودابست فى ٢٨ يونيه سنة ١٩٠٠ فيقول لها : « . . . أنت الوحيدة التى تمثلين أمام عينى فرنسا القديمة ـ فرنسا بلد الهمة والاقدام ! ان السياسة الاوربية تبغض الىّ بكل جوارحى المدنية الحديثة ، ولكن السياسة الفرنسية تعكس أمرى وتجعلنى ذاهلا أمام التناقض الغريب فى تاريخها . عجبا ! أنسيت فرنسا فاشودة ؟ ان الحكومة الفرنسية لم تعمل عملا سياسيا واحداً يجعلنى آملا فيها ! » وفى خطاب آخر الى مدام جولييت آدم أيضا كتبه من فيشى فى ١٥ سبتمبر سنة ١٩٠٣ يقول : « قرأت مع أصدقائى بكل تحسر ما دار من الخطب فى لندن فى سبيل تقرب فرنسا من انجلترا . والظاهر أن دلونكل كان من المحتفلين بهذا العيد ، انني أصبحت ولا شيء يدهشنى فى هذا الوجود ، فكل شيء جائز الوقوع ! » ودلونكل الذى يشير اليه مصطفى كامل هو كما يذكر القراء النائب الفرنسى الذى قدم مصر لدرس القضية المصرية واحتفى به زعيم الشباب المتحمس وإخوانه

أما ثالث الأسلحة التى كان يعتد بها مصطفى كامل فى جهاده ، فهو الاستعانة بتركيا واستمداد نفوذها لانقاذ مصر . وقد بالغ فى الاعتماد على الباب العالى والارتماء فى أحضانه حتى استباح لنفسه أن يدافع عن تركيا حين أرادت اقتطاع بعض المواقع فى داخل حدود مصر ! ولكن للمسألة ناحية جديرة بألا تغيب عن البال عند العرض لهذه النقطة من تاريخ مصطفى كامل . فان تركيا كانت الى ذلك الحين دولة اسلامية لم ينفصل

فيها الدين عن الدولة على نحو ما نرى اليوم ، بل كانت زعيمة الدول الاسلامية ومقر الخلافة المقدسة ، وكان السلطان عبد الحميد هدف السياسة الاوروبية ، تعمل على تقويض مركزه السياسى الذى قام الى أكبر حد على دعائم مقامه الدينى الخطير . وكان مصطفى كامل يعلم ذلك كما يعلمه معظم المسلمين المستنيرين . وكان مؤمنا بأن أوربا انما تشن على دار الخلافة (حربا صليبية فى شكل سياسى) على حد تعبير السلطان عبد الحميد . ولم تكن الدعاية المسمومة الهائلة ضد السلطان عبد الحميد قد فعلت فعلها فى نفوس المسلمين عامة والشبان على نوع خاص . فلم يكن أحد يسيغ حينئذ ، كما يسيغ اليوم كثيرون ، أن يسمى السلطان عبد الحميد (بالسلطان الاحمر) أو (عبد الحميد الملعون) أو نحو ذلك مما بذلت دول الغرب جهوداً سياسية أدبية جبارة حتى نجحت فى نشره على ألسنة المسلمين قبل سواهم . وانما كان المصريون يعرفون أن لهم على ضفاف البوسفور زعيما روحيا هو (حضرة صاحب الجلالة الشاهانية السلطان عبد الحميد خليفة المسلمين) ، وهذا (الخليفة) هو الذى تناصبه اوربا العداء ولا تنى تحرك ضده مؤامرات الأرمن العدوان على حياته

كان مصطفى كامل إذن يمثل شعور المصريين عامة فى تقربه من الخليفة والحرص على رضاه والذود عن مقامه الأدبى مع الاستعانة بنفوذه السياسى . يضاف الى ذلك أن الباب العالى كان من الوجهة الشرعية النظرية صاحب الحق فى هذه البلاد . فلماذا لا نستنهضه ونتعاون معه ونتقرب اليه ونعمل معه متكاتفين على إقصاء الانجليز عن بلد يصرحون هم أنفسهم بأن ليس لهم حق شرعى فيه ؟ أليس هذا الوضع أقرب عمليا ـ لتحقيق أمانى البلاد من إنكار كل حق لتركيا فى مصر ومطالبة انجلترا فى الوقت نفسه بالجلاء ، لنظفر عندئذ بوضع سياسى لم نستطع أن نظفر به من قبل ؟

على أن هذا السلاح كذلك لم يلبث أن فل ، وسقط من يد الزعيم الشاب ، على أثر النزاع الذى قام بين الباب العالى وانجلترا حول حدود مصر فى سنة ١٩٠٦ . فقد أرادت تركيا إخراج شبه جزيرة سينا من حدود مصر . فلما رفضت انجلترا ذلك محتجة بأنه يناقض الفرمان السلطانى الذى ورد الى اسماعيل باشا سنة ١٨٧٣ . عمدت تركيا الى المراوغة فتظاهرت بالرضى ثم احتلت قرية طابا عند العقبة بدعوى أنها ليست فى الحدود التى عينها فرمان اسماعيل . وعندئذ استحكم الخلاف بين الدولة العلية والدولة المحتلة ، وأخذ مصطفى كامل يكتب ويناضل مدافعا عن وجهة النظر التركية ، ولكن

النزاع ما عتم أن انتهى بتراجع تركيا وخذلانها خذلانا نزع من صدور المصريين آخر ذرة من الأمل فى استعداء الباب العالى على الانجليز

ولقد استشعر مصطفى كامل مرارة غير قليلة ازاء تهاوى هذه الاسلحة واحداً بعد آخر ، فتراه يقول عن انفصام عرى التعاون بينه وبين الخديو : « . . . ان مقاطعتى للخديو علمتنى أموراً كثيرة ، وقد تغير حكمى على الرجال تغيراً تاما . فقد رأيت كثيرين ممن كانوا حولى ما كانوا يميلون الىّ إلا لجاهى ، وقد هجرونى الآن . ولست بآسف عليهم ، بل أنا على العكس من ذلك ، لانه لا شىء يعود بالضرر على رجل العمل ذى الشعور الكبير مثل الصداقة الزائفة . . . وبعض أمراء البيت الخديوى يدعون أنى لا أحترمهم كما ينبغى ، وما علمت ذلك حتى عزمت على أن لا أقرئهم السلام أصلا . واعتقادى أنى مصيب فى هذا . فقد آن لنا معشر المقهورين المظلومين المغدور بنا ألا نحترم غير قيمة المرء الادبية وأعماله الحسان ! »

ويقول قبل ذلك لمدام جولييت آدم تعليقا على اتفاق سنة ١٩٠٤ : « . . . لا أجد لنفسى عزاء ازاء هذا الوفاق الانجليزى الفرنسى المشئوم ... كما أنه ليس فى وسع جميع مدارس القطر أن تربط المصريين بفرنسا بعد الآن . وإن مواطنى ليكرهون اليوم فرنسا أكثر من انجلترا نفسها ! . . . انى أتألم ألما مزدوجا . أتألم لك . ولى . والا فاذكرى أن فرنسا هى أول دولة صادقت على الاحتلال بعقد رسمى ! يا لها من ذلة للوطنيين المصريين والفرنسيين ! انك لا تدرين مبلغ تشامخ الانجليز فى الوقت الحاضر ، فانهم يسخرون منا نحن صغار الأحلام الذين اعتمدنا على فرنسا ولهم الحق أن يسخروا ! ! »

وعلى أثر خيبة الرجاء فى تركيا وقف يخطب فى الاسكندرية فيقول : « . . . فليعلم أعداء مصر أننا نطلب لها الاستقلال ، ونطلب لها ذلك الاستقلال بأعلى أصواتنا وعلى مسمع من أمم الأرض كلها . واننا اذا خطبنا الود لأمة أو لدولة فانما نعمل كغيرنا ونتبع ناموس الطبيعة القاضى بأن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون ! »

ومع ذلك فقد اضطر مصطفى كامل الى أن يعلن فى رأس برنامج الحزب الوطنى أن غرض الحزب هو استقلال مصر الداخلى فقط . وقد علل هو نفسه سر ذلك بقوله فى خطاب الى مدام جولييت آدم تاريخه ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٠٧ : « ... أما الانجليز فلكى ينتقموا استكتبوا الجرائد التى تخدمهم أنى أريد أن أصير خديويا . ولكنى ما تركتهم يتمادون فى طغيانهم ، بل صرحت بأن أول مادة فى برنامجى هى استقلال مصر الداخلى

مع بقاء الحكم فى بيت محمد على . وكل عملى واضح يثبت أنى أوفى صديق للخديو والمصريين . وقد ألجم هذا التصريح أفواه الأعداء ، وقابلت الأمة هذا البرهان الجديد على نزاهتى بخالص الابتهاج »

* * *

ولكن مصطفى كامل ، على الرغم مما حز فى قلبه من مرارة وآلام لم يسمح يوما لليأس أن يتطرق الى فؤاده . « . . . انى أكون وحدى حزبا قد توفر له عطف الرأى العام ، ولكنه وحيد بلا مؤازر . وأرى كذلك اليوم القريب الذى لا يطيق فيه الانجليز ان أقترب من الخديو . ومع ذلك فلا ريب فى أننى سأواصل كفاحى حتى الموت ! » (١٠ مايو سنة ١٩٠٤ الى مدام جوليت آدم) ـ « . . . ان الابتعاد عن الخديو من شأنه أن يجعل لى مركزاً خاصا وسلطانا كبيراً . وطالما كانت هذه الشعلة الوطنية تغذونى وتؤازرنى فانى لا أهاب شيئا ، ولا أرهب أحداً فى الوجود ! » (١٨ نوفمبر سنة ١٩٠٤) ـ « . . . انه لمن أشق الاعمال أن يجاهد المرء ضد الزمن والحوادث والناس ! وليس هناك شىء يؤلمنى أكثر من الانحطاط الأدبى الذى استولى على أولئك الذين كان يجب عليهم أن يكونوا أكبر الناس شمما وشهامة ! لا تتخذى من هذا دليلا على الفتور ولكنها زفرة متألم ! فانى ما زلت ولن أزال أبذر البذر الصالح وأمثل الأمل الحى بالرغم من كل شىء حتى لا تنسى مصر فى أمسها ولا فى الغد ! » (٣٠ ديسمبر سنة ١٩٠٤) ـ « انى عندما أرى من الكبراء جبنا أشعر بأنى أكبر منهم . وان اجتماع وطنيق وكرامتى ينفخ فىّ روحا عالية » (١٦ فبراير سنة ١٩٠٥) . . . انى أعمل واجداً فى الحركة والجهاد أجمل تعزية . وقد أراد الله أن أكون المصرى الوحيد الذى يرفع لواء الاستقلال . وانى شاكر نعمته هذه التى خصنى بها . . . وهذا النشاط العظيم يؤتينى خيراً . فان مواطنى الذين كانوا يعتقدون أو يخشون انى لا أقوى على السير بغير عضد من الخديو يعجبون جهاراً وبكل وفاء بهذه الحيوية والارادة الحديدية ! » (٩ مارس سنة ١٩٠٥) . . . وهكذا نستطيع ان نحصى فى كل يوم من اقوال مصطفى كامل ما ينطق بقوته المعنوية التى لم يتسرب اليها من اليأس كثير ولا قليل . فلا عجب اذا رأيناه مشغولا برسائله وخطبه وأحاديثه السياسية وإنشاء صحف اللواء الثلاث بالعربية ثم بالانجليزية والفرنسية . وبالدعوة لمشروع الجامعة المصرية . فلما وقعت مأساة دنشواى نهض مصطفى كامل بكل جبروته وكل ما وهبه الله من حمية وقوة بيان وطلاقة

لسان فزلزل الأرض تحت اقدام المحتلين وألهب الشعور الوطنى الهابا ، وأنزل العميد العتيد كرومر من عليائه ، مؤلبا عليه شعوب العالم المتمدن كله وفى مقدمته الشعب الانجليزى نفسه . وما زال مصطفى كامل يكتب ويستكتب ويخطب ويناضل فى مصر وفى انجلترا حتى أقصى كرومر عن مصر على أسوأ صورة ، ثم صدر العفو فى ٨ فبراير سنة ١٩٠٨ عمن كانت المحكمة العسكرية قد ألقت بهم ظلما فى غيابة السجن

وكان هذا النصر الباهر خاتمة جليلة لحياة مصطفى كامل ، أعظم شاب فى تاريخ مصر. فقد ناءت صحته بكل ما كان يحملها من أعباء الجهاد تلميذاً وطالب حقوق وصاحب رسالة وطنية سامية . وقد صدق مصطفى كامل إذ كتب الى مدام جوليبت آدم من فيشى سنة ١٩٠٣ يقول : « . . . ان الاطباء قد رأوا أنه من اللازم أن أمضى فى الجبل بعض الزمن ، إذ أخذ التعب يستولى على أعصابى . ولهم الحق فى ذلك فانى ما رحمت نفسى ! » وكان صادقا كل الصدق ، مصوراً للحقيقة المجردة ، حين كتب اليها فى ٢٥ يونيه سنة ١٩٠٥ يقول : « . . . ان العمل قد أضنانى الى حد أشعر عنده بسرعة الحاجة الى ترك الوسط الذى أعيش فيه . وكأن الطبيعة قد خالفت سنتها إذ جعلت قوة روحى أكبر من قوة جسمى ! »

وقد بلغ الاعياء مداه بمصطفى كامل بعد الجهد الجهيد الجبار الذي بذله لاعداد خطبته العتيدة التى ألقاها فى ٢٢ اكتوبر سنة ١٩٠٧ بالاسكندرية فكانت خطبة الوداع . وقد كتب فى ٧ يناير سنة ١٩٠٨ يقول : « . . . انى مريض جداً منذ السابع عشر من شهر نوفمبر . وقد بذلت مجهوداً فوق الطاقة لالقاء خطبتى فى الجمعية العمومية للحزب الوطنى ، وان نجاحى السياسي ونجاح المسألة المقدسة التى أناضل عنها يفوقان كل ما أملته . أما صحتى فهى بين اليأس والرجاء . والاطباء مطمئنون الآن . والسبب فى انتكاسى بعد خطبتى راجع الى مفاجأة المنون صديقا حميما لى كان من أشد نصرائى وأكبرهم (المرحوم لطيف باشا سليم) . »

ولم ينقض على هذا الخطاب شهر وبضعة أيام حتى روعت مصر ترويعا بفقد مصطفى كامل . فلم يبق فى مصر كلها بيت واحد لم يشعر بأن فجيعة فادحة نزلت بين جدرانه . وكان الاحتفال بتشييعه يوما مخلداً فى تاريخ مصر ، وهيهات للقلم أن يصور جلال هذا اليوم ورهبته . فكان هذا الشعور الفياض الحى انتصاراً لمصطفى كامل بعد موته ، ودليلا باهراً على مبلغ توفيقه فى أداء رسالته

كنت أحب أن تنتهى هنا ترجمة مصطفى كامل ، وهى غنية عن كل تنميق أو تزويق .
ولكنى أنتهز هذه الفرصة لأرد ظلما تاريخيا صارخا لاحظته فى البحث القيم الذى وضعه الأديب الكبير الدكتور هيكل بك عن حياة مصطفى كامل . فقد رأيته يقول إن المصريين لما رأوا فشل السياسة الاولى التى جروا عليها : سياسة الاعتماد على فرنسا ثم على أوربا ثم على الباب العالى ، قدر جماعة منهم « أن لا بد من الأخذ بسياسة أخرى هى إعداد الأمة بأدوات الاستقلال من علم وخلق وغرس الايمان بنفسها فى نفسها لا لمجرد كراهية الانجليز ، ولا حبا فى الباب العالى ومقام الخلافة السامى ، ولكن حبا فى الاستقلال والحرية لذاتهما . وكان لطفى السيد بك وزير المعارف السابق لسان الذين فكروا هذا التفكير والذين اعتزموا لبث دعوتهم إصدار جريدة (الجريدة) على أن نفس مصطفى كامل لم تطاوعه ليرى في ميدان الخدمة السياسية العامة من يرى غير رأيه ، لذلك هاجم (الجريدة) قبل صدورها ، وهو من أعرف الناس بصديقه لطفى السيد وبالذين كانوا على رأيه ! »

فهنا مثل بارز لما يمكن ، بل يتحتم ، أن يصيب حقائق التاريخ حين يعرض لها الكاتب السياسى ، لاسيما إذا كان قريب العهد من هذه الحقائق ، وثيق الاتصال ببعض أشخاصها ، فالدكتور هيكل بك ـ ولونه السياسى مشهور ، وصلته بصاحب السعادة لطفى السيد باشا (والذين كانوا على رأيه) صلة معروفة لا تنكر ، هيكل بك هنا يعزو حملة مصطفى كامل على (الجريدة) الى أنه لم يكن يطيق أن يرى فى ميدان الخدمة السياسية العامة من يرى غير رأيه ، والحقيقة التى يعرفها الذين عاصروا ذلك العهد أن (حزب الامة) الذى كان لطفى السيد (بك) من أساطينه ومؤسسيه ، كان حربا على السلطة الشرعية فى البلاد ، وعونا حليفا صادق الود لعميد الاحتلال ! والحقيقة التى يعرفها الذين عاصروا ذلك العهد أن جريدة (الجريدة) ، لسان حال هذا الحزب ، ولدت تحت رعاية دار الحماية ، فاذا لم يعجب الدكتور هيكل بك هذا التعبير ، فلنقل إنها ولدت بتشجيع العميد البريطانى ورضاه ، حتى لقد سمح حينئذ للموظفين بأن يشتركوا علانية فى الاكتتاب لانشائها ، مع السلطان الشامل الكامل الذى كان للانجليز على الموظفين إذ ذاك ! ! والحقيقة التى يعرفها الذين عاصروا ذلك العهد أن الدعوة التى كان يدعو اليها رجال حزب الامة الى الأخذ بسياسة غير سياسة مصطفى كامل « هى إعداد الامة بأدوات الاستقلال من علم وخلق وغرس الايمان بنفسها فى

نفسها لا لمجرد كراهية الانجليز ولا حبا فى الباب العالى ، لم تكن إلا دعوة لخذلان مصطفى كامل فى جهاده الجرىء الصريح لاجلاء الانجليز عن مصر ومواجهتهم بالعداء ، لأن وجودهم كفيل بافساد كل حركة جدية ترمى الى الاصلاح ونشر التعليم والاخلاق !
فكانت دعوة حزب الامة لذلك دعوة للانشقاق فى أحرج لحظات الجهاد ، ومحاولة منكرة لتغطية رجال ذلك الحزب فى مصانعتهم وتمسحهم بالانجليز !

لهذا حارب مصطفى كامل جريدة (الجريدة) قبل صدورها ، ولقد كان جديراً به أن يهاجمها لاسيما «وهو من أعرف الناس بصديقه لطفى السيد والذين كانوا على رأيه !»

جون كيتس

شاعر الحق والجمال

الحق هو الجمال والجمال هو الحق « جون كيتس »



وارحمتاه للغريب فى البلد النا
زح ، ماذا بنفســـه صنعا ؟
فارق أحبــابه ، فما انتفعوا
بالعيش من بعده ، وما انتفعا !

روما . . .
بيازا دسبانيا (ميدان اسبانيا) . . .
فبراير سنة ١٨٢١ . . .

فى غرفة متواضعة بأحد المنازل المشرفة على الميدان ، يرقد شاب فى الرابعة والعشرين من عمره ، قد اصطلحت عليه نوائب الهموم وفواتك العلل والآلام ...

كان طموحا الى المجد ولـكنه لم يلق سوى الجحود والنكران ...

وكان فى غضارة العمر ولـكنه وقع فريسة السل فلم يهنأ بلذة الشباب ...

وكان ينشد البرء فعاجله القدر بحب لاعج أحرق مهجته وأصلاه من نيرانه ماضاعف عليه العلة ومضى به حثيثا الى المصرع الأليم المحتوم . . .

ذلك هو جون كيتس ، الشاعر الشاب الخالد الذى لفظ أنفاسه الأخيرة فى روما ، غريب الوجه واليد واللسان ، نائيا عن أحبابه ، مجحوداً من قومه ، فقيراً يستدر عطف طبيبه فيعالجه لوجه الانسانية ، ثم يدخل عالم الأبدية ولا أهل من حوله ولا خلان ، اللهم

إلا رجلا نبيلا واحداً وهب وقته وراحته وما يملك فى سبيل السهر على هذا العبقرى البائس المجحود !!

كتب الشاعر الناقد الانجليزى المشهور (روبرت بريدجز) يقول :

— لو استطعنا اليوم أن ندعو من عالم الموت شاعراً انجليزيا واحداً ليتم ما تركه من عمل يحتاج الى تمام ، لوضعت انجلترا تاج اختيارها على رأس جون كيتس !

ومع ذلك فان كيتس ظل فى حياته وبعد سنين طويلة من مماته غرضا للمتنقصين من نبوغه ، وهدفا للمتهجمين على عبقريته ، حتى لقد استباح توماس ديكوينسى لنفسه ، وهو ما هو تضلعا فى اللغة الانجليزية واسلوبها ، أن يقول فى سنة ١٨٤٥ :

— لقد داس كيتس لغة أمهاتنا ، لغتنا الانجليزية هـذه ! كما لو كان يدوسها بأظلاف جاموس !

وغنى عن البيان أن النقاد اليوم قد عرفوا لـكيتس مكانه وعبقريته ، فلم يقدموه فى الاسلوب الرفيع على دى كوينسى وحده ، بل انهم ليكادون يجمعون على إحلاله فى المرتبة التى تلى شكسبير وملتون ، ويقدمونه على كل من عداهما فى روعة التعبير وعذوبته

* * *

ولد جون كيتس فى ٢٩ اكتوبر سنة ١٧٩٥ فى عائلة متوسطة الحال . فلم يكد يبلغ التاسعة من عمره حتى قتل أبوه إثر سقوطه عن جواده فى سنة ١٨٠٤ ، وتولت أمه رعايته هو واخوته الثلاثة : جورج ، وهو الاكبر ، وتوماس ، وكان أصغر من جون ، وأختهم التى كانت تصغر الجميع . وقد ورث جون عن أبيه ملامحه وبنيته وخلقه الهادىء السليم ، ولـكنه لسوء الحظ ورث عن أمه أتعس ميراث ، وهو مرض السل الذى أودى بحياته قبل أن يتم ربيعه الخامس والعشرين !

على أن هذا لايعنى أن جون عاش حياته هزيلا ، ضعيف البناء ، خائر القوى ، فتلك هى الصورة الخاطئة التى ساعد على ذيوعها صديقه الشاعر العظيم شلى حين استفزته عاطفة الجزع لموته ، فهاجم الـكاتب الذى انتقد قصيدة من قصائد كيتس ، ووصف هذا الـكاتب بأنه (قاتل) ، مجاراة للاعتقاد الذى كان قد ساد إذ ذاك بأن كيتس قضى نحبه لشدة تأثره بذلك النقد الذى نشر عن قصيدته !

والواقع أن كيتس إنما راح ضحية السل ، رغم ما يؤثر عنه من أنه كان فى أيام

دراسته الاولى ، ممتلئا حيوية طالما دفعته إلى الاشتباك مع اخوانه وزملائه في مشاجرات لا تكاد تنتهي حتى تبدأ

ولقد كانت حيوية كيتس ، وبراعته فى أنواع الرياضة العنيفة ، وكثرة اشتباكه مع اخوانه فى المشاجرات والمعارك اليدوية ، وتمسكه بآرائه واصراره على تنفيذ ما يشاء . كانت هذه كلها دلائل جعلت عارفيه فى تلك الفترة الأولى من سنى الدراسة يتوقعون له مستقبلا عظيما ، ولكن « فى ميدان الحرب أو نحوه من ميادين الحياة العاملة النشيطة ، لا في حظيرة الأدب الهادئة الوادعة ! » كما يقول الكاتب الأديب هولمز رفيقه فى أيام المدرسة

على أن كيتس كان يجمع إلى طبيعته الثائرة الصلبة المشاكسة ، حسا مرهفا وعاطفة مشبوبة نبعت منها فى مستقبل الأيام شاعريته الفذة الصافية المنهل . فلقد كانت عواطفه تتبدل من حال الى نقيضه فى دقائق معدودة . فبينا هو ضاحك مشرق الأسارير لا يكاد يعرف لاغتباطه حد ، إذا هو شديد الحزن منقبض الصدر منهل العبرات فى لحظات متعاقبة ! ويؤثر عنه من قبيل الافراط فى الاسى انه حين توفيت أمه فجاء سنة ١٨١٠ قبع تحت مكتب أستاذه أياما عدة ، مستسلما للاسى الفاجع ، غير متأس بعزاء أساتذته واخوانه المقربين

ولم يكد يمضى على كيتس زمن قصير فى مدرسته ، حتى زالت عنه عوارض المشاكسة التى كانت مستولية عليه ، وحلت محلها روح الولع بالدراسة والتحصيل . فنال كل الجوائز الأولى فى الأدب ، وعزف عن كل ماكان حبيبا اليه من ضروب التسلية واللهو ، وعكف على ترجمة فرجيل وفناون الى الانجليزية فى أوقات الفراغ التى كان يقضيها اخوانه جميعا فى الترويح عن النفس ، حتى لقد كان أستاذه يدفعه رغم أنفه فى كثير من الأحيان الى مغادرة غرفته التماسا للهواء الطلق ، فكان كيتس يأبى الا أن يتناول فى يده كتابا يطالعه فى أثناء نزهته ، وبذلك كان يجمع بين واجب الطاعة لأستاذه وشهوة الاستزادة من الدرس والاطلاع . وفى هذه الفترة المبكرة عرف كيتس اللاتينية ولم يكن قد بدأ يتعلم اليونانية ، فلم يصرفه ذلك عن الأدب الاغريقى بل لجأ الى ما ترجم منه الى الانجليزية ، ثم قرأ الى جانب ذلك قصة روبنسون كروزو ، وبدأ يغترف من منهل شكسبير العظيم ، وليس أدل على مبلغ الخصوبة فى خياله من قوله لأحد زملائه فى المدرسة إذ ذاك : « انني أعتقد أن أحدا من الناس لا يجرؤ على مطالعة (ماكبث) ،

وهو وحيد فى المنزل عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل ! »

وقبل أن يتم كيتس تعليمه فى هذه المدرسة ـ مدرسة مستر كلارك ـ كان قد فقد آخر أقاربه ، فعهد بتربية الاخوة الأربعة الى رعاية تاجر يدعى مستر أبى Abbey وكان ما بقى لهم جميعا من مال لا يزيد على ثمانية آلاف من الجنيهات . فلما ترك كيتس مدرسة كلارك فى صيف سنة ١٨١٠ ، أى فى الخامسة عشرة من عمره ، أرسل لدراسة الطب خمس سنوات عند جراح على جانب من الشهرة فى ادمونتون يدعى مستر هاموند . ويظهر أن أحداً لم يستشر كيتس فى شأن مستقبله وانما أرسل لدراسة الطب فامتثل . ولعله لو سئل ماذا يختار لفضل متابعة ما كان قد أخذ فيه من دراسة أدبية ، وآثر تأليف التحف الفنية على تشريح الجثث البشرية !

على ان القدر كان رفيقا بكيتس فى ناحية لعلها الوحيدة التى نستطيع ان نحس فيها رفق القدر فى حياته المترعة بصنوف القسوة وألوان السخرية والجحود . ذلك أن ادمنتون لم تكن تبعد كثيراً عن انفيلد ، فبقيت أواصر التعارف معقودة بين كيتس وأسرة مستر كلارك ، ثم توثقت عرى الصداقة بينه وبين تشارلز كاودن كلارك ، نجـل رب الأسرة . وهو شاب كان يكبر كيتس بسنوات قلائل ، ولـكنه كان يتفق معه فى المشرب الروحى والفـكرى ، وكان على ما يظهر قوى الشخصية واسع الاطلاع فانتفع كيتس بهذه الصداقة الى أبعد حد . ثم سجل أمام التاريخ دينه لصديقه فى احـدى عيون مقطوعاته ، وهى المعنونة (الى تشارلز كاودن كلارك)

أنظر اليه يعترف بوجوده كله لهذا الصديق الذكى ، المطلع ، المرهف الحس . فيخاطبه بقوله :

Nor should I now, but that I've known you long ;
That you first taught me all the sweets of song :

ثم يفصل هذه الألوان العذبة من الغناء التى كان صـديقه أول من لقنه إياها ، فيقول انها :

The grand, the sweet, the terse, the free, the fine ;
What swelled with pathos, and what right divine :

ثم انظر اليه كيف يمضى فيحلل فى كلمات معدودات نواحى الروعة والمتعة التى تتجلى فى بدائع الشاعرين العظيمين سبنسر وملتون ، فيقول :

Spensarian vowels that elope with ease,
And float along like birds o'er summer seas ;
Miltonian storms, and more, Miltonian tenderness ;
Michael in arms, and more, meek Eve's fair slenderness.

ويظهر أن تشارلز كلارك كان مجوداً فى مطالعة الشعر ، ولهذا استطاع أن يترك فى ذهن الشاب الشاعرى الخيال والعاطفة صوراً دقيقة لخصائص كل نوع من أنواع الأوزان الشعرية . كما كان يحفز صديقه الى مطالعة الملاحم التى تصف وقائع البطولة الوطنية الخالدة . ومن هنا ترى كيتس يخاطبه بقوله :

You too upheld the veil from Clio's beauty,
And pointed out the patriot's stern duty ;
The might of Alfred, and the shaft of Tell ;
The hand of Brutus, that so grandly fell
Upon a tyrant's head.

ثم يصيح كيتس صيحة من أعماق قلبه الوفى المخلص العارف بالجميل فيقول لصديقه :

Ah ! had I never seen,
Or known your kindness, what might I have been ?

الى هذا الحد كان كيتس يشعر بدينه لصديقه تشارلز كلارك . ولا غرو ، فما كان كيتس ليغترف من مناهل الأدب الانجليزى واليونانى لولا هذا الاختلاط الاجتماعى الذى تمتاز به الحياة الغربية عامة ، والانجليزية بنوع خاص

ومثل كيتس هنا كمثل شكسبير ، لم يتبحر فى الأدب من طريق البرامج المدرسية ، بل من طريق الصلات الاجتماعية . فكان كيتس يتلقى دراساته الأدبية من طريق تشارلز كلارك ، كما كان هذا فى دوره يتلقى كثيراً من الدراسات على يدى صديقه الأديب السياسى المشهور لى هنت ، فى أثناء تجواله بالغابات ذات الظل الظليل والسكون الرائع المرهوب !

* * *

بعد ان قضى كيتس فترة التمرين الطبى فى إدمونتون انتقل الى لندن لممارسة مهنته بأحد المستشفيات سنة ١٨١٦ ، وأتيح له في العام التالى أن يحظى بمعرفة لى هنت ، وقد سبقت الاشارة اليه ، فلم تلبث المعرفة ان انقلبت صداقة عميقة فيها كل ما يرتفع بالصداقة الى ذروة السمو والنبالة : تبجيل ووفاء من ناحية الشاعر الشاب ، وتقدير ورعاية من ناحية الأديب المثقف الحر الفكر . وفى كنف هذه الصداقة انهلت بواكير الشاعرية العذبة التى يستمتع بها قراء الانجليزية اليوم. فلم يكد ينقضى العام حتى ظهر فى عالم المطبوعات أول دواوين كيتس مصدراً بقصيدة يقدم فيها الديوان إلى هنت معلنا فى وفاء وتواضع واخلاص أنه يشعر بالسعادة ويبارك القدر الذى يتيح له أن ينال بجهوده المتواضعة رضى

رجل مثل لى هنت . وفى ذلك يقول كيتس من قصيدة الاهداء :

But there are left delights as high as these,
And I shall ever bless my destiny,
.. ..
...., seeing I could please
With these poor offerings, a man like thee.

ويشاء الحظ العاثر أن لا ينال هذا الديوان كثيراً ولا قليلا من النجاح أو ما يشبه النجاح . فلم يعن أحد من القراء باقتنائه أوشرائه . وكانت هذه صدمة شديدة الوقع فى نفس الشاعر الشاب المتطلع الى ذرى المجد . ولكنه حين وازن بين الاعجاب الشديد الذى قوبل به الديوان من جانب الاصدقاء وخاصة الأدباء المتصلين به ، وبين الجحود التام الذى قوبل به من جانب جمهرة القراء عمد الى إلقاء التبعة فى هذا الفشل على عاتق الناشر المسكين ، فانفصمت بذلك عروة الصداقة التى كانت تجمع بينه وبين مستر أولير Ollier ذلك الشاعر الشاب الأديب الذى تطوع بنشر الديوان اعجابا بشاعرية كيتس

***

ظهر الديوان الأول فى مارس سنة ١٨١٧ . فلم يكن سقوطه ليصد كيتس عن سبيل الشعر . بل أخذ يقرض فى السنة عينها قصيدته المشهورة (إندميون) التى نشرت فى سنة ١٨١٨ عند ما كان يدع قصته (إزابيلا) . ثم رحل الى البحيرات الانجليزية وغرب اسكتلندا . أما مهنة الجراحة فكان قد هجرها نهائيا وصمم على أن يقطع صلته بها رغم أن النجاح لم يخطئه فى أية عملية أجراها . لان فكرة غريبة تسلطت على ذهنه وجعلت استمراره فى مزاولة الجراحة عبثا لا يحتمل . فقد كان فى خوف دائم من أن يخطىء فى أثناء احدى العمليات فيزهق بذلك أرواحا بريئة بغير حق ! ولا شك أن لخيال كيتس وحسه المرهف أكبر الأثر فى تجسيم هذا الخوف الذى قطع عنه مورد رزقه وألقاه فى خضم الحياة وهو لا يكاد يملك قوته اليومى ، ومن حوله أصدقاء أوفياء يعدون على الأصابع

ذهب كيتس الى منطقة البحيرات الانجليزية التماسا للصحة ، بعد ان بدت عليه علائم الضعف والاعتلال . ولكنه لم يلبث ان أصيب بالتهاب فى الحلق فاختصر رحلته وعجل بالعودة الى لندن . وفي أغسطس وسبتمبر ظهر فى صحيفتى (الكورترلى) و (بلاكوود) مقالان فى نقد قصة (اندميون) سداها التحامل البذىء ولحمتها الكيد السياسى الوضيع انتقاما من كيتس لصداقته الوثيقة بلى هنت واجترائه على تهنئته بالخروج من

السجن الذى كان قد زج فيه بسبب حملاته السياسية العنيفة

ولقد أشرنا من قبل الى خطأ الذين يعزون لهذين المقالين اشتداد العلة على كيتس والتعجيل به الى الخاتمة الأليمة . ولكن هذا لا يمنع أن يكون كيتس قد حزن لظهورها بعد أن كان يعلق أكبر الآمال على كتابه الجديد . واذا كان شلى لفرط محبته لصديقه كيتس وشدة فجيعته فيه ، واذا كان يرون مدفوعا من ناحيته بعاطفة الاشفاق على مصير الشاعر الشاب ، مسوقا من ناحية أخرى بالرغبة فى التكفير عن سابق تجنيه على عبقريته ـ اذا كان كلا الشاعرين قدقطع بأن كيتس راح ضحية هذين المقالين المشئومين ، فان وثيقة تاريخيـة أخرى أقرت الأمر فى نصابه ، وردت عن كيتس وصمة الضعف والخور والتخاذل أمام النقد والتجريح . فقد جاء فى خطاب من كيتس الى الناشر هيسى Hessey تاريخه ٩ اكتوبر سنة ١٨٠٨ هذه العبارات التى تدل على مبلغ إيمان الشاعر برسالته ، وحسن تقديره لما ينبغى عليه من مثابرة وجد وانتفاع بالتجارب

« . . . لقد بدأت أزداد علما بنفسى وما تنطوى عليه من قوة وضعف ، وان المدح والقدح كلاهما لايترك إلا أثراً موقوتا فى نفس الرجل الذى يدفع به حب الجمال المعنوى الى أن يصبح ناقداً قاسى الحكم على نتاج فنه . ولهذا عانيت من جراء نقدى لنفسى ألما لا يقارن بما يمكن أن يكون قد نالنى من مقال (بلاكوود) أو (كوارترلى) ولكنى أيضا حين أحس بأنى على حق ، لايمكن أن اظفر من اطراء الآخرين بالغبطة التى أنالها من إحساسى وإدراكى الشخصى لكل ما هو جميل .. انى سأكتب ما أريد . فلأكتب بعد اليوم مستقلا واذا كنت قد كتبت من قبل مستقلا من غير تدقيق فلأكتب اليوم مستقلامع التدقيق . فعبقرية الشعر يجب أن ترفع نفسها بنفسها ... وعلى الخالق أن يخلق نفسه بنفسه . . . »

ويقول كيتس فى خطاب الى أخيه جورج تاريخه ٢٩ اكتوبر سنة ١٨١٨ :

« . . أعتقد أننى سأصبح بعد موتى فى عداد الشعراء الانجليز . وأما محاولة هدمى فى جريدة (كوارترلى) فلم تثمر سوى زيادة الاهتمام بأمرى وذيوع شأنى . . وليس مما يضيرنى فى المجتمع أن يحاول أحد تصغير شأنى والسخرية منى . فانا أعرف مقام الرجل الذى يفضلنى وأوليه ما يستحق من تبجيل ، وبذلك أجعله آخر من يضحك منى . . . »

فهذه فقرات قاطعة الدلالة على أن دعوى تخاذل كيتس الى حد الحزن القاتل بسبب

ذينك القائلين هى دعوى منقوضة لا تستند من الحق والواقع على أساس

***

فى اكتوبر سنة ١٨١٨ خط القدر أول سطر فى صفحة يحفظها التاريخ بين أخلد صفحات الحب وأحفلها بتباريح الشوق وحرارة الاخلاص ولوعة الأسى الفاجع المحرق

التقى كيتس أول الأمر بفتاة تدعى جان كوكس Jane Cox قال عنها فى خطاب الى شقيقه جورج كتبه فى ٢٩ اكتوبر سنة ١٨١٨ :

« . . انها ليست كليوباطرا ولكنها على الأقل شرميون ، غنية بملامحها الشرقية ، ساحرة العينين ، جميلة الخلق ، إذا دخلت غرفة شع منها نفس السحر الذى يشع من جمال الفهدة . . انى أرتاح دائما إلى مثل هذه المرأة ، فان رسمها ليضفى علىّ دائما حياة وحيوية لايمكن أن أحس بهما تحت تأثير أى مخلوق دونها .. إننى لأنسى وجودى تماما لأننى أحيا فيها ! »

هذه لغة تحمل بين طياتها ولا شك نفحة من نفحات الحب . فلا غرو أن يخطىء مؤرخو كيتس فيظنوا أن (شرميون) التى يشير اليها فى هذا الخطاب هى معشوقته وخطيبته التى تبين فيا بعد أن اسمها (فانى برون) Fanny Brawne وحتى اللورد هاوتون فى ترجمته لكيتس يعقب على الخطاب الذى اقتبسنا منه الفقرة السابقة بقوله :

« يحسن أن نقرر فى الحال أن السيدة التى أشير اليها فى الصفحات السابقات قد ألهمت كيتس تلك العاطفة التى لم تخمد إلا بوفاته ! »

وهذا خطأ لم يكن عجيبا كما قلنا أن يقع فيه مترجمو كيتس . ولقد كان الشاعر صادقا كل الصدق ، مخلصا أتم الاخلاص فى الابانة عن حقيقة عواطفه حين أردف العبارات السابقة فى خطابه الى أخيه بقوله :

« سيتبادر الى ذهنك عند هذا أننى أحبها ، فأود قبل أن امضى الى ما هو أبعد من ذلك ، ان أقول لك انني لست كما تظن . انها قد أسهرتنى ليلة كاملة ، ولكن كما يفعل بالانسان أحد ألحان موتسارت . . »

على أن كيتس حين كتب هذا الخطاب لم يكن يدرى ما يعد له القدر ، فهو لم يكد يبعث به الى أخيه حتى قابل فانى برون ، وهى فتاة فى الثامنة عشرة ، تصغره بأعوام خمسة ، نحيلة ، رقيقة ، وسيمة ، لولاها لم يعان كل هـذه الآلام التى تنضح بها خطاباته الخالدة . ولولاها كذلك لم يظفر العالم بأعظم ما انتجت عبقرية كيتس من

أمثال قصائده : « الى البلبل » و « الاصيص الاغريقى » و « النجم المتألق » وغيرها من فرائد الأدب

وصف كيتس فانى برون بمحاسنها ونقائصها فقال إنها « جميلة ، رشيقة ، لطيفة ، سخيفة ، متأنقة غريبة الاطوار » ونعتها مرة أخرى بأنها «لعوب» ، ويظهر أنها كانت على شيء من الخفة التى لا تستغرب على فتاة فى حداثة سنها . فأشعلت فى نفس حبيبها الشاعر الشاب روح الغيرة المحرقة ، مما دفع النقاد والمؤرخين إلى التحامل عليها والقاء ذلك اللون القاتم على سيرتها ، حتى لقد قال السر سدنى كولفين إن حبها كان أعظم نحس صادف جون كيتس ! وهو حكم يخفف من قسوته قول السرسدني بعد ذلك إن ظروف الشاعر نفسها كانت كفيلة بأن تجعل غرامه بأية امرأة مصدراً لشقائه

وشبيه بهذا الرأى قول لورد هاوتون إن قوة العاطفة فى حب كيتس كانت من عوامل فنائه وسيره إلى الموت بخطى سريعة . فلو كانت حيويته أقل لجاز أن تكون حياته أطول !

دخل كيتس هيكل الحب فاذا هو خائف مضطرب العواطف ، يحاول أن يقاوم سلطانه الغلاب فيقول فى خطاب إلى أحد أصدقائه :

« إننى لأبغض رضى الجمهور وحب المرأة على السواء . فكلاهما كالمادة اللزجة تحول دون استقلال الجناحين ! »

وفى نفس الشهر الذى كتب فيه الخطاب السابق بعث الى فانى برون من جزيرة وايت ـ حيث ذهب انتجاعا للصحة ـ يقول :

« سأتخيلك الليلة فى صورة الزهرة (فينوس) ثم أصلى ، وأعيد الصلوات لنجمك كما يفعل عابد الوثن ! »

عاد كيتس ذات ليلة فى نحو الساعة الحادية عشرة فى حال من الاضطراب أشبه ما تكون بالسكر الشديد ، وقال لصديقه ورفيقه الخاص الحميم براون إنه أصيب بلفحة برد ، وانه يحس ببقايا حمى خفيفة زالت عنه ، فأشار عليه صديقه بأن يأوى الى الفراش . وبينما هو يعتلى فراشه أصابه سعال خفيف قبل أن يضع رأسه على الوسادة . فلم يلبث أن قال لصديقه :

— لقد طفح الدم من فمى . احضر القنديل لأرى هذا الدم !

وحملق الشاعر المسكين لحظات فى تلك البقع القرمزية ثم وقع بصره على وجه صديقه فى سكون مفاجىء رهيب وقال :

— اننى أعرف لون هذا الدم . إنه دم الشريان . لا يمكن ان أخطىء فى هـذا اللون . إن تلك النقطة نذيرى بالموت فأنا ميت لا محالة !

بادر براون فى الحال الى دعوة أحد الجراحين ، وبعد عملية فصد الدم استغرق كيتس فى نوم هادىء . وكان من رأى الجراح أن الرئتين سليمتان وأن الحالة غير خطرة . ولـكن المريض ـ وهو أيضا طبيب ، أو على الأصح كان طبيبا ـ لم يكن يرى رأي الجراح الذى عالجه . فكانت روح اليأس غالبة على نفسه وإن فارقته فى أحيان قليلة فنراه يوما يقول لصديقه براون :

— اذا كنت تتمنى لى الشفاء ، فلوح لى بالأمل فى السعادة حين أسترد صحتى ، فانا الآن من الضعف بحيث أقبل التعلل بالأمل !

وفي يوم آخر نراه يقول :

— انظر الى يدى ! انها يد رجل فى سن الخمسين !

ولـكن كيتس فى أشد ساعات ألمه وسقمه لم يغفل قط عن ذكر حبيبته . فقد كتب اليها يقول إنه فى تلك الليلة المشئومة التى أصيب فيها بالنزف ، وأيقن أنه أصبح على أبواب الأبدية ، لم يكن يشغل ذهنه إلا ذكرها ! ثم كان يكتب اليها يوما بعد يوم ، وهو طريح الفراش فى مسكنه المجاور لدارها فى هامستد ، خطابات تفيض بعبارات الشوق والاخلاص والوفاء

فهو تارة يقول فى أحد هذه الخطابات اليها :

« . . . يعلم الله وحده هل قدر لى أن أذوق معك السعادة أو لا ، ولـكنى على كل حال أعلم شيئا بعينه ، هو أننى أعدها سعادة غير قليلة أن أكون قد أحببتك الى هذا المدى ـ فاذا لم يقدر لحبي أن يمضى الى أبعد من هذا لم أكن من الجاحدين »

وفى خطاب آخر :

« ... انك دائما فى تجدد . ولقد كانت آخر قبلاتك أوفرها حلاوة . وآخر بسماتك أكثرها إشراقا ، وآخر خطواتك أكثرها رشاقة . فلما مررت بنافذتى أمس ملأنى الاعجاب بك كأنها أول مرة أراك ... اننى لم أشعر قط أن ذهنى يطمئن فى لذة تامة صافية الى أى شخص سواك »

ان ناقداً منصفاً لا يسعه أن يقف على هذه المعانى البديعة ثم يسلم برأى الذين يزعمون أن فانى برون لم تجلب للشاعر العظيم سوى الآلام والأحزان

ولعل أصدق تحليل لهذه المأساة هو أن سرها لا يرجع الى فانى برون ، وانما يرجع الى صحة الشاعر الشاب ، وأعصابه الثائرة التى كانت تجسم له صنوف الشكوك والوساوس ، وتدفعه الى أن يسأل نفسه بغير انقطاع عما اذا كانت (فانى) ثابتة العهد والوفاء له رغم اعتلاله ، وبؤسه ، وإملاقه ، وخمول شأنه

كانت ظروف كيتس وأعصابه تلهب صدره بنيران الغيرة التى تكاد تجعله فى عداد شخوص الروايات . ألم تدفعه هذه الغيرة الى حد اتهام فانى بمغازلة صديقه النبيل براون؟ ألم تدفعه الغيرة الى أن ينهى فانى عن استجابة دعوات الداعين أو أن تذهب وحيدة الى المدينة ! ؟

ألم يكتب اليها وهو مقيم فى بيت لى هنت يقول :

« أتوسل اليك بدم المسيح الذى تعتقدين به ، ألا تكتبي إلى اذا كنت قد أتيت فى هـذا الشهر أمراً كان يؤلمنى أن أراه . لعلك قد تغيرت ـ فاذا لم يكن ذلك ـ اذا كنت لا تزالين على ما رأيت من سلوك فى قاعات الرقص وغيرها من المجتمعات ـ فانني لا أريد ان أعيش . واذا كنت قد فعلت شيئا يؤلمنى فانى أرجو ان تكون الليلة القادمة آخر عهدى بالحياة . انى لا أستطيع ان أعيش بدونك ، ولـكن لا بدونك أنت فقط ، بل أنت العفيفة ، انت الطاهرة !! »

هكذا كان يكتب كيتس الى هذه الفتاة الوفية التى لا يستطيع أحد ان يثبت عليها شبهة من شبهات الخيانة أو الغدر . وهـذا كيتس نفسه يكتب اليها بعد ذلك نادماً معتذراً ثم يقول :

« انى أود ان اعتقد بالخلود ـ أود ان اعيش معك الى الأبد »

***

وعبثا حاول كيتس أن يستعيد صحته أو يخلص من ازمات المرض العضال الذى استقر فى صدره . فاستقر الرأى فى ربيع سنة ١٨٢٠ على أن يقوم الشاعر الشاب برحلة طويلة الى ايطاليا تبديلا للهواء . وعندئذ تقدم صديقه الرسام العظيم سيفرن ، الذى منح (المدالية الذهبية) للأكاديمية الملـكية فى لندن بعد ان بقيت اثنى عشر عاما لا تمنح أحـــداً من الرسامين ضنا بقيمتها أن تذهب بمنحها لمن لا يستحقها عن جدارة تامة ـ تقدم سيفرن

لمرافقة كيتس وفاء له ورداً لجميله السابق فى الدفاع عنه وصد حملات الحاقدين عليه حين منح المدالية الذهبية . وضحى سيفرن حينئذ بما ينتظره من مجد وثروة ، مؤثراً على ذلك كله أن يخدم هذا العبقرى البائس المريض ويرافقه فى غربته ، مؤنسا وحدته ، مسريا عنه ، متوليا تدبير شؤونه والسهر على راحته

وصل كيتس ورفيقه الى نابلى ، فى آخر اكتوبر سنة ١٨٢٠ بعد رحلة تضاعفت آلامه فى شطرها الأخير ، كما زاد من متاعبها استمراره فى الحجر الصحى عشرة أيام . فلم يكد يهبط المدينة حتى كتب فى اليوم التالى الى صديقه براون يقول :

«... ان اعتقادى المتزايد بأنى لن أراها (يشير الى فانى برون) بعد الآن سينتهى بقتلى . أى عزيزى براون ، كان ينبغى أن أنالها وأنا متمتع بالصحة ، وعندئذ كنت أبقى سليم البدن . انى لأطيق ان أموت ولكنى لا أطيق ان أفارقها . أواه ، يا إلهى ! يا إلهى ! يا إلهى ! ان كل شىء فى حقائبى يذكرنى بها فيخترق صدرى كما تفعل السهام . وان البطانة الحريرية التى وضعتها فى قبعة سفرى لتلهب رأسى الهابا ! ان مخيلتى لفظيعة الحيوية فيما يتعلق بها – انى أراها وأسمعها .. »

ويذكر الشاعر المضنى ايام كان فى هامستد يرمق منزل حبيبته طول النهار ثم يقول :

« كان الأمل كبيراً إذ ذاك فى ان أراها ثانية . أما الآن ! آه ، لو استطعت ان ادفن قريبا من دارها . انى أخشى ان أكتب اليها أو ان اتلقى خطابا منها – ان قلبى ليتحطم اذا رأيت خطها – حتى ذكرها على أى وجه من الوجوه ، او رؤية اسمها مكتوبا على اى شىء – حتى هذا يفوق ما استطيع ان احتمل ! »

وانتقل كيتس من نابلى الى روما وذهب الى طبيب عظيم الشهرة هو السر جيمس كلارك ، فقدم له خطاب توصية كان يحمله . فلم يدخر الطبيب الكريم جهداً فى تقديم كل ما يستطاع من رعاية وعطف وعناية . وأسكنه فى ميدان اسبانيا (بيازا دسبانيا) أمام مسكنه . ولكن الجهل السائد اذ ذاك أثار الخرافات والأوهام حول الشاب المريض ، وأخذ الأهلون يفرون منه فرار السليم من الاجرب . إذ كانوا لجهلهم يحسبون مرضه وباء سريع الانتشار . وهكذا وجد كيتس روح القطيعة والنفور فى أحوج أوقاته الى الود والايناس

وأخيراً شاء القدر الا تطول هذه الحياة المترعة بالبؤس والآلام ، فقد اشتدت العلة على كيتس واضطربت معدته حتى كانت تؤلمه أشد الألم كلما حاول أن يقرأ أو يكتب . فلا

غرو أن يقول لصديقه براون فى آخر خطاب خطته يده وتاريخه ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٢٠
« لقد أصبحت أحس احساسا لا يفارقنى بأن حياتى الحقة قد انقضت ، وأننى أعيش من وراء القبر ! »

أما خاتمة المأساة فقد سجل مراحلها الصديق الوفى النبيل (سفرن) فى عبارات تثير الاسى والشجن . ولا يسعنا سوى أن نقتبس من وصفه هذه الفقرات المؤثرة فى بساطتها وصدقها وايجازها :

١٤ ديسمبر ـ أخشى أن يكون كيتس المسكين فى أسوأ حالاته . فقد حلت به نكسة لم تكن منتظرة ألزمته الفراش وجعلت كل الاحتمالات ضده . ان آلامه عظيمة ، متصلة ، وقد تلاشت قوته تماما حتى أصبح هذيانه محتوما عند أول تطور جديد

١٧ ديسمبر ، الساعة الرابعة صباحا ـ لقد نام الآن فقط ... للمرة الأولى فى الليالى الثمانى الماضية .. وقد سال الدم من فمه عند السعال خمس مرات الى الآن . وهو لا يهضم شيئا ما ، ومع ذلك لا يفتأ يطلب الطعام ، ويؤكد فى كل يوم أنه سيموت جوعا ، فاضطررت لاعطائه أكثر مما كان مسموحا به ، ان مخيلته وذاكرته تصوران له كل شىء فى صورة مروعة : فهو يذكر فى فزع « صديقه الطبيب براون » ويذكر « أسابيعه السعيدة الأربعة الى جانبها » (فانى برون) ويذكر أخته وأخاه !

١٥ يناير سنة ١٨٢١ ، منتصف الثانية عشرة ـ لقد نام كيتس المسكين الآن ، وقد سهرت عليه وظللت أقرأ له حتى أغمض عينيه . وقد قال لى : « سيفرن ! اننى أرى تحت هدوء نظرتك تجلدا عظيما ـ انك لا تفهم ما تقرأ . وانك لتحتمل فى سبيلى أكثر مما أود أن احملك . أواه ، ليت ساعتى الأخيرة تحين ! »

لقد أبى تورلونيا صاحب المصرف ان يعطينا أية نقود بعد ما أخذناه وأعاد الاذن مرفوضا ، ولا بد لى ان أدفع غداً آخر ربع جنيه معى ايجارا لهذا المسكن اللعون ، والانكى أنه إذا مات أحرقت كل السرر و الأثاث وأعيد طلاء الجدران، وعندئذ أطالب أنا بمائة جنيه أو تزيد ! ولكن أهم من ذلك كله هذا الفتى النبيل الطريح فى فراشه محروما من الهدوء الروحى البسيط الذى يناله كثير من الحمقى والفاليك فى الرمق الاخير! انه لايقوى على قراءة أى خطاب يتلقاه ، وقد طلب ان أضع الخطابات بجانبه دون ان افضها . فهى تمزق قلبه ـ ولهذا لم يعد يقوى على مشاهدة غلافها »

١٤ فبراير ـ . . . أخذ الهدوء والصفاء يستوليان على عقله . . . وقد تكلم الليلة

كثيراً جدا ، ولـكن فى هدوء استغرق بعده فى نوم هنىء . وقد كان أهم ما طلب الى الليلة أن ينقش على قبره هذه العبارة :

هنا يرقد انسان كتب اسمه على صفحة الماء !

. . . لقـد وصل خطاب أعطيته كيتس ظنا منى أنه منك ، ولـكنه لم يكن كذلك ويا للحزن . فقد ألقى عليه نظرة لم تلبث أن حطمته وأثرت فى نفسه اياما عدة ، ولم يقرأ هذا الخطاب ، فلم يكن ليستطيع ذلك ، بل طلب الىّ ان اضعه فى نعشه مع كيس وخطاب آخر من أخته

٢٧ فبراير ـ لقد مضى ! وفارق الحياة فى أتم هدوء ـ كأنما استسلم للنوم . فى الثالث والعشرين ، قبيل الساعة الرابعة أقبلت طلائع الموت . فقال لى : « سيفرن . . انى ... ارفعنى ... انى أموت ... سأموت بسهولة . لا تفزع . . تجلد واشكر الله على أن الساعة قد أتت »

* * *

هكذا انطفأت آخر خفقة فى السراج ...

ومضى الشاعر الشاب جون كيتس الى خلود الأبدية ، ثم عاد اليه بعد أن مات حقه فى الخلود بين أعظم شعراء العالم

جان دارك

رمز الايمان والتضحية



قد يبدو من المستغرب أن نخص جان دارك بفصل من فصول هـذا الـكتاب الذى يتناول تراجم عدد من أشهر العظماء (الشبان) . والحق أن لفظ (الشبان) يطلق على الجمع المختلط من الجنسين . ولـكن هذا وحده ما كان ليقوم عذراً سائغا لاقحام ترجمة جان دراك بين دفتى هذا الـكتاب ، وانما يشجع على ذلك ما عرف عن شهيدة الوطنية من خروج على مألوف الحياة النسوية الوديعة ونزوع الى الخشونة والتشبه بالرجال حتى فيما يلبسون من أزياء !

ولقد كان لمسألة الزى هذه أثر عظيم فى تاريخ جان دارك وفى توجيه الدسائس التى انتهت باعدامها. وما زال المؤرخون يختلفون أشد الاختلاف فى تعليل استمساك جان دارك بهذا الزى ، حتى فى المناسبات التى كان ينبغى أن تتغلب فيها الطبيعة النسوية ، فتوحى الى فتاة ناضره الشباب أن تطرح زى الرجال لتزدان بأثواب النساء

عرض برنارد شو لهذه النقطة بالتحليل فى المقـدمة المستفيضة التى قدم بها روايته المشهورة عن جان دارك . فتساءل :

« .. لماذا لم تذهب فتاة كهذه تحمل رسالة خاصة من السماء الى ولى العهد ؟ (فـكهذا كانت تنظر جان دارك الى المشروع الذى وضعته بمهارة فائقة لتخليص ذلك الملك غير المتوج من ورطته الشنعاء) ــ لماذا لم تذهب فتاة كهذه بكل بساطة الى البلاط فى ثياب النساء ، لاقناع ولى العهد على طريقة النساء بقبول مشورتها ، كما جاءت قبلها نساء أخريات يحملن مثل هذه الرسالة الى والده المجنون وجده العاقل ؟ ! لمـاذا كانت تصر على أن

يكون لها ملابس الجندى ، وأن يكون لها ما له من سلاح وسيف وجواد وعدة ، ولماذا كانت تصر على معاملة جندها معاملة الرفاق ، فتنام معهم على الأرض جنبا الى جنب حين يجن الظلام كأن لم يكن بينها وبينهم فارق جنسى ؟ قد يرد على ذلك بأن هذه كانت أسلم وسيلة للسفر فى بلد تشيع بين أنحائه جنود الاعداء وعصابات الناهبين الآبقين من كلا العسكرين . وهذه إجابة لا يقام لها وزن ، لانها تنطبق على كل امرأة كانت تسافر في فرنسا حينئذ ، دون أن تحلم بالسفر فى غير ثياب النساء . وحتى اذا قبلنا هـذا الرد ، فكيف نطبقه على الحقيقة الواقعة ، وذلك أنه حتى بعد أن زال الخطر وأصبح فى مستطاعها أن تقصد فى ثياب النساء الى القصر الملكى ، حيث تكون فى مأمن تام ويكون ملبسها بالطبع أكثر لياقة ، نجدها رغم ذلك تذهب فى زى الرجال ! ثم هى بدل أن تحث شارل – كما كانت الملكة فكتوريا تحث وزارة الحربية على ارسال روبرتس الى البرتغال – على ارسال دالنسون وديريه ولاهير وغيرهم لنجدة دينوا في أورليان ، بدل أن تفعل ذلك تصر على أنها يجب أن تذهب بنفسها لتتولى القيادة فى حملة الهجوم ؟ ولم هذه الحركات الاستعراضية التى كانت تقوم بها تدليلا على مهارتها فى الرمى بالحراب ، وبراعتها فى ركوب الجياد ؟ ! »

وفى أثناء محاكمة جان دارك الأولى سألها بوبير عضو المحكمة (إن صح أن يطلق على مثل تلك الهيئة المأجورة هذا اللفظ) :

– أى ثوب كنت ترتدين ؟

فأجابت :

– كنت أرتدى ثوبا من ثياب الرجال وأتمنطق بسيف أخذته من دى بودريكور ، ولم يكن معى سلاح غيره

ولكن المحكمة لم تكن معنية بأمر السلاح الذى كانت تحمله جان بل كان همها الأكبر مسألة الزى الذى خرجت به على المألوف وتشبهت بالرجال ، فعاد بوبير يسألها :

– ومن الذى نصح لك بأن ترتدى ثوب الرجال ؟

ولما فطنت جان الى أن المقصود استدراجها الى اجابة معينة هى أن (أصوات) جان المقدسة هى التى نصحت لها بذلك ، ومن هنا تستطيع المحكمة التنديد بتلك الأصوات التى توحى بما يخالف تقاليد الكنيسة وتعاليمها – لما فطنت جان الى ذلك رفضت باصرار أن تجيب عن السؤال رغم تكراره ، طالبة الى القاضى أن ينتقل الى موضوع آخر !

ولـكنه لا يكاد (ينتقل الى موضوع آخر) حتى يعود الى مسألة الزى فيسألها :

— هل (الصوت) هو الذى نصحك بهذا الزى ؟

فتفادت الجواب الصريح قائلة فى لباقة نادرة :

— أعتقد أن (الصوت) كان يزورنى دائما بنصائح طيبة !

ولما صدر الحكم بالسجن المؤبد على جان ذهب وراءها كوشون ، رئيس المحكمة الخائن ، ولفتها الى أن من بين الشروط التى أخذت عليها ووقعتها ، نصا تتعهد فيه بألا تعود الى ارتداء زى الرجال ، فاذا فعلت كانت كافرة تستحق أن تموت حرقا ! وبهـذا وضعت الخطة التمهيدية ، كما يعتقد بعض المؤرخين ، غير الانجليز ، لاستبدال حكم الاعدام بحكم السجن المؤبد . فقد عادت جان دارك الى التزيى بأزياء الرجال ، إما عن طواعية واصرار على العناد ، وإما عن دسيسة مدبرة كما يقول بعض المؤرخين، وفحوى هذه الدسيسة أن جان تفقدت ملابسها النسوية ذات يوم فى السجن فلم تجدها وانما وجـدت على مقربة منها بعض ملابس الرجال فاضطرت الى ارتدائها . ولـكن الذى يلفت النظر هو أن جان نفسها حين حضر كوشون الى السجن على الأثر لاستجوابها لم تذكر له شيئا عن هذه الدسيسة ، مع أنها لو فعلت لما أثر ذلك فى كرامتها أو قدسية رسالتها ، ويزيد الأمر غرابة أن أحد القضاة قد صرح فعلا بارتيابه فى أن تـكون جان قد عادت الى ملابسها طائعة مختارة دون أن يشعر بذلك رجال الحرس ، ومع ذلك نرى موقف هذا القاضى لايشجعها على انتهاز الفرصة للـكشف عن الدسيسة والدساسين ، وتعزيز نظرية القاضى بالأدلة والبراهين ! فقد سئلت جان دارك :

— لماذا عدت الى هذا الزى ؟

فأجابت اجابة صريحة واضحة لا محل معها للتأويل والتجريح ، إذ قالت :

— عدت اليه مدفوعة برغبتى !

فقيل لها انها تعهدت وأقسمت أن لا تعود الى هذا الزى . فأجابت فى شجاعة وجرأة وجدل منطقى سديد :

— لم أكن أنوى قط ، ولا عنيت قط ألا أعود اليه . فاذا لم أكن قد أوفيت بالعهد فان أحداً منكم لم يبر بوعده معى . فقد قطعتم لى عهوداً كثيرة أذكر منها أن تفك عنى هذه الأغلال ، ولـكنها لا تزال ترهقنى الى اليوم !!

فلما سئلت مزيداً من التفسير والايضاح ازدادت جرأة وصراحة وصلابة ، فقالت

انها عادت الى زى الرجال لانها وجدت نفسها بين الرجال ، فآثرت أن تكون مثلهم وإن الموت خير لها من أن تعود الى زى النساء ، الا اذا سمح لها بتأدية الصلاة ونقلت الى سجن مناسب يتولى النساء حراستها فيه

وهذه الحجة التى ذكرتها جان ، حجة الوجود بين الرجال ، تبريراً لارتدائها أزياءهم تعززها فتوى سابقة ، لعلها هى التى أوحت الى جان بهذه الاجابة ، وهى فتوى اثنين من العلماء ، قبيل اقتناع الملك بتعيينها قائداً عاما للجيوش الفرنسية ، وكان أحد هذين العالمين عميدا لجامعة باريس ، تلك الفتوى التى أعلنا فيها أنه لا تثريب على جان دارك فى ان تتزيى بازياء الرجال ما دامت تقوم باعمال الرجال !

وطبيعى ان لا يقتنع كوشون وأعوانه بهذه الاجابة ، وأن يبادر الى استدعاء هيئة المحكمة لاصدار الحكم باعدام جان دارك . وسواء أكان فى الأمر دسيسة أم لا ، فان هذا لا يغير شيئا من جوهر الموضوع ، وهو أن مسألة شخصية كهذه قد اتخذت تكأة للانتقام السياسى من هـذه الشهيدة المخلصة . ولو لم تكن جان دارك قد عادت الى زى الرجال لما عدم كوشون وسادته الانجليز الف وسيلة أخرى للوصول الى ما يرومون

* * *

ان جان دارك عنـد الفرنسيين رمز الوطنية الصادقة والتضحية الغـالية فى سبيل الوطن . والوطنية فى ذاتها صفة جديرة بالاعجاب والتمجيد . ولـكن جان دارك تمثـل عندنا ناحية أخرى أجل وأعظم من الوطنية ، وهى الايمان !

الايمان الصادق الراسخ الذى ينبعث من القلب !

الايمان القوى الجبار الذى يزعزع راسخات الجبال !

الايمان الرائع العتيد الذى يجل عن المطامع والمغانم ، ويسمو على الصعاب والعقبات ، ويرتفع بصاحبه الى مقام لا يرى فيه الا النور واليقين ، والارادة التى لا تعبأ بالعوائق ولا تخضع لما يخضع له سائر البشر من قيود وأثقال !

* * *

ولدت جان دارك فى قرية دوفريمى عند ملتقى مقاطعة تشسبين بمقاطعة اللورين بفرنسا ، فى ٦ يناير سنة ١٤١٢ ، فى بيت متوسط الحال وكانت أمها سيدة تدعى إيزابيل موسومة بالصلاح والتقوى ، شديدة المواظبـة على أداء الفرائض الدينية فى الـكنيسة ، ولم تكن الـكنيسة بعيدة عن البيت ، بل لم يكن يفصل بينهما سوى حديقة صغيرة . فتهيأت

لجان بذلك أسباب الايمان الديني بحكم التردد المنتظم على الـكنيسة وبعامل القدوة الحسنة ممثلة في الأم التقية الصالحة . وقد غلبت طبيعة التـدين على الفتاة حتى تفردت دون صويحباتها بقلة النزوع الى اللهو ، وشدة التمسك بشعائر الدين وقضاء الشطر الأكبر من وقتها في أداء فرائضه !

وكان والد جان رجلا صاحب حقول واسعة يستغل جانبا منهـا في تربية الضأن . وكان يرعى غنمه بنفسه أحيانا ويعهد بذلك الى أبنائه وبناته احيانا أخرى ، شأنه في ذلك شأن أنداده من الريفيين الذين لايصرفهم لهو المدن ولا زخرف الثروة المتوسطة عن واجب العمل يتولونه بأيديهم ويدفعون اليه اولادهم . وهكذا قدر لجان دارك ان تتولى في طفولتها الأولى عملا قلما نجد بين الأنبياء والرسل من لم يشتغل قبل به الرسالة ، وهو رعاية الغنم . وليس بعسير على الانسان ان يعلل السر في هـذا الارتباط بين النبوة والرسالة وتلك المهنة . ومرجع السر فيما نعتقد هو هذه الوحدة التي تتيح للانسان أن يخلو الى نفسه ، بعيداً عن لغط الناس ، وتناحرهم على البقاء . وفي ظل هذه الخلوة الهادئة يتخلى اللسان عن وظيفته ، فيهيء الجو الصالح لمناجاة الضمائر ، وتطهير القلوب والسرائر . والسرائر الطاهرة والقلوب العامرة كانت دائما أساس الخير الشامل والاصلاح القائم على أوطد الدعائم

على أن جان دارك قد وجدت لمناجاتها مادة غير الاصلاح الديني أو الخلقي . إذ اتجهت بحكم البيئة العامة التي نشأت فيها وجهة أخرى من وجهات الاصلاح والتقويم ، ونعني بها وجهة الجهاد الوطني الذي لم يعرف العالم سلاحا لمن يخوضون غماره أقوى من سلاح القوة المعنوية والايمان الوطيد

فقد ولدت جان دارك والاحتلال الانجليزي منشب أظفاره في عنق فرنسا التي كانت قد أنهكتها الحروب ومزقتهـا الفتن والمنازعات الداخلية ، وكان شارل السادس ملك فرنسا رجلا ضعيف الهمة ضعيف العقل . فارتبط مع هنري الخامس ملك انجلترا بمعاهدة تروى سنة ١٤٢٠ ، وبين بنود هذه المعاهدة أن يتزوج ملك انجلترا بأميرة فرنسية معينة ، وانه اذا مات شارل السادس دون أن يترك وارثا شرعيا آل عرش فرنسا بعده الى ملك الانجليز . وواضح أن نصا كهذا يفتح باب الدسائس والمؤامرات ليتخلص الانجليز من ولي العهد إذ ذاك (الدوفن) الذي لم يكن أوفر حظا في الشجاعة أو العقل من أبيه ، فلم تكد المنية تعاجل شارل السادس بعد توقيع هذه المعاهدة المشئومة حتى استكتب

الانجليز الملكة المستهترة ايزابيلا أن ولى العهد ليس ابنا شرعيا لها ، وبهذه الوثيقة المخزية استباح الانجليز أن يضموا عرش فرنسا الى ملكهم الطفل هنرى السادس مستندين الى ما نصت عليه معاهدة تروى . فلما حاول ولي العهد على ضعفه أن يسترد حقه المغصوب شتت الانجليز شمل عسكره الواهن المتخاذل ، وهزموه شر هزيمة فى موقعة فرناى سنة ١٤٢٤ فارتد الى أورليان ، واحتمى فى حصونها الحصينة فاقد الامل والرجاء

وكانت أنباء هذه الدسائس والوقائع والهزائم تصل قرية دومريمى فتقابل بأشد مظاهر الاهتمام المقرون بالألم والأسى . فقد كان أهلها من أكثر الناس حماسة وانتصاراً لولى العهد (الدوفين) المغلوب على أمره ، بينما سائر الأهلين من سكان القرى المحيطة بها يؤيدون دوق برجندى الذى كان يناصر ملك الانجليز ويمالئه طمعا فى أن يظفر بعرش البلاد بعد موت شارل السادس ، جزاء تلك الممالأة الآثمة . ولم تكن هذه الشئون السياسية والحربية شغل الرجال والشيوخ وحدهم من أهل دومريمى ، بل كان الاطفال أنفسهم يتلقونها فى مثل لهفة الرجال وجزعهم . وكأنما كانت نفوسهم تتغذى بلبان الوطنية والثورة بينما تتغذى أجسامهم بلبان الامهات

فى هذه الظروف العصيبة ، وفى هذا الجو المكهرب ، وفى هذه البيئة المثيرة ، ولدت جان دارك وترعرعت . ولكنها ما كانت لتنال مكانتها العالية فى عالم البطولة لو لم تنفرد دون أبناء القرية وبناتها ، بل دون مثيلاتها فى العالم أجمع بظواهر نادرة اعانتها على أن تشق طريقها الى الخلود . وأبرز هذه الظواهر وأبعدها أثراً فى حياتها من غير شك ظاهرتان : أولاهما تلك الظاهرة التى حيرت المؤرخين ، فاختلفوا أشد الخلاف فى تعليلها وفى محاولة تفسيرها ، وسيظلون على خلافهم مادام فى العالم أناس يؤمنون بالوحى وآخرون ينكرونه ، وما دام فى العالم قوم يعتقدون بالروحانيات وقوم يجحدون كل شيء سوى المادة والماديات . ونعنى بتلك الظاهرة هذا الاتصال الذى كان بين جان دارك وبين (أصوات) القديسات ، فقد كانت فى منتصف عامها الثالث عشر إذ كثر صمتها وطال تفكيرها واشتد شغفها بالعزلة . حتى اذا كانت ترعى غنم أبيها ذات يوم آوت الى شجرة فى الغابة ، وبينا هى فى تفكيرها ، تستعرض ما آلت اليه حال بلادها من احتلال وإذلال ، وما انتهى اليه مصير الوارث الشرعى للعرش من ضعف وهوان ، إذا بالشجر يشتد حفيف أوراقه ، واذا بالطيور تتجمع مغردة مبتهجة ، فلم تكد جان ترفع بصرها الى أعلى الشجرة حتى شاهدت نوراً يهبط عليها من السماء ويغمرها من كل جانب ، ثم

تبينت صوتا يهتف بها : «جان . جان . لاتخافى . كونى ابنة بارة . فستذهبين لنجدة ملك فرنسا» فلما أمعنت جان النظر فى مصدر الصوت رأت أن التى تخاطبها هى القديسة كاترين ، وبجوارها القديسة مرجريت . وقد ظلتا تناديانها مرة فى كل يومين أو ثلاثة ، وهى تسمعهما وتتحدث اليهما كما تتحدث الى أمها وأبيها . ولـكنها تـكتمت الأمر أقصى التكتم ثلاثة أعوام كاملة أو تزيد . طوعا لمشورة (الاصوات) على حد تسميتها للقديستين ، والقديسين الآخرين الذين كانوا يظهرون لهـا ويوحون اليهـا ، فتنقاد لوحيهم وتصدع بأمرهم ، لاتنى ولا تتردد ، ولا تعبأ بخطر ينتظرها أو حائل يصدها عن سبيل الطاعة العمياء لهؤلاء القديسين

فاما ان جان كانت صادقة فيما روت عن ظهور (الأصوات) وكانت مخلصة فى اعتقادها أن القديسات يهبطن من السماء لمحادثتها فى خلواتها والايحـاء اليها أولا بالاستعداد لمواجهة المهمة الخطيرة التى ستلقى على عاتقها ، ثم الايحاء اليها بالخطوات التى تتخذها يوما بعد يوم فى أيام كفاحها ـ فذلك مما لا سبيل الى الشك فيه ، مهما يكن وجه التفسير الذى يلتمسه الانسان تعليلا لهذه الظاهرة . وانما يتجلى الخلاف على أشده فى تكييف الطريقة التى نشأت بها هذه الظاهرة

فالعامة والمتدينون من الدهماء يعتقدون أن نزول القديسات لمحادثة (عذراء أورليان) حقيقة لا تقبل الشك ولا الجدال ، وأن التفسير الوحيد الذى يقبلونه هو أن الله اختص جان دارك بهذه المعجزة ليتم على يديها تخليص الوطن من عبودية الاحتلال

والخاصة الذين يؤمنون بعلم الأرواح ، يفسرون هذه الظاهرة بأن أرواح القديسين قد هبطت حقيقة على الفتاة ، على صورة من الصور . وذلك « لامكان ظهور كائنات روحانية لبعض المستعدين لرؤيتها ، تخاطبهم أو تظل ملازمة لصمت عميق .. ومن تلك الأرواح الصامتة ما كان يراه نابليون الأول من الشبح الذى كان يلازمه ، ومن المتكلمة الروح التى كانت تظهر لشيخ الفلسفة اليونانية (سقراط) الحكيم وقد صرح هو بذلك ، وأثبتها له تلميذه (أفلاطون) ونقل ذلك عنـه جميع كتاب تاريخه من الغربيين »[1]

والمؤمنون بنظرية العقل الباطن يرون أن هـذه (الأصوات) صور منتزعة من شخصية جان دارك الباطنية . تلك الشخصية التى تتكون فى كل انسان دون أن تخضع

---

(١) من مقال للاستاذ فريد وجدى

للعقل الواعى ، وتتكيف بالبيئة وما توحى الى أعماق النفس من مخاوف وآلام وآمال

واصحاب نظرية فرويد يرجعون بهذه الظاهرة على قداستها ، كما يريدون أن يرجعوا بكل ما يصدر عن الانسان من تصرفات الى الغريزة الجنسية !

وجورج برنارد شو يلتمس لهذه الظاهرة تعليلا يقوم على أن لبعض الناس قدرة خاصة على تصور الأشياء تصورا يكاد يجسمها لهم وهى غير موجودة . ومن ذلك ان قوما يستطيعون أن يرسموا على صفحات أذهانهم أرقاما عدة يضربون بعضها فى بعض ويطرحون بعضها من بعض ثم يجمعون ويقسمون ، وهكذا كأنما يشاهدونها فى لوح مكتوب . وقد كانت جان دارك من أصحاب هـذه القدرة الخارقة فى ناحية أخرى ، هى تصور أشخاص القديسين وقد تجسموا أمامها تجسما وراحوا يخاطبونها ويناقشونها !

على ان اختلاف هذه التعليلات كلها لا ينقض حقيقة هى وحدها الجوهر فى هذا المقام . وهى أن جان دارك كانت تؤمن بأنها ترى بالفعل شخوصا لا يختلفون عن شخوص الآدميين ، وكانت تخاطبهم وتستمع اليهم باعتبارهم قديسين . وبوحى هؤلاء القديسين نهضت الفتاة بالعبء الثقيل الذى قدر لها أن تنهض به

ننتقل من هذا الى الظاهرة الثانية التى قدمنا انها احدى اثنتين كان لهما أعظم الأثر فيما بلغت جان دارك من مجد وتخليد ، وهذه هى طغيان جانب عظيم من روح (الرجولة) عليها وتغلبها على حركاتها وتصرفاتها حتى فى سن الطفولة ، فانه ليؤثر عنها أنها كانت منذ طفولتها مشغوفة بحياة الجندية ، ويظهر أن أباها لاحظ عليها ذلك الميـل أو سمع عنها حديثا يدل عليه أو هو قد رآها فى المنام بلباس الجند ، فما كان منه إلا أن حذرها مغبة الاندفاع فى هذا السبيل وهددها على نحو ما يفعل بعض الآباء مع أطفالهم ، بأنه سيبادر الى القائها فى اليم لتموت غرقى إذا هى حاولت مخالطة الجند ومشاركتهم فى مهنتهم الخشنة التى لم تخلق للنساء ، وواضح أن هذه النزعة لم تفارق جان دارك تحت ضغط هذا التهديد الذى ربما فعل فعله وهى طفلة ناعمة الاظفار ، فلما تخطت مرحلة الطفولة لم تعبأ به ولم تأبه له

ومن الثابت عن جان دارك أنها كانت شجاعة الى حد مجابهة الخطر الذى يكاد يكون محققا غير هيابة ولا مترددة . على نحو ما فعلت يوم لقيت مجنونا هائما على وجهه يحمل فى يده (بلطة) مرفوعة للقتل. فانتزعت منه (البلطة) وهى رابطة الجأش ، واقتادته من

يده الى المدينة حيث أعيد الى الأسر الذى فر منه . وليس هـذه الشجاعة الخارقة مما يؤثر عادة عن النساء

وينطوى تحت هـذا المعنى ما هو ثابت كذلك من أن جان دارك ظلت ترى (الأصوات) وتتحدث اليها مرتين أو ثلاثا فى اليوم الواحد ثلاثة أعوام كاملة دون ان تطلع على هذا السر واحداً من الناس ، كائنة ما كانت صلتها به وثقتها فيه . وعندى أن ذلك من أدل الظواهر على تغلب روح الرجولة على نفسها ، فلم يكن كتمان السر يوما صفة معروفة من صفات النساء !

أضف الى هذا كله عزيمة ماضية تندر حتى فى الرجال . ولولا هـذه الصفات التى تجتمع كلها تحت معنى واحد هو (روح الرجولة) لما تمت رسالة جان ، ولبقى اتصالها (بالأصوات) ضربا من الرؤى ونوعا من المحاورات الافلاطونية التى لا تقـدم فى عالم الواقع ولا تؤخر

* * *

بعد سنوات ثلاث من اتصال (الأصوات) بجان دارك ، تلقت أول أمر منها بأن تشرع فى العمل لتنفيذ الرسالة التى خصتها بها العناية الالهية . فذهبت طوعا لمشورة (الأصوات)الى حاكم «فوكولير» ، واستعانت على مغادرة دار أبويها للسفر الى مقر الحاكم بقريب لأمها يسمى « دوران لاكسار » جاء يدعى بايحاء جان أن زوجه مريضة تحتاج الى من يعنى بها ويرجو أن يسمح له بأن يصطحب جان الى بيته لهذا الغرض ، وذهبت جان لمقابلة الحاكم « روبير دى بودريكور » بعد أن افضت لخالها بمكنون سرها . فلما أذن لها طلبت اليه فى سذاجة واصرار أن يبعث الى (الدوفن) — ولى العهد — بنصيحة خالصة هى أن يصبر ولا يقاتل عدوه الى أن يمده الله بعون من عنده . وطلبت أن يرسلها الحاكم الى (الدوفن) بعد ذلك ومعها حرس مسلح ، لأنها تريد أن يعهد اليها ولى العهد بالقيادة العامة لجيشه ، وبذلك تنفذ ما أمرت به من اجلاء الأنجليز عن بلادها وتتويج ملكها فى كنيسة رامس ! وقالت جان ان مولاها رب السموات والأرض هو الذى عهد اليها بهذه المهمة الخطيرة !

وكان طبيعيا أن يقابل الحاكم هذا الـكلام من فتاة فى السابعة عشرة من عمرها مقابلة ملؤها السخرية والاستخفاف . فأوصى قريبها بأن يضربها (علقة) طيبة تردها عن هذا الهذيان !

ولكن الخبر انتشر وذاع ، ولا بد أن تكون قد أضيفت اليه الحواشي والزيادات التى تلحق بكل خبر تتناقله الألسن وتتبادله المجالس ، فكثر بين العوام والاوساط فى هذه القرون المظلمة الذين آمنوا برسالة الفتاة ايمانا لا يرقى اليه الشك والجدال ، وساعد على انتشار هـذه الموجة من الايمان بالفتاة ما كان يرويه العامة من أن عرافة تدعى (مرلان) تنبأت منذ ثلثمائة سنة بأن فرنسا ستضيعها امرأة وتستردها فتاة من اللورين فقالوا ان الشطر الأول من النبوءة قد تحقق بما فعلت ايزابيل التى انكرت شرعية ولى العهد ، ولا بد أن تكون جان دارك فتاة اللورين المقصودة فى الشطر التالى من نبوءة العرافة . وبينما حاكم « فوكولير » باق على عقيدته فى الفتاة ، معرض عن الاصغاء الى اقاصيصها ، ساق القدر اليها فتى من الاشراف يدعى « جان دى متز » آمن برسالتها ووعد بمرافقتها الى الملك او على الاصح ولى العهد ، ولكنها رفضت أن تتخطى مشورة (الاصوات) التى أمرتها بأن تذهب الى حاكم «فوكولير » وتأخذ معها حرسا مسلحا ، ثم تذهب لمقابلة الملك ومعها كتاب من الحاكم ، فما زالت على الحاحها حتى كان يوم السبت ١٢ فبراير سنة ١٤٢٩ ، إذ قصدت الى الحاكم وأخبرته فى لهجة الغضب المقرون بالألم والأسف ، بأن تعطيلها عن مهمتها قد أدى الى هزيمة جيوش (الدوفن) قرب أورليان وانها علمت نبأ هذه الهزيمة من (أصواتها) . ورأى الرجل هنا فرصة طيبة لامتحان الفتاة وتفنيد دعواها فوعدها بأن يقدم لها ما تريد اذا صح ما انبأتها به (الأصوات) من هزيمة جيوش الملك . فلما وصل الى الحاكم بعد اسبوع نبأ هزيمة الجيوش فى نفس اليوم الذى حضرت فيـه الفتاة ذهب الى بيتها وقد أخذ معه قسيسا يفحص روح جان لعلها تخضع لشيطان من الشياطين !

وبعد أن اقتنع الحاكم بنتيجة (الفحص) أمد الفتاة بما أرادت من قوة ، وزودها بخطاب منه الى الملك ، فبدأت جان رحلتها تحت جنح الليل مرتدية زى الرجال ومعها حرسها وخدمها ، وعدتهم جميعا خمسـة وعشرون ، وما زالت تختار المسالك الوعرة المنزوية ، وتؤثر السرى دون سفر النهار تخفيا عن عيون الأعداء حتى وصلت الى شنون مقر ولى العهد ، فى ٦ مارس سنة ١٤٢٩ ، بعد مسيرة عشرة أيام لم تسلم فيها من المؤامرات ومناوشات الأعداء

وقد حاولت بطانة الدس والسـوء التى كانت تحيط بالملك إذ ذاك أن تحول بين جان دارك وبين الظفر بلقائه ، فأوفدت تلك البطانة أربعة من القساوسة جاءوها فى

الفندق الذى نزلت به يطلبون أن تسلمهم الرسالة التى تقول إنها تحملها الى الملك ، ولـكنها ردتهم بكل ثبات وهدوء قائلة إنها رسالة للملك وحده ، فلا بد أن تسلم اليه بشخصه . وتمت المقابلة بعد يومين اثنين ، وقد حاولوا أن يضللوا الفتاة اختباراً لحقيقة رسالتها ، فأجلسوا مكان الملك شخصا آخر وألبسوا شارل لباسا عاديا لا ينم عن حقيقته ، فلما دخلت جان أثارت دهشة الحاضرين بتجاوزها كرسى الملك والجالس عليـه ، واتجاهها الى شارل مخاطبة إياه بلقب الملك فى يقين وثبات ، حتى إذا حاول شارل أن يوهمها بأن الملك هو الذى يجلس على العرش لم تنهض من ركوعها أمامه وردت عليه قائلة : « باسم الله مولاى بل الملك أنت . ولا أحد غيرك . اعطنى الجند أنقذ أورليان ، وأذهب بك الى رامس حيث تمسح بالزيت المقدس ، وتضع التاج على مفرقك ، وفق مشيئة الله . . » وبعد أن أسرت جان فى أذن الملك شيئا ، نالت موافقته ورضاه ، ثم أقامت بأمر خاص منه فى برج يدعى برج (كودارى) تنتظر بصبر نافد ساعة العمل الحاسم السريع

بيد أن بطانة الملك أطلقت فى هذه اللحظة سهما آخر من سهامها المسمومة . وأخذت تلقى فى نفس الملك الضعيف المتردد بذور الشك فى أمر جان ، حتى اقتنع بارسال الفتاة الى بواتيه لفحصها والتأكد من أنها لا تصدر فى أفعالها عن الشياطين ! فلم يسع جان إلا الاذعان على مضض ، وهناك فى بواتيه جلست بين أيدى رجال اللاهوت والقانون يمطرونها بوابل من أسئلتهم المحرجة التى لا تكاد تنتهى ، وهى تجيب فى صراحة قاطعة ، وشجاعة فائقة ، وبديهة حاضرة نادرة . فاذا سألوها كيف تحتاج الى جنود مع أن الله قادر على كل شىء ، وفى استطاعته سبحانه وتعالى أن يجلى الانجليز عن فرنسا بغير جنود . لم تدخل معهم فى مناقشات دينية حول القدرة الالهية ، وكيف أنها لا تتعلق بالمستحيل . ولـكنها تجيبهم فى سخرية قوامها الحقيقة المرة ، قائلة ان الله يعين من يعين نفسه ، فعلى الفرنسيين أن ينهضوا بأعباء الحرب ، والله يمدهم بنصره !

وينتهى التحقيق والفحص بانتصار جان واعلان القضاة بالاجماع أنها « مؤمنة ، صـادقة الايمان . كاثوليكية ، سليمة العقيـدة ، ليس فى شخصها ولا قولها ما يناقض الدين . وواجب على الملك أن يقبل عونها ، لأن فى رفضه حرمانا لنفسـه من عون الله ! »

وعادت فى الوقت عينه بعثة الرهبان الذين كانوا قد أوفدوا الى « دومريمى » للبحث

عن نشأة الفتاة وتقصي سيرتها ، فجاءت نتيجة هذا البحث قاطعة بأن جان منذ مولدها الى أن وصلت شنون ، طاهرة ، شريفـة ، لا تعلق بسمعتها ولا خلقهـا أدنى شك أو افتراء

وعلى ذلك أصدر الملك أمره بتعيين جان دارك « قائداً عاما للجيوش الفرنسية » . وإعداد العدة الحربيـة لمسيرها الى اورليان ، وإنقاذها من بين براثن العدو الذى يحاصرها منذ ستة أشهر كاملة ، أقام فى أثنائها الحصون وأرسل يطلب مدداً يضاعف من قوته استعداداً لالتهام أورليان لقمة مستساغة . وقبل أن تبدأ جان طريقها الى الميدان ، أملت بلاغا الى الجنود الانجليز تقول فيه :

« .. باسم الله آمركم بالعودة الى بلادكم . فان لم تفعلوا فحذار من العذراء ، وستعلمون في القريب العاجل أى أذى ستنزله بكم . خذوها كلمة صادقة منى ، إنكم لن تأخذوا فرنسا التى أمرها لملك السماء ، ابن مارية المباركة . وانما سيحتفظ بها شارل ! »

وأرسلت جان الى قواد الانجليز سفولك ، وتالبوت الجبار ، وسكيلز وغيرهم تقول : « أجيبوا على هـذا بأنكم قبلتم الصلح فى مدينة أورليان . فان لم تفعلوا فلكم الويل والثبور ! »

وقد علق المحامى الانجليزى المشهور السر جون مكدونل على هاتين الرسالتين وعلى الرسالة على الثالثة الى الوصى على ملك الانجليز ، فقال إنه ليس عجيبا أن لا يعبأ بهذه الرسائل أحد من القواد الانجليز ، ولـكن العجيب حقا هو ماتدل عليه من مبلغ ما كان لهذه الفتاة الساذجة ، وعمرها سبعة عشر عاما ، من سلطان هائل على العظماء ورجال الدين والجنود والمحنكين من رجال السياسة ، الذين وافقوها على إرسال هذه الخطابات الطافحة بالغطرسة والعجرفة ، وفى ذلك مايدل دلالة مدهشة على مبلغ ارتفاع شأنها وعلو قدرها بل فيه ما يدل دلالة أقوى من كل الشهادات التى لدينا على مبلغ ما كان لها من محبة في نفوس العامة ، وما كان لها من احترام ورهبة فى نظر الجنود

لم يعبأ الانجليز بهذا التهديد (الصبيانى) فسارت جان الى « اورليان » ودخلتها فى ٢٩ ابريل سنة ١٤٢٩ ، بين مظاهر الابتهاج التى يندر نظيرها على مر الزمان . وفى الغداة عاودت إنذارها للانجليز أن يجلوا عن وطنها ، فلم يكن جوابهم سوى ان أشاروا عليها فى سخرية أن تعود هى الى قريتهـا ترعى الغنم ، لأنهم إذا ظفروا بها سيصلونها عذاب السعير !

إزاء هذا لم يسع جان سوى ان تبدأ عملها الخطير ، فسارت الى الميدان ، وافتتحت سلسلة انتصاراتها بالاستيلاء على حصن سان لو ، وما زالت تتقدم جيوشها الى النصر من قلعة الى قلعة ، وتبث فيهم من ايمانها الالهى بالفوز المبين ، وتوقع فى صفوف الانجليز الرعب بشجاعتها الخارقة ، حتى استولت على قلعتى سان جون وأوجستنيان ، ثم دان لها حصن (لى توريل) بعد معركة جرحت فيها وسقطت تبكى والفرنسيون يقاتلون عنها الانجليز الذين رأوا فى جرحها فرصة للظفر (بالساحرة اللعونة) التى أنزلت بهم شر الهزائم

فلما وقفت رحى المعركة نهضت جان قبيل المساء وتقدمت جندها وهى جريح الى الحصن ، فاستولت عليه وفر من كان فيه من الانجليز وغرق منهم كثيرون . وفى فجر اليوم التالى ٩ مايو سنة ١٤٢٩ سحب الانجليز فلولهم مرتدين عن أورليان ، تاركين ذخائرهم ومدافعهم نهبا لأهل اورليان الذين انقلب همهم عيداً دونه كل الأعياد

وسارت جان فى ١٠ مايو الى تورز مقر الملك ، حيث استقبلها الشعب استقبال أعاظم الأبطال ، وخف الملك الى لقائها أحسن اللقاء . ورفعها هى وأهلها الى مصاف النبلاء . وراحت هى تلح عليه أن يطرح جانبا مشورة حاشيته الخائنة ، ويصغى الى توسلها فيذهب معها الى رامس حيث يتوج ملكا على فرنسا ويمسح عليه بالزيت المقدس ، فلم يستجب الى ندائها الا بعد شهر من دخولها أورليان . فتقدمت جان بجنودها وبددت شمل الجيوش الانجليزية فى الطريق الى رامس ، وأسرت قائدهم سافولك نفسه ، وردت قائدهم الآخر تالبوت على أعقابه لائذاً بأذيال الفرار ، ثم أسرته وعادت به الى أورليان ! ثم بدأت جان رحلتها مع الملك الى رامس بجيش عتيد بعدده وروحه المعنوية ، فلم تلق مقاومة تذكر من بقايا الجيوش الانجليزية ، واحتفل بتتويج الملك ومسح رأسه بالزيت كما أرادت جان إذعانا (لأصواتها)

الى هنا كانت رسالة جان دارك قد تمت ، وكان عليها ما دامت قد نفذت مشيئة (أصواتها) وعملت بوحيها ، أن تعود الى بلدها ، مكرمة مبجلة فى الحياة والممات . ولكنها بقيت لأمر ما دون استشارة أصواتها . واستصدرت من الملك أمراً بالزحف على باريس ، فسارت هى على رأس الجيش ومعها الملك نفسه ومستشاره الخائن « لاتريموى » . ولكن ضعف الملك ووقوعه فى حبائل الدس التى نصبها له مستشاره ، جعلاه يعقد مع دوق برجندى هدنة لمدة خمسة عشر يوما تسلم له باريس على أثر انقضائها بغير ما حرب و نضال . فلم يسع جان الا أن تقبل على مضض ما قبله ملكها حتى لا تعرض كلمته

وكرامته للمهانة . فلما انتهت مدة الهدنة أصدرت جان أمرها باستئناف الزحف على باريس وتخلف الملك عنها ، لفرط جبنه وخور عزيمته ، وسارت هى وحدها على رأس الجيش حتى بلغت سان دينى فى ٢٦ أغسطس سنة ١٤٢٩ ، وهنـاك أرسلت تلح على الملك فى موافاتها الى هذا الموقع ، واضطرت الى انتظاره هناك حتى وصل بعد أسبوعين ، فكان هذا التأخر كسبا للوقت استغله الانجليز فى تقوية أنفسهم وتجديد نشاطهم . فلما استؤنف القتال عند سان أونوريه سقطت جان جريحة ، وحملها زميلاها القائدان المخلصان دالنسون وجانكور بعيداً عن المعركة خوفا على حياتهـا وأرادت هي فى اليوم التـالى استئناف القتال رغم جرحها ، فاذا الملك قد انصاع من جديد لمكائد مستشاره لاتريموى ووقع هدنة أخرى يرتد بمقتضاها الى الوراء فى مقابل وعود عابثـة . فوقع ذلك من نفس جان أسوأ وقع ، وطلبت الى الملك اعفاءها من أعباء القيادة العامة . فأبى عليها ذلك بحجة أن الهدنة لا تمنع الانتفاع بخدماتها فى ميادين غير التى نص عليها في الشروط

ولم تكن (الأصوات) قد انقطعت عن الاتصال بجان دارك ، وان لم تكن هي التى أوحت اليها بما كان منها بعد التتويج . فأشارت عليها فى هذا الموقف بأن تبقى فى سان دينى . ولـكن الملك أبى عليها الا أن توافقه ، ولم تكن لتستطيع المقاومة وهى جريح اذا احتاج الأمر الى أن تقاوم بالقوة . فلم يسعها سوى الانصياع لأمر الملك ومخالفـة (أصواتها) لأول مرة مخالفة صريحة

ولـكن جان لم تطق صبراً على خطة الملك الذى كان قد سرح الجيش ، وانصرفت حاشيته الى اللهو والعبث ، فقررت أن تقاتل العدو بفرق من المتطوعين . وانضم اليها فى ذلك صديقها القـائد دالنسون . وكأنما طرأ على جان شيء من الشك فى نجاح هـذه هذه الحملات المرتجلة على الأعداء ، فجاءتها (الأصوات) مصدقة لما فى صدرها من وساوس ، وأخبرتها فى ابريل سنة ١٤٣٠ بانها ستقع فى الأسر قبيل عيد القديس يوحنا وعليها أن تتقبل هذه المحنة بالرضا ، والثقة فى عون الله

وصحت النبوءة وأسرت جان على مقربة من « كومبين » ، في الموعد الذى ضربته (الأصوات) . وقد ظل « جين دى لوكسبرج » أياما ينتظر فداءها من شارل السابع ، ولـكن شارل تركها معرضا عن صيحة أستاذه فى طفولته « جاك جيلو » أن لا يدخر جهداً فى انقاذها . فلما اتصل نبأ أسرها بالانجليز دقوا النواقيس وأقاموا الصلـوات ابتهاجا بنجاتهم منها . وأرسلوا صنيعتهم « كوشون » أسقف (بوفيه) يساوم جين دى لوكسبرج على

شرائها ، فنجح فى مهمته وابتاعها بثمن قدره عشرة آلاف من الجنيهات ، جمعها الانجليز من الفرنسيين أنفسهم ! وعندئذ حاولت جان الفرار بالقاء نفسها من نافذة قلعة بوريفوار . وقد نفذت هذه المحاولة رغم نصيحة (الأصوات) لها بألا تفعل . وكانت النافذة على ارتفاع ستين قدما من سطح الأرض ، فسقطت المسكينة فاقدة الرشد . وأعادوها الى غرفتها بالقلعة حيث استردت صحتها بعد أيام

ونقلت جان بعد ذلك من قلعة الى قلعة أسيرة فى أيدى الانجليز ، حتى ألقيت آخر الأمر فى روان بقلعة (فيليب أوجست) مكبلة بالأغلال ، مصفدة بالسلاسل فى عنقها ووسطها ، محبوسة فى قفص من الحديد خمسة أشهر كاملة !

قدمت جان بعد ذلك الى المحاكمة ، أمام احدى محاكم التفتيش الدينية ، بتهمة الالحاد والزندقة والسحر والارتداد ونحو ذلك من التهم الملفقة التى اخترعها الانجليز ، وعهدوا الى صنائعهم من المرتشين وذوى المطامع ومرضى النفوس (بتكييف) كل تهمة منها مهما يكلفوا أنفسهم من شطط وعسف وعدوان . وواجهت جان ، وهى فتاة لم تتم عامها التاسع عشر ، هيئة من رجال الدين وأعوانهم ، بلغ عددها نحو خمسة وتسعين شخصا ، على ما جاء فى كتاب السر جون مكدونل (المحاكمات التاريخية) . وقد انتهت هذه المحاكمة الأولى بالحكم على جان دارك بعد جلسات مرهقة طويلة بالسجن المؤبد ، وهو أقصى حكم يبيحه قانون الكنيسة اذا أعلن المتهم خضوعه وتسليمه ، وهو ما فعلت جان فى اللحظة الأخيرة بعد ان أخذ منها الارهاق كل مأخذ

وكانت بعد ذلك مهزلة ابدال هذا الحكم بحكم الاعدام حرقا ، بدعوى أن جان نكثت عهدها بعدم العودة الى ارتداء زى الرجال . والحق الذى لايخفى هو أن الاعدام كان أقل حكم يرضاه الانجليز لجان دارك ، وقد صرحوا بذلك قبل صدور الحكم ، وهاج هائجهم حين حسبوا حكم السجن المؤبد نهائيا . فلو لم تكن جان قد عادت الى زى الرجال لما عدموا ألف سبب وسبب لاشباع شهوتهم الى الانتقام من خصيمتهم الشريفة على أفظع الصور وأبعدها عن معانى العدل والرحمة والانسانية

وغنى عن البيان أن هذه المحاكمة رغم مظهرها الدينى كانت محاكمة سياسية من الألف الى الياء . وانها بحذافيرها من تدبير الانجليز ، ومن مفضوح المغالطات أن يحاول رجل مثل برنارد شو أن يثبت أن السياسة لم تتطرق الى هذه المحاكمة فى قليل ولا كثير ! وأمعن فى المغالطة والتبجح أن يختتم اللورد بركنهد الفصل الذى عقده عنها فى

كتابه (أشهر المحاكمات) بقوله ان مصرع جان دارك سيظل الى الأبد وصمة في جبين الفرنسيين ! !

* * *

وقد درست قضية جان دارك من جديد في سنة ١٤٤٩ وبعد ست سنوات ونيف بدىء نظرها أمام محكمة دينية فى كنيسة نوتردام، بناء على التماس من أمها التى كانت قد بلغت السادسة والسبعين من عمرها . وفى ٧ يوليوسنة ١٤٥٦ قررت المحكمة اعتبار التهم التى بنى عليها الحكم الأول باطلة . واعتبار المحكوم عليها فى عداد الشهيدات . وفى سنة ١٩٢٠ أي بعد أكثر من أربعة قرون ونصف قرن على هذا الحكم أعلنت الكنيسة قداسة « عذراء أورليان » .

أندريه شنييه



قاتل الله السياسة !

لقد صدق الذى وصفها بأنها كالغانية الفاجرة .. لا قلب لها ولا ضمير ! ولشد ما يقاسى من غدرها طلاب المثل العليا وأصحاب الفكر الحر والخلق القويم !

هذا هو (الدرس) الذى تنطق به ترجمة الشاعر الشاب العبقرى المجدد ، أندريه شنييه ، نصير الحرية والدستور ، وضحية الارهاب الذى تنكرت فيه الثورة الفرنسية الكبرى لمبادئها وانقلبت على أنصارها بعد أعدائها ! !

***

ولد لويس دى شنييه ، والد المترجم له ، فى إحدى ضواحى طولوز فى الجنوب من فرنسا ، فى ٣ يونية سنة ١٧٢٢ فلما شب عن الطوق هجر مسقط رأسه الى القسطنطينية طلبا للثراء ، وهناك اشتغل بالتجارة حينا ، ثم خاب أمله فى الربح المرجو من التجارة على ما يظهر ، أو هى لم توافق مشربه ، فالتحق بوظيفة فى السفارة الفرنسية عرضها عليه الكونت ديزالير قنصل فرنسا العام بالقسطنطينية . ولم تلبث أن توثقت المودة بينه وبين الكونت ديزالير ، حتى اذا دهم الموت هذا الاخير ألقيت الى لويس دى شنييه أعباء منصب القنصل العام فى عاصمة الدولة العلية ، فظل يضطلع بها حتى وصل الكونت دى فيرجين الذى عين فى سنة ١٧٥٥ سفيرا لفرنسا فى تركيا

وفى أثناء هذه الفترة من حياة لويس دى شنييه تزوج من يونانية حسناء تدعى ساتى لوماكا ، فأثمر هذا الزواج خلال السنوات العشر التى أقامها الزوجان فى القسطنطينية أربعة أطفال ذكور وابنة واحدة . وكان ثالث هؤلاء الأطفال أندريه مارى دى شنييه المترجم له ، وقد ولد فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٧٦٢

لم يقدر لأندريه أن يشب على ضفاف البوسفور ، اذ قفلت العائلة راجعة الى فرنسا وهو بعد فى عامه الثالث ، وعول الوالد على أن يستأنف حياته (الدبلوماسية) ، فغادر فرنسا حوالى سنة ١٧٦٧ الى افريقيا الشمالية مع الكونت دى بردينون ، ورافقت مدام دى شنييه زوجها الى مقر عمله ، وعهدت برعاية أطفالها الى عمتهم ، فأتيح لأندريه أن يقضى أعوام طفولته الأولى تحت سماء لانجدوك البديعة ، وقد ظل ينعم بذكرى هذه الأعوام الجميلة طول حياته

فتراه يكتب وقد بلغ الثالثة والعشرين من عمره : « انى حين أذكر تلك البلاد الجميلة ، وأذكر الانهار والنافورات ومختلف الينابيع التى رأيتها فى سن لم أكن أدرك فيها ماذا أرى ، أستعيد احدى ذكريات الطفولة التى لاأريد أن أفقدها ، لم أكن حينئذ أزيد على الثامنة من العمر ، وهكذا تكون قد انقضت أعوام خمسة عشر (يا له من تقدم فى السن !) على يوم العيد الذى أخذونى فيه لأتسلق أحد الجبال . . . وهناك فى منطقة هـذا الجبل ، من الجهة اليمنى للطريق ، شهدت نافورة فيما يشبه أن يكون كهفا منحوتا فى الصخر . وكان ماء هذه النافورة بديعا ، وفى أسفل الكهف الصغير تمثال أو اثنان للعذراء . وأغلب ما يوحى الى اعتقادى أن هذا كله كان فى مدينة تدعى ليمو فى لانجدوك السفلى . . ولو أتيح لى يوما أن آوى بخيالى الى مكان بعيد هادىء فى إقليم أحبه ، فبودى لواستطعت أن أقيم فى هذه المدينة نافورة على مثال تلك النافورة ، مزدانة بتمثال لعرائس الخيال ! ! »

وعادت مدام دى شنييه الى باريس فى سنة ١٧٧٣ ، تاركة زوجها الذى كان قد عين قائما بأعمال المفوضـية الفرنسية لدى أمبراطور مراكش ، مؤثرة ان تكون على مقربة من أطفالها الاربعة الذين كانوا قد التحقوا بكلية نافار

وكان أندريه ، دون سائر اخوته ، شديد الشغف باتقان اللغة اليونانية ، ويجب أن لا يغيب عن البال أن أمه يونانية ، وانه كان أحب أطفالها اليها وأشدهم حبا لها ، فأتقنها بالفعل وهو فى السادسة عشرة من عمره ، واستطاع أن يترجم منها الى الفرنسية فى هذه السن احدى مقطوعات الشاعرة الخالدة الذكر سافو . وفى سنة ١٧٧٩ خرج أندريه من هذه الكلية . وقضى عام ١٧٨٠ و ١٧٨١ فى دراسة هادئة هانئة مقيما تارة عند أمه فى باريس وأخرى عند أقاربه أو أصدقائه فى الريف

كانت مدام دى شنييه سيدة جميلة الصامة ، مشبوبة العواطف ، شاعرية النزعة

والاحساس ، شأن كثيرات من بنات أثينا المثقفات ، وكانت متعلمة ، بل غزيرة العلم ، لبقة ذكية ، تحب المجتمعات ، وتهوى مباهج الحياة الاجتماعيــة ، بأحاديثها وسهراتها ومسلياتها . وكانت تجمع الى إتقان لغتها اليونانية ، براعة نادرة فى اللغة الفرنسية ، وان تكن لغة غريبة عنها . ثم كانت الى ذلك كله مرهفة الحس شديدة التأثر بالموسيقى والأدب وكل ما هو جميل من الفنون

أما مسيو لوى دى شنييه ، والد المترجم له ، فكان رجلا ذا بسطة في الجسم ، قوى البنية ، جم النشاط ، مستقيم السيرة والرأى ، يجمع الى روح الجد تلك الحصافة التى لا غنى عنها لرجال السلك السياسى (الدبلوماسى) . وكان الى ثقافته الواسعة ذرب اللسان طلق الحديث ، صاحب رأى سديد ، وحكم صائب ، يصدره فيما يعرض له من أمور غير متهيب ولا متردد . ثم هو بعد ذلك كله صاحب عزيمة لا تقهر وإرادة لا تنثنى ولا تغلب . ولقد كانت هذه الخلة الأخيرة فى الرجل سببا فيما اجتمع حوله من دسائس الموظفين حتى أقصى عن عمله فى سنة ١٧٨٤

ولقد ورث أندريه عن والده نشاطه الجم وإرادته الجبارة ، كما ورث عن أمه حساسيتها وذكاءها وشدة ولوعها بالجمال

* * *

كانت حياة أندريه من مستهلها موزعة بين جانبين : جانب الشعر والخيال ، حيث العزلة والدرس الهادىء والتأمل العميق ، وجانب اللهو والمجتمعات ، حيث الحديث العذب والسمر الشائق ، والعلائق السياسية بما تثير من عواصف الجدل والنقاش

كان لسان حاله بيت الشاعر العربى ، مع شىء من التبديل :

و (للشعر) منى جانب لا أضيعه   وللهو منى و (المجامع) جانب !

وليس العجيب فى أن يجمع أندريه بين الشعر والسياسة ، وأن يجعل علائقه تنتظم آلهة الشعر وشياطين المجتمع السياسى ، ولكن العجيب حقا هو أنه استطاع أن (يفصل) بين الشعر والسياسة . وأن يجعل لحياته طابعين يختلف كل منهما عن الآخر أشد الاختلاف ، فهو فى دولة الشعر إنسان هادىء وادع ، يحب الخلوة ، ويأنس الى الوحدة ، ويعزف عن الشهرة ، ويفر من صخبها كما يفر السليم من الأجرب ، يهرع الى الريف كلما حن الى ربات الخيال ، ولا يذيع شعره إلا بين أبيه وأمه وخاصة الخاصة من أصدقائه . لا لأنه يخشى النقد أو تعوزه الثقة بنفسه ، ولكن لأنه يعلو بنظرته

على شهرة الحاضر ، بل يحتقرها وهو القدير على أن ينال منها بغيته ، وأن يصطنع من حوله بطانة من المتزلفين المداحين الذين يوجدون فى كل آن وكل مكان ، وقلما أقام هؤلاء المداحون مجداً أو بنوا شهرة باقية على الزمان . كان أندريه يحتقر الشهرة الزائفة ويمقت العظمة المصنوعة ، ويتطلع الى المجد الحق الذى قلما أدركه الذين يستحقونه وهم فى قيد الحياة . وقد ظل على عزلته هذه فى عالم الشعر ، بمحض إرادته حتى خرج عنها باسم الواجب الوطنى وحده لينتقم بسلاح الشعر لبلاده المهينة المنتهكة الحرمات والحريات !

هذا هو أندريه الشاعر . أما أندريه رجل السياسة فكان فى الأندية والمجتمعات صاحب رأى معدود ومكانة مرفوعة ، بل كان فى وقت ما زعيم حزب ولسانا ينطق باسم الرأى العام ، ويتردد صداه فيما وراء الحدود الفرنسية ، الى بولندا وبلاد الالمان

* * *

تخرج أندريه فى كليته وله من العمر سبعة عشر عاما ، فأقبل على فنون الشعر والأدب والفلسفة والتاريخ واللغة يستزيد منها فى نهم الى العلم شديد . وكان فى هذا متشبعا بالروح التى كانت تسود فرنسا فى هذه الفترة من الزمان ، روح الاستزادة من المعرفة والاحاطة بمختلف العلوم والفنون . وقد كان يأخذ نفسه بالدرس العميق فى دأب ومواظبة تعرضت بسببهما صحته غير مرة للضر والأذى . فكان يصحو من نومه قبل أن يتنفس الصبح ، ويكب على دراسة اللغة الفرنسية دراسة المتبحر المدقق الذى يدرس لغة قديمة تحتاج لأشد العناية والتدقيق . وكان يتناول مؤلفات رابليه ومونتانى ، وكورنى ، وراسين ، وهومر ، فيطالعها مطالعة الباحث المحقق ، حتى لا يكاد هامش من هوامشها يخلو من تعليقات بارعة تنم عن ذكاء باهر واطلاع غزير . وقد تعشقت نفسه فى هذه الفترة من حياته فلسفة سقراط وافلاطون ، التى تقوم على دعائم الخير والفضيلة . وأقبل على سير أبطال التاريخ يدرسها دراسة الذى يترسم الخطى ويختار المثل العليا ليطبع نفسه على غرارها ، فخرج من مطالعاته هائما بالحرية ، مستعداً للتضحية بالروح فى سبيل الخلاص من ربقة الذل والاستعباد . وكان أحب أبطال التاريخ اليه « بروتس أعظم الرومان . وكاتو القائد العظيم ، والخطيب العظيم ، سيد أهل زمانه فى الفلسفة والآداب . وفوشيون الثابت على مبدئه ، المنزه عن العيب فى خلقه ومودته ، ولا يمكن أن يحيد عن النهج الاعلى للخلق والفضيلة ! »

ولم يكد أندريه يفرغ من دراسة آداب اللغة الانجليزية والايطالية والالمانية ، بعد الفرنسية واليونانية ، حتى أخذ يخصص الساعات الطوال لمطالعة تآليف المعاصرين من أمثال بايي ، ورينال وكوندورسيه وبيرك وبين وغيرهم ، وهو فيما يطالع ويدرس من القديم والحديث يرمى الى هدف معين لايحول عنه بصره وهو أن يتعلم كيف يقرأ وكيف يفكر . فهذان ــ كما كان يقول ــ أمران أساسيان لاغنى عنهما لفن الكتابة

على أن المطالعة لم تكن إلا عاملا واحداً من عاملين يرجع اليهما تكوين الشاعر من الناحية الثقافية والخلقية ، والعامل الثانى هو عامل البيئة الاجتماعية التى تهيأت له بفضل (الصالون) الأدبى الذى لم يلبث أن نشأ فى دار والدته بمجرد عودتها الى باريس وكان هذا (الصالون) يجمع صفوة مختارة من رجال الأدب والسياسة والفن والقضاء ، وقد قام كثير منهم فيما بعد بدور عظيم فى الثورة الفرنسية التى ما كانت لتشتعل لولا الشرر الذى كان يتطاير إذ ذاك من هذا الصالون وأمثاله ، حيث كانت تشرف على اجتماعاتها روح الفيلسوفين الثائرين فولتير وروسو

وقد كان من أعضاء هذا (الصالون) ، الشاعر ليبران الذى كان يكبر أندريه بثلاث وثلاثين سنة ،فكان لذلك أشبه ما يكون بالمرشد الأكبر ، والرسام دافيد الذى تلقى على يديه أندريه دروسه الأولى فى التصوير ، ويروى أن أندريه كان يزوره يوما وهو يرسم المنظر المشهور (مصرع سقراط) ، فلاحظ أندريه أن دافيد قد رسم سقراط وهو يتكلم ممسكا فى يده كأس السم التى قدمها اليه العبد وهويبكى . فاعترض أندريه قائلا :

ــ لا . لا . ان سقراط لم يتناول الكأس الا بعد ان فرغ من كلامه

وقد أصلح دافيد خطأه ، وعمل بالملاحظة السديدة التى أبداها أندريه ، وهى تدل على دقته فى الدرس رغم حداثة سنه إذ ذاك

ومن أعضاء (الصالون) عدا هذين لافوازيه وباليسو والموسيقى ليزيور وغيرهم من صفوة المثقفين

هؤلاء أصدقاء والدته الذين أتيح له الاتصال بهم ، اتصال التلميذ بالأساتذة فى اغلب الأحايين . أما بطانته هو فقد كانت تضم عددا من الاقران الذين تجمع بينه وبينهم رابطة السن المتقاربة ،وكانت تتألف منهم حلقة أدبية يرأسها لبران ، فتراهم يتناشدون القصائد ويتبادلون الأحاديث فيما يرجون من المستقبل وما تحمل صدورهم من الآمال فى الغد

المجهول . ولكن أندريه كان أشدهم تمنعا حين يطلبون اليه أن ينشدهم شيئا من شعره وقلما كا وا يظفرون بما يطلبون

وقد ظل اندريه منقطعا لهـذا الدرس ، من طريق الكتب والمجتمع ، حتى سنة ١٧٨٢ ، اذ أجاب والده الى ما طلب من ضرورة اختيار مهنة له فى الحياة . وقد كان الوالد يؤثر له حياة السلك السياسى التى مارسها هو نفسه ودفع الى أحضانها بولده قسطنطين زافييه ، ولكن أندريه آثر حياة الحرب على مسالك (الدبلوماسية) ، فالتحق فى مستهل سنة ١٧٨٢ تلميذاً متطوعا بفرقة المشاة فى أنجوموا ولم يلبث أن نقل الى ستراسبورج ، غير انه لم يطق حياة الجيش بعيدا عن دائرته الادبية ومجتمعه المثقف فاستقال منه بعد ستة أشهر من وصوله الى ستراسبورج

وفى أواخر سنة ١٧٨٢ زار لندن ولكن مقامه بها فى هذه المرة لم يطل . اذ اشتد عليه مرض الكليتين الذى كان قد أصابه قبل ذلك بزمن وجيز . وقد ضاعف عليه العلة كثرة ما كان يرهق به نفسه من الدرس المتواصل . فلما خفت عنه نازلة هذا المرض المضنى لم يكن بد من أن ينصرف فترة من الزمان عما كان فيه من عناء العمل . وهنا تقدم صديقاه الشقيقان ترودين وعرضا أن يرافقاه فى رحلة طويلة الى ايطاليا التى طالما كان يحلم بزيارتها والتمتع بشهود آثارها القديمة الخالدة . ولكنه لم يشأ ان تقتصر رحلته على ايطاليا ، بل عاوده الحنين الى زيارة اليونان كذلك . فغادر مرسيليا لزيارة ايطاليا وآسيا الصغرى واليونان على التوالى . وفى خلال هذه الرحلة انتجت قريحته مقطوعات قليلة ولكنها فياضة بالعاطفة والاخلاص

وعاد اندريه الى باريس فوقع فى غرام سيدة حسناء تدعى مدام دى بوناى ، وراح ينشد فى حبها القصائد ويرمز لها باسم كاميل . ويظهر أنه جنح فى هذه الفترة الى شىء من اللهو يشبه أن يكون عبثا وخلاعة . فهو لا يقنع بحب مدام دى بوناى ، بل يهوى الى جانبهـا جليسير ، وروز ، وأميلى . وهو ينحدر الى مجامع أهل الفن ويشاركهم حفلاتهم وملذاتهم و (بوهيمياتهم) ولياليهم التى يختلط فيها حديث السياسة يتولاه رجل مثل مرسيه ، برواية الشعر وانشاده على لسان أديب مثـل فونتان أو بومارشيه ، ثم ينقلب المجال مرة واحدة الى لهو صاخب ، وعبث لا تحشم فيه ولا قصد . وهناك ينسى أندريه معبودته (كاميل) ولا يذكر سوى لهوه هـذه اللحظة مع جليسير ومثيلاتها من الغانيات الفاتنات

على أن هذا لم يكن سوى سحابة خفيفة ما كانت لتحجب عن صفحة ذهنه أعلى المثل وما كانت لتجرد صدره من أنبل العواطف . وليس أدل على ذلك من أنه نظم قصيدته العظيمة (الحرية) فى هذه الفترة نفسها ، أى فى مارس سنة ١٧٨٧

وقد خلص أندريه من هذا الوسط (البوهيمى) وانقطع عنه فى أواخر سنة ١٧٨٧ ، حين غادر باريس الى لندن ، وبقى فيها ثلاث سنوات موظفا فى السفارة الفرنسية . وهناك وقع حادث يدل على مبلغ ما كانت تنطوى عليه نفس اندريه شنييه من شمم واعتزاز بالكرامة . فقد لاحظ ان عمله بالسفارة لا يكاد يذكر ، وأن الأعمال موزعة بين مسيو بارتلمى الوزير فوق العادة ومسيودى لوزرن سفير الملك ، وازاء هذا رأى اندريه أنه لا يحق له أن يتقاضى راتبه . ولم يعدل عن قراره إلا بعد عتاب شديد من السفير والحاح عليه فى أن يتناول الراتب المخصص له

وعلى رغم ما أفاد شنييه من اقامته هذه فى لندن ، فانه لم يهنأ قط بمقامه فيها ، ولم يستطع أن (يهضم) عادات الانجليز وتقاليدهم الارستقراطية ، وقد عانى كثيراً من كبرياء عظمائهم ، و (برود) طباعهم برودا لا يمكن أن يطيقه ولا أن يسيغه الفرنسيون وأمثالهم من أهل المرح والخفة والمزاج الحاد . على أنه قد وجد بلسما يشفى بعض الجراح التى أصابت عزته من كبرياء الارستقراطية الانجليزية المتغطرسة ، اذ انعقدت أواصر المعرفة بينه وبين عدد من فلاسفة الانجليز الأحرار وفى مقدمتهم بريستلى وبرايس

وفى أثناء هذه الفترة أقبل اندريه شنييه على دراسة آداب اللغة الانجليزية . ولكنه لم يوفق الى التعمق فيها والتبحر على مثال ما وفق مواطنه الاشهر فولتير . فلم يظفر بتقديره واعجابه سوى عدد قليل جداً من شعراء الانجليز ، ومن بينهم ملتون الذى وصفه فى قصيدته (سوزان) بأنه : « ذلك العظيم الضرير الذى استطاع ببصيرته أن يرى من الأشياء ما لا يحصى ولا يعد » ويدهشنى حقا ان يكون ملتون من بين الشعراء الذين نالوا إعجاب شنييه مع أنه كان ينكر على شعراء الانجليز بوجه عام غموض شعرهم وثقل أوزانه . والذين درسوا الشعر الانجليزى حق الدرس يعلمون أن الغموض وثقل الوزن من أخص خصائص ملتون ، حتى ليقل بين أوساط الانجليز أنفسهم من يتفهمونه ويسيغونه رغم الاجماع على أنه فى الذروة بين الشعراء

لم يكن غريبا ، وهذا شعور شنييه نحو الانجليز وآدابهم أن يمل الثواء فى لندن بعد

عامين اثنين ، فقد تولاه السأم من حياته هناك على وتيرة واحدة . فهو فى الصباح عاكف على عمله فى السفارة ، وفى المساء متردد على المجتمعات والأندية ، وهو فى غالب الأحيان وحيد ، ناء ، يحس أنه مزدرى فى الأوساط الانجليزية العليا من اناس قل فيهم من يضارعه فى العلم والذكاء . وهو بعد شـديد الاهتمام بسير الحياة السياسية والأدبية فى باريس ، يتتبع أدوارها ومراحلها دون انقطاع، معتمداً على رسائل والده وأخيه (مارى جوزيف) اللذين كانا يوافيانه بكل ما هو جديد فى عالم التأليف ، ويبسطان له تطورات الثورة التى بدأت تتحرك فى مهدها إذ ذاك . فلم تكد تنعقد الجمعية التشريعية وتتوالى حوادث يونيو سنة ١٧٨٩ حتى عاد الى باريس فى اجازة رجع فى ختامها للمرة الأخيرة الى لندن . وقد أبحر اليها فى ١٨ نوفمبر ، فلم يكد يصل حتى كتب الى أبيه خطابا يصور له حالة القلق التى كانت تلازمه فى مقامه بعيداً عن مسرح الحوادث فى باريس ، فهو فى هـذا الخطاب يأسف على اضطراره مغادرة باريس ، ويقول ان أسباب القلق على مصائر الأمور فى بلاده أكثر توفراً وأمعن إيلاما للنفس . لانها أكثر غموضا وأقرب الى التهويل « أضف الى ذلك ان أخبار السوء دائما تضخم ويبالغ فيها ، وليس ذلك راجعا الى سوء نية الانجليز وحسب ، بل يرجع كذلك الى غالبية الفرنسيين الذين يقيمون هنا ، ولا يدركون ان عداءهم المقوت لوطنهم يجعلهم موضعاً للسخرية والتحقير »

ولم يطل لبث أندريه فى لندن هـذه المرة ، فبعد أشهر قلائل عاد الى بلاده ، وقد اعتزل الوظائف (الدبلوماسـية) الى غير رجعة ، معتزما أن يقضى بقية حياته فى عزلة هادئة . ولـكن أنى له هذه العزلة المنشودة والأحداث تتوالى ، والنفوس تتقزز ، والشرر الذى أشعل الثورة قد أخذ يتطاير ؟ وأنى له أن يقف بعيداً عن حوادث بلاده وهو الذى أشربت نفسه تعاليم فولتير الفيلسوف الحر ، وكان فى مقدمة الأحرار الذين ناصروا الثورة الامريكية وقابلوها بأعظم مظاهر العطف والتهليل ؟

انقطع أندريه فترة قصيرة للشعر بعد عودته الى باريس . ولـكنه لم يخلص مع ذلك من أحابيل السياسة . فانتخب عضواً فى (الجمعية) ١٧٨٩ ، وهذه الجمعية هى التى نشأت فى أول الأمر باسم (جمعية أصـدقاء الدستور) ثم انفصلت عن اليعقوبيين وأسست (جريدة الجمعية) واعتمدت فى تحريرها على عدد من فطاحل الـكتاب والشعراء ، وفى مقدمتهم مالويه ، وكوندورسيه ، وباستوريه ، وأندريه شنييه . وفى أواخر هذه السنة نفسها نشر أندريه فى جريدة الجمعية رسالة سياسية خطيرة الشأن عنوانها « بيان للشعب

الفرنسى عن أعدائه الحقيقيين » فأثارت هذه الرسالة عوامل الشقاق فى نفوس أعضاء (الجمعية) وانفصل عن تحرير الجريدة كوندورسيه وعدد من زملائه ، ووقفت الجريدة عن الصدور . وكان للرسالة فى أنحاء أوربا اهتمام شديد . وأعيد طبعها مستقلة ، وترجمت الى الانجليزية والألمانية والبولندية ، وأرسل الملك ستانيسلاس ملك بولندا الى أندريه (مدالية) مشفوعة بخطاب اعجاب على هـذه الرسالة . فأجاب أندريه اجابة جديرة بالأحرار

على أن انقطاع أندريه للسياسة لم يبدأ إلا فى الشطر الثانى من عام ١٧٩١ . وسرعان ما اشمأزت نفسه وثارت ثورتها على الناس والأحداث ، فصاح صيحة صادقة مليئة بالحسرة والندم : « لقد كنت مغمورا ذا متربة ، وكنت بذلك قرير العين ، لاننى كنت أعيش فى عزلة هادئة ، منقطعا للدرس ناعما بالود والصداقة ! »

أما الآن ! فقد ذهب هذا كله الى غير رجعة ، واستحال فى بوتقة الثورة خصومة وحقدا وكيدا آثما تضيق به نفوس الكرام ...

تقدم أندريه الى انتخابات سنة ١٧٩١ مرشحا للجمعية الوطنية ، ففشل ولم يكن بد من أن يفشل . وكيف يظفر برضى الجماهير رجل فى مثل رأيه الحر وكبريائه الفكرية التى تأنف مجاراة الشعب وزلفاه ؟ لقد خاض معركة الانتخاب دون أن يتمسح بأعتاب حزب من الأحزاب أو يلتمس العون من أية هيئة سياسية . وأبى الا أن يكون سيد نفسه ، ويتبع العقل والفضيلة وحدهما . اما موقفه من الشعب فقد أوضحه صراحة بقوله : « ان على الانسان أن يقاوم الشعب ليستطيع ان يخدمه ! »

فشل اندريه فى المعركة الانتخابية فلم يتنح مع ذلك عن ميدان السياسة ، بل اندفع اليها بكل ما يملك من قوة . وتوالت مقالاته السياسية فى الصحف مرة أو غير مرة فى الاسبوع خلال اشهر فبراير ومارس وابريل ومايو ويونيه ويوليه وأغسطس سنة ١٧٩٢ . وفى هذه الفترة دارت المعركة القلمية التى يؤسف عليها بين أندريه وشقيقه مارى جوزيف ، وكان مارى جوزيف هو البادىء بالهجوم ، مستسلما لتحريض جماعة كوندورسيه وشيعة بريسو وغيرهم من أعداء أندريه ، فما كان من هـذا إلا أن رد الهجوم بحملة لم يكن منقاداً فيها لأحد ولا كان يتلقى التشجيع عليها من أحد ، وما زال الاخوان يتناظران حتى تدخل بينهما الأهل وخاصة الأصدقاء ووقفوا رحى الجدل فى شهر يونيه سنة ١٧٩٢

وقد استحر النزاع بين أندريه شنييه وبين اليعقوبيين حين أقام هؤلاء في ابريل من هذا العام حفلات يكرمون بها الجنود السويسريين الذين تنتظمهم فرقة شاتوفييه ، بمناسبة صدور قرار الجمعية الوطنية بالعفو عن هؤلاء الجنود . فقد عز على وطنية أندريه وحز في نفسه ان يحتفي اليعقوبيون بهؤلاء الجنود « الذين نهبوا خزانة فرقتهم ، والذين قتلوا ضباطهم وباءوا بحكم الاشغال المؤبدة جزاء وفاقا ، والذين وافقت الجمعية الوطنية على العفو عنهم ، واذا كولودربوا يقترح في نادي اليعقوبيين تكريمهم فيستعد محافظ باريس (الرجل الصالح بتيون !) لاستقبالهم في المدينة استقبال الغزاة الفاتحين ! »

بهذه النغمة المرة راح اندريه يتحدث في رسائله الى (جريدة باريس) ، حديثا لا ينقطع عن عار هذه الفضيحة التي مثلها اليعقوبيون . ولم يكتف بالنثر بل استوحى آلهة الشعر فألهمته قصيدة ساخرة خانقة نشرها في ١٥ ابريل سنة ١٧٩٢ تحت عنوان « نشيد السويسريين من جنود شاتوفييه » وقد وقع هذه القصيدة غير آبه لبطش اليعقوبيين . وغادر باريس الى الريف في أثناء اقامة هذه الاحتفالات التي اشترك فيها شقيقه ماري جوزيف بشخصه وقلمه . وفي ٢٧ ابريل ظهر في (جريدة باريس) مقال اخر بتوقيعه ، كله هجوم عنيف على طغيان اليعقوبيين ، وانتقاد مر لتصرفاتهم ، وقد استهان اندرية بكل خطر يستهدف له في سبيل الجهر بعقيدته . فهو يصرح في هذا المقال « بأن من الخير ، ومن شرف النفس ، بل من دواعي اللذة والسعادة أن يتعرض المرء من جراء فضائله لمقت الجبابرة العتاة الذين يضطهدون الحرية باسم الحرية نفسها ! »

نقف أمام العبارة الأخيرة وقفة قصيرة ، لأن فيها كما سيتبين القارىء مفتاح الموقف كله ، وسر مأساة الارهاب التي لوثت صفحة الثورة الفرنسية اذ طاحت بألوف الضحايا ومن بينهم أندريه شنييه ، ظلما وعدوانا بأيدي القادة الذين نصبوا أنفسهم أول الأمر حربا على الظلم والعدوان

لم تكن صيحة احدى نساء الثورة الفرنسية : « أيتها الحرية ، كم من المظالم ترتكب باسمك » إلا ترديدا لنفس الكلمة التي قالها أندريه شنييه عن اضطهاد الحرية باسم الحرية ، والتي كانت تتردد على السنة الألوف والملايين في عهد الارهاب الذي عصفت عاصفته بالمترجم له . ولم يكن هذا الارهاب كما يقول الأستاذ ويل دورانت في كتابه (قصة الفلسفة) الا نتيجة انقسام الثورة والثوار بين تعاليم الفيلسوف المصلح الهادىء فولتير ، وتعاليم الفيلسوف الثائر الصاخب جان جاك روسو : بين الحرية من جانب

والمساواة من الجانب الآخر ، فأنصار فولتير يرون معه ان « الناس فى بلدما لا يمكن أن يتساووا جميعا فى القوة ، ولكنهم يمكن أن يتساووا فى الحرية . وهذا هو الذى كسبه الانجليز . فالانسان الحر هو الذى لا يخضع لغير القوانين » هكذا كان يرى ترجو وكوندورسيه وميرابو وغيرهم من أنصار فولتير الذين كانوا يطمعون فى الحرية من طريق الثورة الهادئة . أما المعسكر الآخر من الثوار وعلى رأسه مارا وروبسبير وأنصارهما ، فهو معسكر المحرومين الذين يطلبون المساواة ولو دفعوا الحرية ثمناً لها ! هؤلاء هم الذين أشربوا روح روسو الذى كان ينطق بلسان الرجل العادى ، وعاش حياته يرتطم بقيود الطبقات واختلاف مراتب الثراء ، فدعا دعوته الحارة الى تحطيم الطبقات وتحقيق المساواة بين الجميع

كان أندريه شنييه رجل الحرية ونصيرها وكان يطلب حرية كل انسان فى أن يفكر ما شاء له عقله وان يكتب ما شاء له فكره ، ولكنه كان يطلبها حرية لاتسفك فى سبيلها قطرة واحدة من الدم ، وكان يريدها حرية لا تخرج على القانون ولا تنتهك حرمته . فهو هنا على مذهب فولتير وإن لم يكن الفيلسوف قد طلب مطالب الشاعر ، ولم يؤمن بالحرية التى تنال بلا قطرة من الدماء !

لم يكن غريبا ، بل لم يكن بد ، وهذه حال الثورة من الانقسام بين طلاب الحرية وطلاب المساواة ، ان تمتد يد الارهاب الى الشاعر الذى اعلن الثورة على « الذين يضطهدون الحرية باسم الحرية نفسها ! » لا سيما وقد أردف مقال ٢٧ ابريل بسلسلة متتابعة من المقالات ، خرج فيها من التعميم الى التخصيص ، وراح يذكر خصومه السياسيين بأسمائهم ، ويتحداهم ويوسعهم نقدا قارصا يكاد يبلغ حد التشهير . فهو يسمى بريسو « كاتبا مفحشا يلطخ بالأوحال والدماء صدر جريدة (الوطنى الفرنسى) » . ويتهكم على كوندورسيه فيقول عنه : « يا له من رجل نزيه ! ذلك الذى جرى وراء الغنيمة فلم يجد سوى العار اذ أصبح صديقا ، ورفيقا ، بل مباريا لبريسو ومارا ! »

وانفجر أتون الثورة دفعة واحدة فى ١٠ أغسطس ، فاندكت قوائم الملكية وشتت أنصارها ، وحاقت الهزيمة بحزب أندريه شنييه . ولكنه أبى ان يتنحى عن الميدان أو ينثنى أمام العاصفة الجارفة . بل اخذ يصب جام غضبه في قوالب ملتهبة من الشعر . فلما بدأت محاكمة لويس السادس عشر فى أواخر هذا الشهر تخلى نبل أندريه وظهرت

شجاعته الفائقة وهو يتقدم لانتهاز هذه الفرصة مجدداً كفاحه ، ملحا فى أن ينال شرف الدفاع عن الملك . وقيل انه هو الذى وضع صيغة الكتاب الذى تلاه لويس السادس عشر أمام المؤتمر طالبا الاحتكام الى الشعب

وكان ان أعدم الملك على النحو المشهور ، فأصبحت حياة أندريه مهددة فى كل لحظة بالخطر . وما كان هو ليأبه لهذا الخطر أو يحفل بالموت اغتيالا أوإعداما بالمقصلة ، ولكنهم أصدقاؤه وأهله الذين جزعوا وفزعوا اليه ملحين فى أن يغادر باريس الى حيث يأمن يد البطش والغدر . فغادرها أولا الى روان ثم لم يطق المقام فيها بعيداً كل البعد عن مسرح الحوادث ، فاكترى له شقيقه مارى جوزيف داراً صغيرة فى فرساى ، وهنا لم يقعده عن العمل ما كان فيه من هم ومرض وعناء . فأخذ يتم قصيدته الرائعة (هرمز) التى كان قد بدأها منذ عشرة أعوام . وترفق به القدر لحظات فساق اليه فى هذه العزلة سيدتين جاءتا مثله تنشدان البعد عن جحيم الثورة فى ضواحى فرساى ، هما الكونتس أوكار وأختها مدام لوران لكولتيه فكان يلقاها فى مجتمع من فضليات السيدات . وينشدهما قصائده . وقد أحب فى الأخيرة منهما جمالا فى الخلق ونبلا وطهرا فى الخلق وصاغ فيها قصيدته فانى Fanny التى تبدأ بهذه الأبيات ذات السحر الروحانى الذى يجل عن الشرح والتحليل :

Fanny, l'heureux mortel qui près de toi respire,
Sait, à te voir parler, et rougir et sourire,
De quels hôtes divins le ciel est habité, etc...

ويخيل إلى أن المرحوم اسماعيل صبرى باشا كان ينظر الى هذا المعنى وهو يقول فى درته المتألقة « لواء الحسن » :

أنت نورانيـــة لا تدعى   أن هذا الحسن من طين وماء
وانزعى عن جسمك الثوب يبن   للملا تكوين سكان السماء !

ولكن شنييه يسمو درجات على الشاعر المصرى ، فلا نقصر وجه الشبه بين فانى وبين سكان السماء على الجسم النورانى ، وانما يتناول الشبه حديثها وحياءها وابتسامها الفتان

وقد أضفت (فانى) على روح شاعرنا مسحة من الهدوء والهناء ، حتى كاد ينسى بعد سنة قضاها فى ظلال حبها الطاهر ، أنه هو القائل : « لا ينبغى أن تصف أحداً بالسعادة حتى تعلم كيف أنزل الى القبر فى يومه الأخير ! » ولم يلبث الدهر أن أيقظه من سباته الهنىء ، ليزج به مرة أخرى ، فى مضطرم الأحداث التى كانت تتوالى سريعة

متفاقة . ففى ١٣ يوليه سقط مارا صريعا فى الحمام بيد شارلوت كورداى . وبعد خمسة أيام سيقت شارلوت الى المقصلة ، بل سارت هى اليها رابطة الجأش ثابتة الجنان . فما كان من أندريه إلا أن خلد ذكرها بقصيدته البديعة « الى شارلوت كورداى » وهى قصيدة لا يسع من يطالعها إلا أن يعجب بهذه الشجاعة النادرة التى تتجلى فى كل سطر بل فى كل كلمة من كلماتها ، حتى لكأنه يكتب بيده وثيقة الحكم على نفسه بالاعدام فى سبيل كلمة الحق يعلنها داوية من أعماق قلبه الثائر . وأى شجاعة أعظم من أن يعلن فى مطلع القصيدة أنه يتحدى الموت فى سبيل اعلان كلمة الحق بتكريم هذه الفتاة « العظيمة الرائعة » ، ثم يصف مصرع الجبار فى الحمام ، فيقول ان شارلوت جاءت تطلب الى أحشاء النمر وأنيابه القاتلة أن ترد الاعضاء الزرقاء التى ازدردتها والدماء البشرية التى افترستها ! وإن (مارا) ، بعينه التى أوشك أن يغمضها الموت ، رأى قاتلته مبتهجة أعظم ابتهاج ، وهى تهنىء ذراعها التى صرعته وتتأمل جثة فريستها ! وكأنها تقول له : « اذهب ، أيها الطاغية الخانق ، اذهب لتمهد الطريق أمام زملائك الطغاة ! لقد كانت لذتك الوحيدة أن تسبح فى الدماء ، فاسبح الآن فى دمائك أنت واعترف لله بالوجود ! ! »

Aux entrailles du tigre, à ses dents homicides,
Tu vins redemander et les membres livides
Et le sang des humains qu'il avait dévorés.
Son œil mourant t'a vue, en ta superbe joie,
Féliciter ton bras et contempler ta proie.
Ton regard lui disait : « Va, tyran furieux,
Va, cours frayer la route aux tyrans tes complices.
Te baigner dans le sang fut tes seules délices,
Baigne-toi dans le tien et reconnais des dieux ».

وكان مقتل مارا نذير مجزرة بشرية جديدة . فانكب أندريه مرة أخرى على دراساته علّه يجد العزاء والسلوى فى الشعر والفلسفة . فلما انقضى الربيع حسب أن عين الثورة قد غفلت عنه فغادر فرساى ليعود الى الاقامة فى باريس . ولكنه أراد شيئا وأراد القدر أشياء . فقد حدث فى أوائل مارس سنة ١٧٩٤ أن اعتقل باستوريه من أجل كفاحه الجرىء لاحترام القانون . وبعد بضعة أيام كان أندريه فى زيارة مسيو بيسكاتورى ، زوج أخت باستوريه ، وإذا برجل اسمه جينو يدخل الدار لتفتيشها ومعه أمر بذلك من لجنة الأمن العام . فاشتبه فى أمر أندريه شنييه ، وأخذ يستجوبه بمساعدة بعض أعضاء لجنة الثورة فى منطقة باسى Passy وانتهى الاستجواب باستصدار قرار من هذه اللجنة باعتقال اندريه فى الحال واقتادوه الى سجن

لوكسمبج ولكن بواب السجن رفض قبوله الا بأمر من اللجنة العامة ، فسيق الى سان لازار . ولم يلبث أخوه لويس سوفير شنييه ان اعتقل كذلك فى بوفيه . وعبثا حاول أبوهما الشيخ المنكود الحظ أن يستصدر أمراً بالافراج عنهما . ولم يسعه الا أن يلجأ الى السكينة والصمت حين أكدوا له أن خير طريقة لانقاذ السجين فى تلك الظروف التزام الصمت والبعد عن اثارة الانتباه اليه ، وبذلك تنسج حوله مؤقتا خيوط النسيان ويظل فى مأمن من البطش والعدوان . ولم يكن لمارى جوزيف من الحول والطول فى المؤتمر ما يمكنه من اطلاق سراح أخويه . وكان هو نفسه مهدداً فى حريته وحياته بالخطر لشدة ما كان يبغضه روبسبيير زعيم الارهابيين . فكان قصارى ما انتهت اليه الجهود التى بذلها لدى أعضاء لجنة الامن العام ان أخذ وعدا بأن تبقى (ملفات) أندريه ولويس تحت سائر الملفات مالم يصدر أمر رسمى بغير ذلك ! ولكن أنى يكون للسجينين أمل فى النجاة والثوار يعلمون أن رقبة أندريه شنييه أصبحت بين أيديهم !

أما أندريه فقد ظل على جرأته بل استهتاره الذى كان يتجلى فى كتاباته السياسية قبل سجنه . فلم يكن يتحفظ كثيراً ولا قليلا وهو يتحدث عن جلاديه الى زملائه وزميلاته فى السجن من النبلاء والنبيلات ! ولكن أخاه استطاع أن يطلعه على ما كان من أمر الوعد الذى ناله ، فقل حديثه وازداد تحفظه

ويشاء الحظ السيء أن يصبح مارى جوزيف نفسه هدفا للاضطهاد والمطاردة بسبب عدائه لروبسبيير ، فقد حرم عليه أن يغادر مسكنه ، واضطر تفاديا للمفاجآت أن يبيت كل ليلة فى دار ! وكان لهذه الحال وقعها الأليم فى نفس والد الاخوة الثلاثة المضطهدين ، فلم يعد يطيق الصمت والركون الى الصبر تعلقا بأهداب الأمل ، بل انتهز فرصة صدور قانون ١١ يونيه (٢٢براري) فرأى فيه بريقا من الرجاء فى العدالة والحرية ، وأعد مذكرة موجهة الى غرفة الشورة المكلفة بفحص حالات السجناء . ولكن هذه المذكرة لم تلق عناية ما . ثم تلقت النيابة العامة فى ٢٣ يوليه أمراً من ادارة الأمن العام بتقديم قضية أندريه شنييه بصفة معجلة . فبلغ من حرص النيابة على سرعة تنفيذ هذا الأمر أن أعد النائب العام قرار الاتهام فى اليوم نفسه واختلطت عليه الملفات فنسب الى أندريه وقائع وطبق عليه أوصافا ، مأخوذة من ملف أخيه لويس ، مما اضطر المحكمة فيما بعد الى أن تمحو من حيثيات حكمها نحو ثلاثين سطراً ! !

وفى ٢٥ يوليه أخرج أندريه من سجن سان لازار ، حيث ودع أصدقاءه فى الأسر

وداعا مؤثراً . ونقل الى السجن الذى فيه أخوه لويس دون أن يعلم هـذا بالأمر ، فلم تتح له حتى فرصة توديعه الوداع الأخير !

وفى صبيحة ٢٦ يوليه جيء بأندريه الى محكمة الثورة ووجهت اليه تهم عدة كان بينها أنه نشر مقالات فى نقد الاحتفال بجنود فرقة شاتوفييه النمسويين . وانتهت المحاكمة كما كانت تنتهى كل المحاكمات تقريبا فى أيام الثورة بالادانة والحكم بالاعدام !

وفى الساعة السادسة من مساء اليوم نفسه أعدم أندريه ونشرت الصحف اسمه فى قائمة الضحايا فى صبيحة اليوم التالى . فلم يكد مارى جوزيف يراه حتى هرع الى أبيه المنكود الحظ ، فاعترف الأب بأنه كان قد سعى للافراج عن ابنه عند بارير مدير الأمن العام الذى أصدر الأمر العاجل الى النيابة بتقديم القضية ! وكانت بين الأب والابن مشادة أليمة اتهم الولد فيها أباه المتهدم بأنه هو الذى سعى الى موت أندريه بتسرعه وتوجيه مسعاه الى بارير الذى كان من أشد خصوم مارى جوزيف . ثم ارتمى مارى فى أحضان أبيه الباكى يقطعه الحزن والأسى والندم !

ولو قد تأخر اعدام أندريه يومين اثنين لنجـا من المقصلة . فان روبسبير نفسه قدم متهما للمؤتمر فى ٢٨ يوليه وحكم عليه بالاعدام ! ولعل هذه السخرية المرة من سخريات القدر هى التى ضاعفت من حزن مارى جوزيف وأبيه على أندريه . حتى كان ماري يتمرغ على الأرض وهو يبكى أسى على أخيه ولم يحتمل الوالد وطأة الحزن فمات بعد عشرة أشهر

* * *

هذه فاجعة أندريه شنييه الذى نفث فى الشعر الفرنسى روحا جديدة ، وحفظ لنفسه على حداثة سنه مكانا الى جانب فرجيل وهومر وراسين ولافونتين ، وسيظل اسمه علما بارزاً بين أعلام المجاهدين فى سبيل أنبل وديعة سماوية للبشر . . . وهى الحرية !

جينمر

فارس الهواء الأعظم



يرى زائر (البانثيون) فى باريس اليوم بين اللوحات الرخامية المنقوشة تخليداً لذكرى عظماء الفرنسيين لوحة كتب عليها ما يلى عن جينمر :

«مات فى ميدان الشرف فى ١١ سبتمبر سنة ١٩١٧ بطل خالد رفع الى سماء المجد بعد ثلاثة أعوام تفضت فى كفاح عنيف . وسيظل أصدق رمز لصفات بنى جنسه : عزيمة لا تفل، ونشاط وعر لا يحد ، وشجاعة باهرة عالية . لقد أورث الجندى الفرنسى ، بما كان يحدوه من إيمان بالنصر لا يزعزع ، ذكرى لا تفنى على الزمان ، تثير فى النفس روح التضحية وتحرك فيها أنبل العواطف »

وقال عنه ثيودور روزفلت رئيس جمهورية الولايات المتحدة سابقا :

« انه يجىء فى الطليعة من مختلف أجناس المحاربين الأفذاذ ، الذين جعلوا من السموات ميدانا للقتال فى هذه الحرب »

ووصفه شاعر الامبراطورية البريطانية الأكبر رديارد كبلنج ، بأنه البطل الروحى لفرسان السحاب

وقال عنه أديب اسبانيا العظيم بلاسكو إيبانيز : «انه فارس الهواء الأكبر»

وسماه ادمون روستان : « ملاك فرنسا الحارس ، كما كانت جان دارك قديستها الطاهرة ، وكما كانت جنفييف راعية باريس »

هذا جورج جينمر كما تراه بلاده وكما يراه العظماء من غير بنى جنسه . وهو أقرب

أبطال هذا الكتاب عهدا بالحياة ، ولعله لهذا أقلهم حظا من الشهرة العالمية ، على عظيم تضحياته وعلو مكانه بين المجاهدين الشجعان

* * *

ولد جورج جينمر فى باريس فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٩٤ ، أى ليلة عيد الميلاد عند الغربيين . وكان أبوه ضابطا ثم مؤرخا لمدينة كومبين التى تعتبر من أحفل مدن فرنسا بأحداث التاريخ . وقد نشأ جورج نشأة كلها نعومة ورفاهية ، محوطا بتدليل أمه وشقيقتيه الكبريين ، فلم يكن يدور بخلد المرء إذ يراه أن هذا الطفل المدلل، الرقيق البنية ، النحيل الجسم ، الدقيق القسمات ، ذا الشعر المعطر المنسق فى حلقات أنيقة كأنه الطفلة المدللة — لم يكن يدور بخلد المرء إذ يشهد ذلك كله أن هذا الطفل سيكون فى الثانية والعشرين من عمره بطلا من أعظم أبطال فرنسا الأفذاذ فى أخطر ميادين القتال، وهو ميدان الهواء

ولكن الرجولة كانت متغلغلة فى أعماق نفس جينمر حتى فى هذه المرحلة الأولى من مراحل حياته القصيرة ، على الرغم مما أحاط به من مظاهر التدليل وعوامل الطراوة والرخاوة بين أحضان أمه وشقيقتيه

أجلسه أبوه يوما على ركبتيه فى حنان وتدليل ثم دارت بينهما الحادثة البسيطة التالية:

— كم أود أن آخذك معى الى حيث أنا ذاهب !

— والى أين أنت ذاهب يا بابا ؟

— الى مكان لا يذهب اليه سوى الرجال ...

— أريد ان أذهب معك

فتردد الأب لحظة ثم قال :

— التعجيل بالشىء خير على كل حال من تركه الى أن يفوت الأوان ، ضع قبعتك على رأسك ، فانى سآخذك معى

ومضى الأب والابن ، ثم عادا الى المنزل فلم تكد الأم ترى ولدها حتى طفرت من عينيها الدموع...

لقد ذهب به والده الى الحلاق ، فعاد وقد اختفت حلقات الشعر التى كانت تزين رأسه !

ورأى جينمر بكاء أمه ، فصاح بها صيحة الجد والعزم :

ــ إنى رجل ... فما حاجتى الى التزين بتلك الحلقات ؟ !

بدأ جورج فى السادسة أو السابعة من عمره يتلقى علومه الأولى تحت اشراف مربية شقيقتيه . ولكن والده اضطلع بالشطر الأعظم من تعليمه ، إذ كان يستصحبه للنزهة فى أنحاء المدينة وما حولها من غابات وقصور تحمل من ذكريات التاريخ ما يكاد يشمل كل دور من أدوار التاريخ الفرنسى . فهنا أقيمت الحفلات المقدسة لتولية ملوك، وهنا توفى عدة ملوك ، وفى هذه المدينة عقدت معاهـدات وأمضيت وثائق واتفاقات ، وكم شهد الأسلاف من أهل كومبين حفلات باهرة باذخة فى بلدهم أقامها لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر ونابليون الأول ونابليون الثالث ! بل لقد قدر لهذا الطفل نفسه ، جورج جينمر أن يقابل فى هذه المدينة سنة ١٩٠١ القيصر نيقولا وزوجته القيصرة الكسندرا. فلا عجب أن يمتلىء ذهنه بتاريخ بلاده الحافل يقصه عليه والده فى أثناء النزهة بأسلوب سهل يترك فى نفسه أعظم الأثر ، وكثيراً ما كان هو البادىء بالسؤال والاستفسار ، كما حدث إذ مر مع أبيه يوما بميدان (أوتيل دى فيل) ـ أى فندق المدينة ـ فاستوقف نظره تمثال فتاة حديثة السن شامخة الأنف ، ترفع بيدها علمها الخفاق فسأل والده فى اهتمام شديد :

ــ من هذه ؟

ــ هذه جان دارك . . .

وكان بعد ذلك ما أدت اليه المناسبة من حديث حماسى عن عذراء أورليان

والتحق جينمر فى الثانية عشرة بكلية ستانيسلاس ، وهناك كان يجمع الى ضعف البنية روحا ثائرة لا تكاد تخضع للنظام وتعترف بحدوده ، وكان يشارك رفاقه فى ألعابهم بفناء المدرسة أو فى الغابة المجاورة وهم يمثلون الوقائع الحربية التى يشتـد فيها الهرج والنضال . وكان ما يشعر به من (مركب النقص) يدفعه الى حد العنف الذى لا يتوقعه منه أحد . ولـكنه مع ذلك لم يكن دائب اللهو الهادىء أو العنيف ، بل كانت تعتريه لحظات ينقطع فيها عن اخوانه ويعتزلهم مستسلما للتفكير الهادىء العميق

وحصل على شهادة (البكالوريا) فاتجه الى دراسـة العلوم وأخذ يستعد للالتحاق بمدرسة الهندسة الحربية مقبلا فى شغف على دراسة (ميكانيكا) السيارات ، وكان ولعه بها من قبل قد حفزه وهو فى كلية ستانيسلاس الى صنع طائرة صغيرة من القماش جعل مكان المحرك فيها قطعة من المطاط

وكان الطيران إذ ذاك فى طفولته ، ولكنه كان يشب بسرعة فائقة . فان المحاولات الأولى فى ميدانه لم تبدأ الا فى سنة ١٩٠٦ ، حيث قطع سانتوس ديمو فى ٢٢ نوفمبر مسافة ٢٢٠ مترا فى الجو ، وكان هذا (فتحا) من فتوحات الطيران فى ذلك العام ! ولكن المخترعين ، او على الأصح المجتهدين ، كثروا في عالم الطيران بعد ديمو . فنى سنة ١٩٠٩ عبر بليريو بحر المانش ، وسجل بولان رقما قياسيا فى الارتفاع الى أعالى الجو اذ وصل الى علو ١٫٣٨٠ متراً . وسجل فارمان رقما قياسيا فى طول المسافة بأن اجتاز بطائرته ٢٣٢ كيلو مترا

كان شباب الغرب اذ ذاك ، وشباب فرنسا فى المقدمة ، يتلهف على الطيران . وكان جينمر من اشد هؤلاء الشبان شغفا واهتماما بهذا الفتح الجديد ، وقد صور احد زملائه مبلغ ذلك الشغف بأن قال فيا بعد عن جينمر : « حينما كانت تمر فوق الحى احدى الطائرات كان يتابعها ببصره ويظل ينظر الى السماء مليا بعد اختفائها ! »

وبينما كان جينمر يستعد للالتحاق بالمدرسة الهندسية الحربية سأله والده يوما عن المهنة التى تتجه اليها رغبته ، فأجاب بكل بساطة ، وكأنما هذا هو الجواب الطبيعى الذى لا جواب غيره :

— سأكون طياراً !

دهش أبوه لهذه المفاجأة ، وعجب كيف انتهى الى هذا الاتجاه الذى لم تكن له فيما يعتقد الوالد مقدمات ، فقال له وهو يحاوره :

— ولكن هذه ليست مهنة تختار . وما زال الطيران رياضة لا أكثر ولا اقل ، وانما مثلك وأنت تجتاز الهواء كمن يجتاز بسيارته الطرقات ، فاذا قضيت بضع سنوات فى اشباع شهوتك من الطيران اصبحت صانعا بسيطا بين الصناع . كلا ، والف مرة كلا !

وهنا رد على والده بما يفسر سر الظاهرة التى صورها زميله اذ شاهده يتأمل السماء بعد مرور الطائرة ، فقال :

— لست اميل الى مهنة سوى الطيران . ولقد شاهدت من فناء كلية ستانيسلاس طائرة تجتاز الفضاء فما أدرى إلا وقد أحسست نحو الطيران بعاطفة عميقة اشد العمق . عاطفة تكاد تكون دينية روحية . فأرجو أن تصدقنى إذ أطلب التحليق باحدى الطائرات

— ولكنك لا تعرف ما هو التحليق فى الجو . إنك لم تر الطائرة الا عن بعد

— ليس هذا بصحيح يا والدى ، فقد حلقت باحدى الطائرات فى كوربوليه !

وكان كوربوليه هذا مطارا يقع على مقربة من كومبين !

دارت هذه المحاورة قبل ان تشتعل نار الحرب العظمى ببضعة أشهر وكان ما هو مشهور من مقتل الأرشيدوق فرديناند ولى عهد النمسا فى يوليه سنة ١٩١٤ ، وتلبد الأفق الدولى بالسحب القاتمة وكان جينمر يصطاف مع اسرته فى بياريتز ، حيث شاطىء دانجليه الذى كان يعد من اصلح الأماكن لهبوط الطائرات . وهناك استطاع ان يتابع اهتمامه ويشبع شهوته الى الاشتغال بأمر الطائرات والطيران ، فلم يكن يدع طائرة تمر دون ان يستقبلها ويودعهامقدما ما يستطيع من معونة وخدمات للراكبين . فلما أعلنت التعبئة العامة فى ٢ اغسطس ايذانا باعلان الحرب ، هرع الى أبيه يقول له فى لهجة قوية افرغ فيها كل ما كان يساوره من قلق ، اذ كان يخشى أن يلقى من ابيه معارضة مصدرها الاشفاق على صحته وبنيته الرقيقة التى تأخر بسببها عن اللحاق بمدرسة الهندسة الحربية ، هرع الى أبيه يقول :

ـــ انى سأنضم الى الصفوف ، فهل تأذن لى ؟

فأجابه والده اجابة ملؤها الوطنية التى تضع الواجب الوطنى فوق كل عاطفة :

ـــ اننى اغبطك على ما قررت !

وسافر جينمر من فوره الى بايون ، لاجتياز المراحل الرسمية التى لابد منها . ولكنه وقف عند المرحلة الأولى وقد انهدم كل ما بنى من آمال . فان الأطباء الذين تولوا فحصه وجدوه سليم التكوين حقا ، ولكنهم وجدوا فيه كذلك فرطا فى الطول والنحافة ، ورأوا بنيانه الجثمانى فى حاجة إلى التقوية والامتلاء . وعبثا حاول الشاب المتلهف على خدمة وطنه ان يقنع الأطباء بالعدول عن قرارهم ، وعبثا حاول أبوه فى دوره أن يحقق له أمله

وعاد جينمر الى بيارتز حزينا مكتئبا ، لا تشغل باله سوى فكرة واحدة « كيف يخدم وطنه ويشترك فى قتال الأعداء » وكانت الانباء التى تتوالى عن انتقال الحكومة الى بوردو ، وإحداق الأعداء بعاصمة البلاد ، ودخولهم كومبين ، ثم انتصار الجنود الفرنسية فى معركة المارن ، واسترداد كومبين ، ونحو ذلك من مراحل الحرب الاولى ـ كانت هذه الأنباء تزيد النار اشتعالا بين جوانح جينمر ، وما زالت هـذه حاله حتى شاءت المصادفة أن تسقط على ساحل دنجليه احدى طائرات القتال فعاودت جينمر عاطفته المتأصلة فى أعماق نفسه ودفعه شغفه بالطيران الى أن يسأل قائد الطائرة :

— كيف السبيل الى الالتحاق بخدمة الطيران ؟

فأجابه القائد :

— ما عليك الا أن تتفق مع القبطان . فاذهب اليه فى بو Pau

وهرع جينمر الى بو ، حيث استطاع بعد الحاح شديد أن يلتحق بخدمة الطيران تلميذا (ميكانيكيا) ، فكان عليه أن يعيش أخشن العيش ويؤدى اقذر الأعمال . ينام على العوارض الخشبية وينظف أدوات الطائرات ، وينقل صفائح البترول . ولكنه احتمل هذا كله راضيا مغتبطا فى سبيل تحقيق غرضه المزدوج ، فهو قد دخل الجيش ، ولو لم يأته من بابه . وهو قد الحق بالطيران ، وذلك أعز احلام شبابه !

وقد أفاد جينمر فى هذه المرحلة الاولى دراية جديدة عملية أضافها الى دراسته النظرية التى كان يستعد بها للحاق بمدرسة الهندسة البحرية فعرف تركيب الطائرات قبل أن يعتلى متنها ، وأحاط بكل كبيرة وصغيرة فى جسمها احاطة دقيقة شاملة كان لها ولا شك أكبر الفضل فى مضاعفة روح الثقة بالنفس ثقة لازمته الى آخر رمق من حياته

وفى يناير سنة ١٩١٥ ، تسلم جينمر تذكرة أعماله الأولى كجندى من الدرجة الثانية وهى تقع فى خمسين ورقة ، فكان أول ما سجل فيها من أعمال بطل المستقبل :

الاربعاء ٢٧ يناير : إزاحة الثلج من المطار !

وهى بداية قد يحقرها أغرار المتطلعين الى ذرى المجد ، ولكنها البداية الخشنة التافهة التى لا بد منها لارتقاء السلم والتدرج فى سبيل العلا ورفعة الشأن ، وما أصدقها صيحة تلك التى ارسلها الكاتب الفرنسى العظيم هنرى بوردو تعليقا على ذلك إذ يقول :

« فيأيها الشبان المتوثبون فى كل مكان الى الظفر فى ميدان النصر بما ظفر به جينمر لا تنسوا ان طريق المجد يبدأ بازاحة الثلوج ! »

وبدأ جينمر بعد دراسته تركيب الطائرات يتعلم الطيران في بو ، فلم يكد يتم درسه الاول فى الطيران العملى حتى صاح به معلمه : « انك مفرط فى الاعتداد بنفسك ! هذا جنون ! » وكتب هو نفسه الى ابيه يقول : « بعد مغادرة أرض المطار شعرت شعوراً بسيطا بالقلق ، حتى اذا أصبحت بين أطباق الجو ، كانت لذة جنونية . أما الانحدار والتأرجح بالطائرة فلم أجد فيهما قط ما يزعج ، بل شعرت فى أثنائهما بالدهشة المقرونة بالغبطة . لقد وجدت بالايجاز كثيراً من المتعة والتسلية ، وإنه لمن حسن الحظ أن والدتى لم تكن حاضرة . فلا اظن اننى حرصت على أن يؤثر عنى الحذر والتعقل فى الطيران ! »

وسرعان ما ذهبت عن جينمر شهوة الجموح وزايلته نزعة الطيش ، فخضع راضياً لما تفرضه النظم العسكرية الصارمة ، ولـكنه مضى قدماً فى إتقان الطيران على أحدث النظريات وأدقها

وأرسل جينمر بعد فترة وجيزة الى جبهة القتال فى كومبين ، بل على مقربة من دار العائلة فى كومبين ! فلم يكن مدافعا عن الوطن وحسب ، بل كان مدافعاً عن ذلك الجزء من الوطن الذى تقع فيه داره ومسقط رأسه !

وبدأ طياراً فى فرقة الاستكشاف ، ثم انتقل منها الى فرقة المطاردة ، وهنا سجل فى تذكرة أعماله أول انتصار له فى القتال ، وتاريخه ١٩ يوليه سنة ١٩١٥ ، وكان زميله فى المعركة الجوية ضابطا شجاعا يدعى جيردير ، وقد دار القتـال بينهما وبين طائرة المانية ضخمة على ارتفاع ثلاثة آلاف وسبعمائة متر ، واستمر عشر دقائق هوت فى ختامها الطائرة الالمانية شعلة من النار . ولم يكد يهبط جينمرو زميله حتى أحاط بهما ضباط المدفعية الفرنسية مهللين فرحين ، وقدمت كؤوس الشمبانيا اليهما على حساب ضابط برتبة كولونيل . فلما قدم جيردير الى قائد الفرقة سأله كيف تمت المناورة حتى انتهت بالنصر ، فابتسم جيردير فى تواضع واعتراف بالفضل لصاحبه قائلا :

— هذا شأن قائد الطائرة

وأراد جينمر أن يتكلم فقاطعه قائد الفرقة متسائلا :

— من هذا ؟

فأجاب جينمر :

— ألست قائد الطائرة ؟

— أنت ! ؟ وكم سنك ؟

— عشرون سنة

— وسن زميلك قاذف الطلقات ؟

— اثنتان وعشرون !

فصاح القائد وهو يبتسم ابتسامة العجب والاعجاب :

— ماهذا ! ألم يبق سوى أن يدير الاطفال رحى القتال ؟ !

وعاد جينمر الى كومبين ، ومعه رئيسه الـكابتين سيمنيون ، وهناك أنعم عليـه بالمدالية الحربية تقديراً لشجاعته

وفى ٢٩ سبتمبر وأول اكتوبر سنة ١٩١٥ عهد الى جينمر بمهمتين خاصتين على جانب عظيم من الخطورة ، إذ كانتا تستلزمان الهبوط فى المنطقة الفرنسية المحتلة والعودة منها . وكانت الأولى تستغرق ثلاث ساعات فى الجو ، وقد زاد فى خطرها أنه كلف القيام بها فى عاصفة هوجاء ومع ذلك أدى المهمة على وجه يدعو الى الفخر ، مما جعل رئيسه يسجل له فى تذكرة أعماله الفقرة التالية :

« لقد أبدى شجاعة ونشاطا ورباطة جأش فى أثناء تطوعه بانجاز مهمة خاصة هامة عسيرة ، فى جو عاصف »

وفى ٦ نوفمبر خاض جينمر المعركة الثامنة على ارتفاع ثلاثة آلاف متر ، وكان خصمه فيها طيار ألمانى يقود طائرة قوتها مائة وخمسون حصانا ، وقد بدأت المعركة بأن اقترب جينمر حتى أصبح على مسافة ثلاثة أمتار تحت طائرة خصمه ، ولم يلبث أن ضحك ضحكة عالية حين رأى الألمانى مرتبكا لان (المتراليوز) لم يسعفه حين أراد تصويبه على طائرة جينمر ! وفى لحظات قليلة كان يطير فوق جناح الألمانى ، ولكنه اقترب منه حتى احتكت طائرته بالجناح وكادت تهوى به الى الارض . وبينما كان جينمر يسعى للاحتفاظ بتوازنه اذا به يرى (متراليوز) العدو مسدداً نحوه . وقد حفت احدى الرصاصات برأسه ولولا عناية القدر لقضت عليه . وما كان أسرعه حين بادر بالهبوط مرة أخرى تحت طائرة خصمه . وانتهز الاخير الفرصة فولى هاربا ، وقد طلب النجاة من هذا الفرنسى اللبق الشديد المراس

وفى ٥ ديسمبر سنة ١٩١٥ هاجم جينمر طائرتين أخريين على ارتفاع ثلاثة آلاف متر فوق منطقة كومبين ، فأسقط احداهما وفرت الاخرى منهزمة مولية . وبعد أيام واتته الفرصة فأدرك طائرة غيرها وأسقطها كما سقطت أخوات لها من قبل ! وفى ١٤ ديسمبر انقض على طائرتين من طراز فوكر ، فهوت منهما واحدة !

وأريد الانعام عليه بوسام فى ٨ ديسمبر ، ولكن السلطات الحربية وجدت أن سنه لا تسمح بذلك ، فلم يكد يبلغ سن الرشد فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٩١٥ حتى أنعم عليه فى اليوم نفسه بوسام الشرف مقرونا بهذه الشهادة الباهرة : « قائد هام وأنموذج للاخلاص والاقدام . قام منذ ستة أشهر بمهمتين خاصتين كانتا تتطلبان روح التضحية فى أسمى معانيها . وخاض ثلاث عشرة معركة جوية . ختمت منها اثنتان باحتراق طائرات الأعداء وسقوطها »

ولكن هذه الشهادة لم تلبث ان أردفت بتصحيح، لانها كانت قد وضعت فى ٨ ديسمبر ، فلم تتضمن اشارة الى انتصارى ٥ و ١٤ ديسمبر

وبدأت معركة فردان الهائلة . فسار أسطول سيجونى الجوى متجها الى المدينة التى يدور عندها القتال . ولم يأت يوم ١٣ مارس حتى كان جينمر يواجه أسطولا جويا كاملا من أساطيل الأعداء ، فأصيب فى المعركة بجرح بليغ . وطغى الدم على وجهه حتى كاد يحجب عينيه ، ولكنه رغم ذلك استطاع أن ينجو من أيدى الاعداء ، فهبط بطائرته فى بروكور وهناك نقلته فرقة الاسعاف اليابانية فى فندق استوريا الى باريس

وغادر جينمر فراشه بعد أيام قلائل ، أشد ما يكون عزما وبأسا وشوقا الى استئناف الجهاد ، فلم يطل به الشوق الى المعترك المنشود ، إذ انتقلت الحرب الطاحنة الى منطقة السوم La Somme . وهناك ظفر جينمر بنيف وعشرين انتصارا جاءت كلها اثر معارك عنيفة لم يهن عزمه فى واحدة منها ، ولم تفترهمته دون موالاة الهجوم على خصمه فيها حتى يصرعه. وكثيراً ما كان يواجه وحده ثلاث طائرات أو خمسا مجتمعة . فكان رصاصها المتناثر يخترق طائرته فى مواضع لا تكاد تبعد قيد أنملة عن مقاتله !

فاذا كانت نجاته من رصاص أعدائه مفهومة على وجه ما ، فان الذى يكاد يعد من المعجزات حقا هو ما حدث له فى ٢٣ سبتمبر ، إذ كان يهاجم خمس طائرات ألمانية وحده ، فاستطاع أن يسقط منها طائرتين بعد اشتعال النار فيهما ، وقتل أحد القاتلين فى طائرة ثالثة فاضطرها الى النزول ، ثم انفجر خزان الماء فى طائرته هو ، فسقط بها من ارتفاع ثلاثة آلاف قدم ... دون أن يقتل !!

أليس هذا أقرب الى المعجزات منه الى المعقولات ! ؟

وهل من عجيب بعد ذلك أن يأمر أحد القواد ، وقد رأى جينمر ينهض كالشبح من حطام الطائرة ، بأن تصطف فرقة شرف يعرضها هو والى جانبه جينمر تكريما له وتعظيما لبطولته ورباطة جأشه . فيعتذر جينمر بأن ركبته تؤلمه أشد الألم بسبب الجرح الذى أصابه ، ولكن القائد يرد عليه قائلا :

— أتصيبك أنت الجراح ؟ ذلك مستحيل . ان الذى يسقط من السماء ولا يتهشم ساحر ولا شك . انك لا يمكن ان تجرح . هيا ، اتكىء على !

ومر القائد ، وهو يكاد يحمل اللازم الشاب الذى يتكىء عليه ، وعرضا فرقة الشرف ، على اصداء نشيد (المارسييز) الحماسى ، منبعثا من أعماق الخنادق المجاورة

ولم يلبث جينمر فى فراشه الا أياما نهض بعدها لاستئناف الكفاح فى سبيل الوطن .
وما زال يتنقل فى ساحات القتال ، من السوم الى اللورين الى الاين ثم إلى فلاندر ، وما زال يضيف نصراً الى نصر ، ويطمع مع ذلك فى مزيد من المعارك المكللة بتاج الفوز والفخار ، حتى بلغت انتصاراته ثلاثة بعد الخمسين ، ثم امتدت اليه عندئذ يد القدر التى يهزأ بما يقدر الانسان فى غفلة عنه او تغافل ، فقد غادر بياريتز بطائرته فى نحو الساعة الثامنة والنصف من صباح الثلاثاء ١١ سبتمبر سنة ١٩١٧ ، ومعه الملازم الثانى بوزون فردوراز Bozon Verduraz فى طائرة أخرى . وانطلقا ناحية الجنوب الشرقى ، وعبرا الخطوط الفرنسية ثم الانجليزية دون أن يلقيا أحدا من الاعداء . فمضيا الى الخطوط الالمانية عند بويلكا بل Poelcapelle وهناك لمح جينمر بنظره الحاد طائرة منفردة من طائرات العدو ، فأشار الى زميله أن يستعد للمعركة المنشودة ، ولكن الطائرة الالمانية لم تكن فردية ، بل كانت من الطائرات المزدوجة فاذا أضفت الى ذلك أن القتال كان يدور فوق المنطقة الألمانية نفسها أدركت مبلغ الحرج الذى يعانيه الطائر المهاجم فى مثل هذه الحال ، وأخذ جينمر يناور ويداور ليتفادى أولا رصاص الطائرة ذات المدفعين الرشاشين ، وليلتمس ثانيا نقطة يستطيع منها ان يصرع خصمه بطائرته الفردية . وبينما المعركة بين جينمر وخصمه دائرة لمح زميله بوزون فردوراز ثمانى طائرات المانية قادمة للنجدة ، فأراد بوزون أن يتفادى لقاء هذه الطائرات كلها مجتمعة . ولهذا لجأ الى مناورة بارعة ، هى أن يجعل نفسه هدف الطائرات الثمان القادمة ، ثم لا يزال يغريها بملاحقته حتى يفرق شملها ويضللها ، وبذلك يترك لزميله فرصة الظفر بالنصر الرابع والخمسين ، ثم يعود للقائه فى ميدان المعركة لاستئناف الزحف او العودة الى الصفوف انتظارا لفرصة الهجوم

وكان بوزون فردوراز موفقا فى مناورته ، فقد اغرى الطائرات القادمة بمتابعته ثم شتت شملها وأفلت منها عائدا الى ميدان المعركة

ولكن أين جينمر ؟

لا اثر ، ولا خبر !

السماء خالية مقفرة لا تلمح فيها طائرة غادية او رائحة . والأرض خالية من كل أثر يدل على أن طائرة سقطت فى هذا المكان . ومع ذلك لا بد ان يعود جينمر ! افيمكن ان يكون قد لقى مصرعه ؟ كلا ! ذلك عند ابطال السرب جميعا ، بل عند الفرنسيين

جميعا ، ضرب من ضروب المستحيل ! ليقل من يشاء ان سربا بأكمله لقى مصرعه بيد العدو ، فذلك يحتمل التصديق . ولكن الذى لا سبيل معه الى تصديق او احتمال ، فهو ان يقول قائل ان الذى انهزم هو جينمر !

حقا انه لم يزل فى عامه الثالث والعشرين ، فهو (غلام) كما كان رؤساؤه وزملاؤه يدعونه ، ولكنه غلام لا ككل الغلمان ! غلام يقصر عن مطاولة مجده وبطولته اشجع الرجال !

انه جينمر وكفى !

بهذا كان يتحدث بوزون فردوراز الى نفسه ، وهو يحلق ويهبط فى الجو باحثا متلمسا أثرا لرفيقه البطل المفتقد . ومضت ساعة فى البحث دون فائدة . وأخذت ساعة اخرى تمر كأختها على غير جدوى او طائل . ولم يكن بد من أن يعود الطيار الوفى الى معسكره فى سان بول سورلامير ، ولكنه عاد وحده . ولم يعد فى رفقة جينمر !

وكان أول ما جرى به لسانه حين هبط معسكر الطيران ان تساءل :

— هل جينمر هنا ؟

— كلا ، لم يعد بعد !

واهتزت أسلاك التلفون ، واهتزت موجات البرق اللاسلكى ، وانطلقت الطائرات للسؤال والبحث عن جينمر ...

ومضت الأيام متتابعة والبطل المرقوب لا يعود . فلم يكن مناص من التسليم بالحقيقة الواقعة . ونشرت الصحف ان جينمر قد لقى مصرعه فى معركة جوية بمنطقة الفلاندر

فهل يصدق الجمهور الفرنسى ما سلم به رجال الحرب ونشرته الصحف ؟

هيهات !

كتب أحد محررى (الطان) فى ذلك الحين مقالا استهله مستعيداً ذكرى فصل قرأه فى احدى روايات بلزاك يصور جمعا من فلاحى قرية فرنسية وقد أقبل عليهم ساعى البريد فأخذوا يتصايحون من حوله :

— هل من جديد ، أيها الساعى !

فخلع هذا قبعته ، وهز كتفيه ثم قال لهم :

— لا شىء يستحق الذكر ، لا شىء قط ! معذرة بل هنالك جديد هام ! فهم يقولون فى باريس ان الامبراطور مات فى سانت هيلانه (يقصد نابليون فى منفاه)

فساد الجميع وجوم الأسى والحزن ثم صاح من بينهم ريفى ساذج :

— الامبراطور يموت ! قف ! إنهم حقا لا يعرفون من هو الامبراطور !

واستطرد محرر (الطان) فقال انه سمع رداً مثل هذا منذ أيام فى محطة(الاوتوبوس) بمنطقة أفيرون . وذلك أن أحد الركاب أعلن للذين حوله ، وفى يده احدى الصحف أن الكابتن جينمر قتل فى معركة جوية بمنطقة الفلاندر ، فعلت الكآبة وجوه السامعين إلا سائق السيارة وحده فقد ظل محتفظا بابتسامة ساخرة لم تفارق شفتيه وهو يفحص آلات السيارة ، فلما انتهى من الفحص تناول خرقة وراح يمسح بها يديه من آثار الشحم والزيت ، ثم اتجه فى هدوء الى الراكب الذى بيده الصحيفة ، وقال له فى بساطة تامة :

— أما أنا ، فأقول لك إن ذلك الذى سينزل جينمر من علياء سمائه لم يتم تعليمه الأولى بعد ! هل فهمت ؟ !

* * *

وظلت فرنسا تجهل ما كان من أمر بطلها الشاب ، ولا تدرى كيف مات وأين ؟ ولا تعرف لجثته ولا لطائرته أثراً من الآثار حتى كان يوم ٨ نوفمبر سنة ١٩١٧ ، إذ رأى قسم الشئون الخارجية فى برلين أن يبعث برد رسمى على استفسار تلقاه ذلك القسم من السفارة الملكية الاسبانية بشأن مصير جينمر وهذا نص الرد :

« سقط الكابتن جينمر على أثر صراع جوى وقع فى الساعة العاشرة من صباح ١١ سبتمبر الماضى . قرب مدافن الشرف الثانية جنوبى بويلكابل . وقد دل الكشف الطبي على أن الوفاة كانت برصاصة فى الرأس ، كما أن رصاصة أخرى أطارت سبابة اليد اليسرى . ولم يمكن حجز الجثة نفسها أو دفنها ، لأن المكان الذى سقط فيه ظل منذ ١٠ سبتمبر هدفا للهجوم الشديد من مدافع الجيش الانجليزى ، فكان من المستحيل الدنو من مكان الجثة خلال الايام التالية . وقد أبلغتنا السلطات المسئولة فى جهة القتال أن نيران المدافع غيرت وجه المنطقة تماما ، فلم يستطع الطيارون الالمان أن يعثروا فى ١٢ سبتمبر على أى أثر للجثة أو الطائرة . وأما الاجراءات الجديدة التى اتخذت بناء على طلب السفارة الاسبانية فى اكتوبر الماضى فلم تسفر عن أية نتيجة ، إذ أن مكان السقوط نفسه ظل منذ أول الشهر داخلا فى الخطوط الامامية الانجليزية

« وانه لمن دواعى الأسف لدى الطيارين الالمان ان لم يستطيعوا تقديم التحية الأخيرة

لخسمهم الشجاع . ومما هو جدير بالملاحظة أن البحث الذى قاموا به كان محفوفا بأعظم المصاعب ، لتوالى هجمات العدو فى بويلكابل ، ولتنقل الفرق المحاربة ، ولعدم وجود شهود عيان ، سواء أكانوا قد ماتوا أو جرحوا أو نقلوا من موقع الى موقع . ولم تستطع الوحدات المشغولة فى غير انقطاع بالمعارك المحتدمة أن تدلى سريعا بالمعلومات التى طلبت منها »

هكذا كانت خاتمة جينمر . وكأنما أبى حتى في الموت أن يستقر بين حنايا القبر وجدرانه الضيقة

وقد أصدر مجلس النواب الفرنسى فى ١٩ اكتوبر قراراً بأن ينقش اسمه على جدران (البانثيون) . وهذا نص القرار الذى صدر بالاجماع بين الهتاف الحماسى والتصفيق :

« يدعو المجلس الحكومة الى أن تأمر بأن توضع فى (البانثيون) لوحة منقوشة لتخليد ذكرى الكابتن جينمر ، رمز أمانى الشعب ونزعاته الحماسية »

وقد تلى هذا القرار فى جميع مدارس فرنسا — فى ٥ نوفمبر ، وأصدر وزير المعارف أمراً بأن تدرس حياة جينمر لجميع تلاميذ المدارس ، صغاراً وكباراً ، باعتباره مثلا أعلى للتضحية والاخلاص والاقدام

مصادر الكتاب

باللغة العربية

فى الأدب الجاهلى للدكتور طه حسين بك
العمدة لابن رشيق
المعلقات العشر وأخبار قائليها مع شرح الشنقيطى
شرح المعلقات السبع للقاضى الزوزنى
الشعر والشعراء لابن قتيبة
طبقات الشعراء لابن سلام
قادة الفكر للدكتور طه حسين بك
مصطفى كامل فى ٣٤ ربيعا للمرحوم على فهمى كامل بك
خطابات المرحوم مصطفى كامل باشا الى مدام جولييت آدم
أشهر مشاهير الشرق للمرحوم جرجى زيدان بك
تراجم مصرية وغربية للدكتور محمد حسين هيكل بك
طرفة بن العبد ـ مقالات للدكتور طه حسين بك فى جريدة الجهاد
جان دارك أو فى سبيل الوطن للمرحوم غانم محمد
أشهر مشاهير الموسيقى الغربية للدكتور محمود احمد الحفنى (وقد طالعت الفصل الذى فيه عن موتسارت فوجدته محشواً بالاغلاط التاريخية واللغوية ويحسن بالدكتور الحفنى أن يعيد طبعه مصححا ، لاسيا وقد كتبه وهو تلميذ فى المانيا)

باللغة الانجليزية

The Historians History of the World by Henry Smith, Williams, Ll. D. Volumes 19, 20, 21, 22.
Hutchinson's Story of the British Nation.
Life and Labour by Samuel Smiles

Character by Samuel Smiles
Duty by Samuel Smiles
The World's Famous Orations (Vol. IV — Funk and Wagnalls Company)
The Life and Letters of Keats by Lord Houghton with an introduction by Robert Lynd (Everyman's Library)
Poems of Keats — Introduction by Henry Newbolt
The Rowley Poems by Thomas Chatterton with an introduction by Maurice Evan Hare (Oxford, The Clarendon Press).
A Short History of English Literature by Prof. Saintsbur
A Book of Boyhoods by Eugène M. Fryer.
The Life of Mozart by Edward Holmes.
Famous Trials by The First Earl of Birkenhead
Saint Jean by Bernard Shaw.
Historical Trials by Sir John Macdonell
The Story of Philosophy by Will Durante
Alexander the Great by Arthur Weigall
The Lives (Volume II) by Plutarch
A Short History of the World by H.G. Wells

باللغة الفرنسية

Guynemer par Henry Bordeaux
Poésies d'André Chénier — Edition critique — Etude sur la vie et les œuvres du poète par L. Becq de Fouquières (Paris, Charpentier) .